القسم الأول

الجزيرة العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

أقاليم ودول وإمارات

تتعدد الأقاليم فى الجزيرة العربية لاتساع رقعتها ، فنى الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسَّراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة ، هى تِهامة التى تفصل بينها وبين بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نَجْد الفسيحة التى تظل تنحدر نحو الشرق ، حتى تصاقب أرض العَروض : اليمامة والبَحْرين ، وتظل تنبطح شمالا فى إقليم القَصيم حتى جبلى أجَأ وسلمى ، وتلتقى بصحراء النفود الممتدة من تيماء إلى الشرق ، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعاً لها نحو الجنوب تسمى الدهناء أو رملة عالج ، وتستدير حول اليمامة منبطحة فى الربع الخالى ، وهو صحراء مجدبة تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين حَضْرَمَوْت وظَفار وعُمان من جهة ثانية ، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التى تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز . وتستقل اليمن بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وتتوسط حَضْرَمَوْت ومعها ظفار بينها وبين عُمان التى تشرف على المحيط الهندى من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وكانت تشمل قديماً طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج ، وهى رأس الخَيْمة والشارقة ودُبَىّ وأبو ظَبْى . وشمالىّ هذه الإمارات البحرين ، وكانت تشمل إمارة قَطر الحالية وإمارة الكُوَيْت الحديثة ، وكذلك الأحساء . والأقاليم الأساسية فى الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هى الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْتُ وعُمان والبَحْرين ، وسنخص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته .

الحجاز[١] وإماراته

كانت فى الحجاز لهذا العصر إمارتان : إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نَخْـل وعُسْفان ومَرّ الظَّهران . وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خَيْبر وفَدك وينْبع والفَرْع ووادى القُرَى ومَدْيَن . وكانت إمارة مكة للحسنيين من أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب فى حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب . وكان الأولون يعتنقون المذهب الزيدى الشيعى ، بينما كان الثانون يعتنقون المذهب الإسماعيلى على الأقل فى عصر الدولة الفاطمية . وكان لإمارة مكة المكانة الأولى ، إذ كان المسلمون – ولا يزالون – يؤمونها سنويا من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج ، وكان مَنْ يُدْعَى له من الخلفاء على منابرها سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أسرة حسنية حكمت مكة لهذا العصر هى أسرة بنى سليمان أو بنى موسى ، وكان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين لسنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدى ، وراسله الخليفة المعز الفاطمى كى يقيم باسمه الخطبة فى موسم الحج ، فأبى ، مما جعله يجهِّز له عسكراً لحربه سنة ٣٦٠ وساعد العسكر بنو الحسين أمراء المدينة ، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر . وتولى بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأذعن للعزيز الفاطمى ، وأقام الخطبة باسمه ، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة ، وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة ، ومضت تدين لهم بالولاء بعد وفاة عيسى وولاية أخيه أبى الفتوح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى أن يحملوه على أن يقرأ سجلا فى المسجد الحرام بالبراءة من أبى بكر وعمر وسَبِّ بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول ﷺ ، فرفض ذلك وقطع

---

(١) انظر فى أمراء مكة والمدينة تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء الرابع والفاسى فى كتابه : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) وصبح الأعشى للقلقشندى فى مواضع متفرقة والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ومعجم البلدان لياقوت فى مكة والمدينة ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لسمهودى (طبع مطبعة المؤيد) وخلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام لابن زينى دحلان وماضى الحجاز وحاضره للشيخ حسين محمد نصيف وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث – الجزء الأول – للدكتور عبد الكريم عزيزية ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور (الترجمة العربية – طبع القاهرة)

صلته بمصر . ودفعه – فيما بعد – أبو القاسم المغربى حين فرَّ من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه ، فخُطب باسمه ، وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وعاهده أميرها وأمير طيئ حسان بن مفرِّج على نُصْرته . وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مفرِّج بالأموال ، فنفض يده من أبى الفتوح وأسلمه إلى المصريين . وفرَّ أبو القاسم المغربى إلى العراق . واضطُرَّ أبو الفتوح أن يعلن طاعته للحاكم ، فعفا عنه وعاد إلى إمارته . وحدث بعد عودته فى سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين فى أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس ، فصدعه وهو يقول : إلى متى تُعْبَدُ ؟ إلى كم تقبَّل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه هو ونفراً من أصحابه . وما زال أبو الفتوح يلى مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته ، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وكان فارساً وأديباً شاعراً ، وله قصة ترويها كتب التاريخ عن زواجه من جارية هلالية تسمى الجازية ، وهى نواة قصص أبى زيد الهلالى . وبشكر انقرضت سلالته وحُكْمها فى مكة إذ لم يعقب ولداً ، وصار أمرها بعده إلى عبد له ، غير أن فرعاً من الأسرة الحسنية من بنى هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بنى سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شمالىّ اليمن ، فأسسوا لهم إمارة هناك فى المخلاف السليمانى المنسوب إليهم . وكان أحد الهاشميين ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة الصُّلَيْحى أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة فى الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين ، تبعاً لما كان يُغْدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة ، إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه . واستطاع أن يجمع فى ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقُراهما ، وبذلك اجتمع له الحجاز . وولى بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٨ وكانت الخطبة فى عهده تارة تكون باسم الفاطميين ، وتارة باسم العباسيين . ويخلفه ابنه أبو فُلَيتة ، فيجعل الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة ٥٢٧ . واتصلت الخطبة باسم بنى العباس فى عهد ابنه القاسم حتى قُتل سنة ٥٥٦ . وخَلَفه ابنه عيسى ، وفى عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه : مكة والمدينة ، ثم استولى على اليمن . ويظل أبناء عيسى يلون مكة ، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفى عهده يبطل صلاح الدين المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ، ويعوِّضه عنها فى كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحاً ، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين . ويدخل سيف الدين طُغْتكين الأيوبى مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحَىَّ على خير العمل ، عملا بأذان أهل السنة أو الجماعة .

ويخلف داود أخوه مكثر سنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود . ومنه انتزع مكة قتادة الحسنى سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها فى أبنائه إلى العصر الحديث .

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه ، وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر ، وللكامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه ، وكان يؤذن فى الحرم بحىّ على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، وأيضاً على قاعدة الزيدية من آبائه . وخلفه ابنه الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبى أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز ، وولّى عليهما على بن رسول ثم طغتكين التركى . وعادت مكة إلى بنى قتادة ، ووليها راجح ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تتنقل بينه وبين أخيه على وجماز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجح حتى سنة ٦٥٢ . وفى كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولّون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ . وكانت مصر بعد ذلك فى عهد السلاطين المماليك هى التى توليهم ، وكانوا يعيّنون بجانبهم حكاماً لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية . ومن أهم أمراء الأسرة أبو نُمَىّ الأول الذى ولى مكة سنة ٦٥٢ وثبّته عليها السلطان بيبرس ، وظل يلى شئونها خمسين عاماً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان يقال لولا أنه زيدى النحلة لصلح للخلافة لحسن صفاته . وروى له الفاسى بترجمته فى كتابه العقد الثمين يميناً أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أشبه بعهد موثّق : أن يحمى الحجاج ويؤمّنهم ، وأن يظل على طاعته وطاعة ابنه الصالح . وكان شاعراً جواداً ، ومدحه شعراء كثيرون فى مقدمتهم الحنديدى . ويخلفه فى سنة ٧٠١ ولداه : رُمَيْثة وعُطَيفة ، ويرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة فى سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قمحاً تفرّق فى أهلها . ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويُقْبض عليه فى سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر ، ويتولاّها أخوه حُمَيْضة . وتُرَدّ مكة إلى رميثة . ويبلغ الناصر فى سنة ٧٣١ أنه يجهر بمذهب الزيدية ، فينكر ذلك عليه ، ويرسل إليه عسكراً . ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة فى الإمارة ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولديه : ثَقَبة وعجلان . ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمّر الأخوان على مكة ، ويجعلها المصريون لعجلان إذ كان ثقبة يعلن نصرته لمذهب الزيدية وأقام له خطيباً زيديا يخطب الناس أيام الحج ، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم ، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفى سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان . وكان بخلاف آبائه يحب أهل السنة ، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم ، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالمحمل على العادة . وكان

ممدَّحاً ، مدحه النَّشو شاعر مكة وغيره ، وأشرك معه ابنه أحمد فى الحكم ، وما زال يلى الإمارة حتى توفى سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفى سنة ٧٨٨ . ووليها بعده أخوه على وشركه فى الإمرة أخوه مغامس لمدة سنتين ، وما زال عليها حتى توفى سنة ٧٩٧ فخلفه أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩ . ويتولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ ويخلفه ابنه محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات ، وأهم منه ابنه أبو نُمَىّ الثانى الذى سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثمانى سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلن تسليم الحرمين إليه .

وكانت إمارة مكة فى العهد العثمانى تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليتها ثلاث أسر من أبناء نُمَىّ : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية فى الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد فى القرن الحادى عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركاتى إلى زيدى حتى استقل بها بنو زيد ، وظلوا يلونها إلى زمن فتح محمد على للحجاز فى عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصرى الشريف محمد بن عون عليه . وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء أبى نُمَىّ ، ونقصد أسرة عون . وحين انسحب جيش محمد على من الحجاز سنة ١٨٤٠ عينت الدولة العثمانية عليه والياً لها ، واستبقت الشريف محمد بن عون ، فكانت السلطة ثنائية بينه وبين الوالى العثمانى ، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م . وما زالت الإمارة فى أبنائه حتى استخلصها سعود الثانى من حسين بن على آخرهم لا فى هذا العصر ، وإنما فى العصر الحديث .

وكانت إمارة المدينة أقل شأناً من إمارة مكة ، وكانت الرياسة فيها لبنى المهنَّا أحفاد الحسين ، ويُروى أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر ، فأكرمه وأقطعه ما يُغِلّ كل سنة مائة ألف دينار ، وتوفى سنة ٣٢٩ وانعقدت مودة وثيقة بين ابنه مسلم وكافور ، ويقال إن مسلماً كان يدعو للمعز صاحب إفريقية وفى هذا ما يشير إلى أن هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى ، ويقال أيضاً إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنته لأحد أبنائه ، فردَّه ، فحنق عليه ونكبه ، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة ، فأمَّره الحسينيون هناك عليهم ، واستقلَّ بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن ، واختلف المؤرخون هل الأمراء بعده من سلالته أوهم من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذى يقال إنه وليها بعده . ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمى أمر الحسن بن جعفر السليمانى أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بنى المهنا ، غير أنها لم تلبث أن عادت إليهم ، وظلت فى أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة .

وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، الواحد تلو الآخر ، إذ كانوا من شيعتهم . ومن أهمهم منظور بن عمارة المتوفى سنة ٤٩٥ . وتنتهى الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز فى طاعته ، ويُبْقى على بنى مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها فى العهد الأيوبى من قِبل الخلفاء العباسيين ، ومن أشهرهم حينئذ أبو فُلَيْته الذى حضر مع صلاح الدين فتح أَنْطاكيَة سنة ٥٨٤ وولى بعده ابنه سالم ، وكان شاعراً ، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذى الحُلَيفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة ، وفى ذلك يقول ملتاعاً :

مصارعُ آل المصطفى عُدْنَ مثلما بَدَأْنَ ولكنْ صِرْنَ بين الأقاربِ

ويقال إن سالماً حضر إلى مصر فى سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة ، ومات فى طريق عودته قبل وصوله إلى المدينة ، وولى بعده ابنه شيحة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى ، وقبض عليه أخوه جَمَّاز سنة ٦٤٩ وملك مكانه ، وهو الذى ظلت الإمرة بعده فى بيته ، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعمى فى آخر أيامه ، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه ، وقبل شفاعته فى أمير ينبع وفى أبى نُمَى أمير مكة وكان قد غاب عن لقاء الركب المصرى . وخلفه ابنه منصور ، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس (هكذا فى ابن خلدون وصبح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير) فأشرك بينهما فى الإمرة وفيما عيَّنه من إقطاع لأمير المدينة ، وغاب منصور عن المدينة لأمر واستخلف ابنه كبيشة ، فملكها مقبل من يده ، ولحق كبيشة بأحياء العرب ، فنصروه على عمه وسقط قتيلاً سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته ، وظل بها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقضَّ عليه آخر . ويكفى أن نذكر ممن تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كبيشة بن منصور ، وودِّى بن جماز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب جماز ، ثم جماز بن منصور وهبة ابنه ، وهبة آخر من عقب وَدُّى وعُطَيفة بن منصور بن جماز وهبة بن جماز وجماز بن هبة بن جماز ونُعَيْر بن منصور وثابت بن نعير . وكثيراً ما كان يشب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر والياً حتى سنة ٧٩٩ . ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهُبارِز بن هبة الله المتوفى بالسجن فى الإسكندرية سنة ٧٨٩ . وحقًّا كانت تتبع المماليك وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء ، ولكن الأمر أفلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد ، فما يكادون يولون شخصاً حتى تقيم الأسرة شخصاً آخر وتطلب توليته ، ويفزع إلى القاهرة كى تخلع عليه وتنصبه أميراً . على كل حال

ساء الحكم فى هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجرى ، وكلما قطعنا شوطاً فى الزمن اشتد سوءه ، حتى لنرى أحد أمرائها من أحفاد نُعَيْر المسمى الحسن بن الزبير يعتدى فى يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوى وينهب ما فى الحجرة النبوية الطاهرة من تحف ونفائس . وتتدهور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز فى حكم الدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت الحسينى عليها إمارة اسمية . ويؤكد ابن خلدون والقلقشندى أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة ، بينما كان أمراء مكة زيدية . ومرَّ بنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية ، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلى فى العهد الفاطمى حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحوَّلوا فيما بعد إمامية اثنى عشرية .

نجد وقبائلها وشيوخها [1] وإماراتها .

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم فى عصر الفتوح ، ولا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن هذه القبائل منذ أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كوَّنته هناك من إمارات ، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تتغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب ، وأيضاً ما يتصل بقبيلة طيئ التى كانت تحتل منطقة جبلى أجأ وسلمى وتنتشر فى بوادى الشام والعراق ، وقد جعلتها مواطنها فى هذه الأنحاء تتصل بدول العراق ومصر والشام .

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية فى هذا العصر يتصل ببنى هلال بن عامر وأبناء عمومتهم عُقَيْل وربيعة ، وكذلك ببنى سُلَيْم . وكان العامريون ينزلون فى جبل غَزْوان ، بينما كان بنو سليم ينزلون شرق المدينة ، وكانوا جميعاً يطوفون بأطراف الجزيرة فى العراق والشام ويغيرون على القرى هناك ، وكان بنو سليم يغيرون أحياناً على الحجاج فى مواسم الحج ، وكانت البعوث تجهَّز لهم من بغداد للإيقاع بهم . ولما ظهر القرامطة بالبحرين تحيَّز كثيرون من العامريين وبنى سليم إليهم ، وصاروا جنداً لهم فى البحرين وعُمان ، وحين أغار الأعصم القرمطى سنة ٣٦٠ على الشام ، وهزمته جيوش

---

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والجزء الرابع من صبح الأعشى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة والخريدة للعماد الأصبهانى وابن خلكان فى أمراء بنى عقيل وبنى أسد وروضة الأفكار لحسين بن غنام وعنوان المجد فى تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث – الجزء الأول (١٥٠٠ – ١٩١٨ م) للدكتور عبد الكريم غرايبة .

الفاطميين نقل الخليفة الفاطمى العزيز جنده من بنى هلال وبنى سليم إلى صعيد مصر ، وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب ، فخربوا مدن تونس وملكت سليم شرق البلاد وبنو هلال غربيها . وكان قد انضم إلى الأعصم فى حربه للفاطميين شيخ طيئ : حسان بن الجراح ، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه، وتظل لبنى الجراح رياستهم لطيئ وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمى ، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دَغْفل المفرج ويستولى على الرملة بفلسطين ، ويتولى زعامة طئ بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطميين فى حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلى أفاميه سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكراً بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قِرْواش صاحب الموصل .

وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بنى خفاجة من عُقَيل بن عامر وقد توغلوا نحو اليمامة ، وزحزحتهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق ، فملكوا ضواحيه ، وأصبحوا سادة الكوفة فى ظل أميرهم عِلْيان بن ثِمَال الخفاجى الذى أسس هناك إمارة بنى ثمال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبناؤه ، ونظل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بنى المنتفق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجرى وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة ، وكانوا لا يزالون ينزلون فى هذه الأنحاء فى بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متنقلين بخيامهم من مكان إلى مكان .

ونزحت قبائل وعشائر كثيرة لبنى عُقَيل بن عامر إلى الموصل فى الشمال الشرقى من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أولُ أمرائها ومؤسسها أبا الزَّهَّار محمد ابن المسيب العقيلى الذى تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخَلَفه أخوه المقلَّد العقيلى الذى اتسعت مملكته ، وقد حارب بنى خفاجة واضطرهم إلى الدخول فى طاعته ، وكان شاعراً ومحبًّا لأهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشريف الرضى بقصيدتين وجماعة من الشعراء . وخلفه ابنه قِرْواش ، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسِقْى الفرات ، وأدَّب بنى خفاجة مراراً ، وكان كريماً وهاباً نهاباً ، كما كان شاعراً مجيداً . ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وحبسه فى إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولى مكانه . وتوفى بعد سنتين ، فخلفه ابن أخ له يسمى قريش بن بدران ، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفى سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلا ، كما كان ممدَّحاً ، مدحه ابن حَيُّوس شاعر

الشام وغيره ، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجرى حتى ينحسر ملك بنى عقيل ابن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادى ، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره فى الآجام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح .

وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها فى أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد فى أنحاء الحِلَّة ، وكان أول من تصدى منهم لذلك على بن مَزْيد المتوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة دُبَيْس ، ويحالف بنى خفاجة على حرب قِرْواش العقيلى ويحرقان الأنبار انتقاماً منه . وينعقد صلح بين قرواش ودبيس ويهزمان جموعاً للغُزّ ويمدح ابن الشبل البغدادى قرواشاً بهذا النصر المبين . وكان دبيس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة ، مثله فى ذلك مثل قرواش . ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكتب بين يديه على بن أفلح الكاتب المشهور ، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة ، ويفتكُّ أسرى بنى عُقَيْل حين استولى العسكر السلطانى على حِلِلهم ويجهزهم ويردهم إلى ديارهم ، وقد تغنى الشعراء بهذه المأثرة طويلا وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ مخلفاً ذكرى طيبة ، غير شعر جيد كان ينظمه . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة ، وكان ذا بأس وسطوة ، وكان يقال له ملك العرب . وكان يسكن هو وآباؤه قبله فى البيوت العربية (الخيام) فبنى الحِلَّة سنة ٤٩٥ وسكنها ، وله قدَّم ابن الهُبَارية كتاب الصادح والباغم ، وتوفى سنة ٥٠١ وخلفه ابنه دُبَيْس وكان أديباً وجواداً كريماً ، وهو الذى عناه الحريرى بقوله فى إحدى مقاماته — وهى المقامة العُمانية — والناس محيطون بأبى زيد يثنون عليه ويقبلون يديه حتى : « خُيِّل إلىّ أنه القَرنىّ أُوَيس (واعظ أموى) أو الأسدى دُبَيْس » وقد اشترك فى مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد ، مما دفع السلطان مسعوداً السلجوقى إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩ . وولى بعده ابنه صدقة ، وسرعان ما ضعفت الأسرة ، وزايلت الحلة ، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية . ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية .

ونولّى وجوهنا فى العصرين الأيوبى والمملوكى نحو بوادى الشام ومنازل طيئ فى جبل شَمَّر أو جبلى أجَأ وسَلْمى ، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائيين كانا يقومان على أحياء العرب فى بوادى الشام والعراق ، وهما آل فضل وآل مِرَا ، وكانت منازل الأخيرين بوادى حوران ، وكانوا يسقطون منها جنوباً فى الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم ، وأهمُّ شُعبهم آل أحمد بن حِجِّى المتوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسينى يؤدى له الخفر وكذلك أطراف الحجاز ، وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون . ويقول صاحب صبح الأعشى : آل مِرَا أبطال

مناجيد ، ورجال صناديد ، وكثيراً ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل . ويروى القلقشندى عن الشهاب محمود الحلبى أنه حين غزا التتار الشام فى أيامه وكان بحمص أقبل من أهل مِرَا زُهاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسوَّمة والجياد المطهَّمة مقلدين بالسيوف وفى أيديهم الرماح ومعهم الطعائن والحمول ومعهم مغنية تعرف بالحضرمية طائرة السمعة سافرة فى الهودج تغنى أبياتاً حماسية .

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبيرالثانى من طيئ تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يساراً إلى البصرة وتستدير نحو منازل بنى تميم واليمامة ، وتشمل منازل غطفان مما يلى وادى القُرى ، كما تشمل منازل بنى أسد ، وكان ينضم إليهم لفيف من قبائل العرب : من مَذْحج وعامر وزَبيد وغيرهم . وكان شيوخ هذا الفخذ يولَّون على إمرة العرب بتقليد من السلطان ، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب ، إذ أقام على العرب أميراً منهم هو حديثة بن عقبة بن فضل ، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثة المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذى حضر مع المظفر قطز قتال التتار فى عين جالوت . وولِّى بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى . وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولَّى تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوةً بالنواب إن كان حاضراً ويجهَّز إليه إن كان غائباً ، وتصدَّر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة ، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مرا . وكانوا يوفَّرون لهم الإقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميراً على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهد المنصور قلاوون ابنه المهنا ، وفى الجزء الثانى عشر من صبح الأعشى مرسوم شريف بإمرته . ويخلفه فى سنة ٧١٢ فضل أخوه ، ويقال إن ابنه حجَّ فى اثنى عشر ألف راحلة ، وظلت الإمارة فى طيئ طويلا .

ونسمع فى داخل نجد عن إمارات كثيرة بأنحائها وقراها المختلفة فى اليمامة والعارض والوشم والقَصيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم ، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدِّرْعية التى تأسست فى منتصف القرن التاسع الهجرى ولا تمضى طويلا فى القرن الثانى عشرحتى نرى أميرها سعوداً يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه ، وتوفى سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م . وخلفه ابنه محمد ، وهو الذى تآزر مع محمد بن عبدالوهاب فى سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع ، وأخذا يتعاونان فى ذلك حتى دان له أكثر نجد . وتوفى سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م ، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضى فى نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادى السرحان ، وفتح بلدة الرياض . ولم يلبث أن قُتل بيد شيعى سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م وولى بعده ابنه سعود ، وقد استطاع أن يمد لواء

سلطانه من أطراف عُمان ونجران واليمن إلى بادية الشام فى أقصى الشمال من الجزيرة ، ومن الخليج العربى ونهر الفرات إلى بحر القُلْزم (البحر الأحمر) واستولى على الطائف ومكة . مما جعل الدولة العثمانية تستعين بمحمد عِلى واليها فى مصر ، كى يستخلص الحجاز منه ، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنه ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وسرعان ما توفى سعود فى الدرعية سنه ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وتولى بعده ابنه عبد الله ، وفى عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى فى يد إبراهيم باشا ، واستسلم عبد الله بن سعود ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نحبه سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م . ويتولى حكم الدرعية تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود . وبذلك ينتقل الحكم فى آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد ، ويبقى فيه إلى اليوم . وينشط تركى ، ويفتح الحسا والقطيف . ويعقد صلحا مع صالح بن على أمير حائل وزعيم منطقة شمر أو جبلى أجأ وسلمى ويغتال سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ويخلفه ابنه فيصل وكان ضعيفا ، فيأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وهو عام وفاته . وتعقبه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع فى خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يبسط سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين . لولا أن هبَّ لا فى هذا العصر بل فى العصر الحديث التالى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فُقد من إمارة آبائه .

اليمن ودولها[1]

توزعت اليمن فى هذا العصر دول كثيرة ، لعل أقدمها دولة بنى زياد فى زَبيد (٢٠٣ - ٤١٢ هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢ - ٥٥٤ هـ) ثم دولة بنى مهدى

(١) راجع فى اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصبح الأعشى فى جزءيه الرابع والخامس وابن خلكان فى التراجم المشهورة وتاريخ المستبصر لابن المجاور وتاريخ اليمن لعمارة (نشرة كاى) وبلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى مكة اليمن من ملك وإمام للقاضى العرشى والعقود اللؤلؤية لبخرجى (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن لعبد الواسع اليمانى (طبع القاهرة) وأنباء الزمن فى أخبار اليمن ليحيى بن الحسين وتاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن) والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافى (طبع القاهرة) والخلاف السليمانى للعقيلى (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث . الجزء الأول للدكتور عبد الكريم غرايبة ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور .

الخوارج (٥٥٤–٥٦٩ هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلى اليمن دولة آل رسول . ولصنعاء دولها هى الأخرى وأولها بنويعفر (٢٥٢–٣٩٣ هـ) وتَلتها دولة الصُّلَيْحيين الإسماعيليين (٤٣٩ – ٥٣٢ هـ) . ثم دولة الهمْدانيين (٤٩٢–٥٦٩ هـ) . وفى صعدة مستقر الزيدية دولة الرَّسيين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم الهواشم بمكة ونزلوا المخلاف السليمانى سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدى دولتهم منه . ثم عادوا إليه ، وقد ظل أئمة الرسيين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث . وفى عدن دولة بنى زُرَيْع الإسماعيلية (٤٦٧–٥٦٩ هـ) . ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصَعْدة عاصمة الرسيين . ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ، ثم ننتقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبنى طاهر والعصر العثمانى ومقاومة الرسيين فى صَعْدة للعثمانيين ، حتى استخلصوا منهم البلاد .

ونبدأ بدول زَبيد قبل الفتح الأيوبى . وأولها دولة بنى زياد ، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد ، ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على تِهامة وحَضْرَموت . ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجيش إسحق بن إبراهيم (٢٩١–٣١٧ هـ) . وفى عهده استولى القرامطة على زبيد سنة ٣٠٣ ثم تركوها . ودانت له اليمن : عدن وصنعاء وحكامها بنويَعْفر وصَعْدة وحكامها الرسِّيون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير ، سوى ما كان يجبيه من مراكب السند ومن العنبر المجلوب إلى عدن وباب المندب ومن الغَوْص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك . ومازال الحكم فى أسرته حتى تشاجر حَجَبَتهم على الحكم ، وتغلب عليهم نجاح الحبشى سنة ٤١٢ وأسس دولة بنى نجاح ، ومازال يحكمها حتى دسَّ له بعض أنصار على بن الصُّلَيْحى صاحب صنعاء السم ففتك به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحى على زبيد ، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دَهْلك ، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يغتالوا الصليحى فى طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جياش بن نجاح أن يستعيد زبيد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتبا بليغا ، وصنَّف المفيد فى أخبار زبيد ، وبعث هو وأسرته ووزراؤهم نهضة فى زبيد أدبية وعلمية ، ومن وزرائهم مَنّ الله الفاتكى وسرور وكانا ممدَّحين عالِيى الهمة . وتوارث أبناء جياش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدى وزال ملك بنى نجاح . وقد نشأ مؤسس دولة بنى مهدى – وهو على بن مهدى الحميرى – فى سواحل زبيد على النسك والدين . ولما شبَّ أخذ فى الوعظ فأحبه الناس والتفوا حوله ، وفكر فى إقامة دولة لنفسه فاستولى على زبيد وتسمى الإمام المهدى أمير

المؤمنين وقامع الكفرة والملحدين . وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلى ، وكان يكفّر بالمعاصى ، ويقتل من يقترف كبيرة ، وكذلك من خالف اعتقاده من أهل السنة ، وكان يستبيح نساءهم ويسترق أبناءهم وذراريهم ، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة ، ولم يلبث أن توفى بعد استيلائه على زبيد بنحو ثلاثة أشهر ، وحين استولى عليها قتل قاضيها محمد بن أبى عَقامة وابنه وكانا فاضلين . وخلفه ابنه مهدى ثم أخوه عبد النبى . وقد أغار فى سنة ٥٦١ على المخلاف السليمانى وقتل فى الغارة أميره وهاس ابن غانم ، وأنشد فى ذلك قصيدة رواها صاحب كتاب المخلاف السليمانى ، ومازال على زبيد حتى تسلمها منه توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ للهجرة .

وأول دول صنعاء دولة بنى يَعْفر التى أنشأها يَعْفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبناؤه ، وحدث فى سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة على ابن الفضل على صنعاء . ولم يلبث أن ادعى النبوة ، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات ، وحطَّ عن الناس – بزعمه – أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والصيام والحج . وفى سنة ٣٠٣ هلك على يد حسنى حجَّام ، جعل له السم فى المبضع . وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واستردّ صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولى بعده ابنه أسعد ، وبوفاته سنة ٣٩٣ تنتهى دولة آل يعفر .

وتخلف دولة اليعفريين بصنعاء دولة الصُّلَيحيين ، أسسها على بن محمد الصُّلَيْحى ، وقد نشأ فقيها صالحاً بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو فى مقره بِجُبْلَة منذ سنة ٤٣٩ وربما قبل ذلك بسنوات غير قليلة . وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يستأذنه فى الدعوة للمذهب الإسماعيلى ، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زبيد ، كما أسلفنا ، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرته ، وعظم ملكه . واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسنية الزيدية ثم تركها . وكانت زوجه أسماء من فضليات النساء ، وكانت ممدَّحة كريمة ، مدحها كثير من الشعراء . وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جُبْلة عاصمته ، وأصيب بمرض الفالج ، ففوَّض شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحى إلى أن توفى سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور ، وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحى بأمر المستنصر الفاطمى ، وتوفى سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان ، واستولى بنوحاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشيم الهمدانى حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبناؤه

عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبى . وظل نجم الملكة الحرة يزداد أفولا والدولة الصليحية تتفكك أوصالها ، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة . وقد خرجت أكثر الحصون فى الجنوب إلى بنى زُرَيْع أصحاب عدن . وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليحية الإسماعيلية .

وحرى بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرَّسِّيين الزيدية بصَعْدة فى اليمن ، ومؤسسها هناك الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرَّسّ بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ فى زمن جده القاسم الإمام الزيدى المعروف بمؤلفاته فى المذهب الزيدى وفى الفقه . وقد خرج من موطنه إلى اليمن فى سنة ٢٨٤ واستولى على صَعْدة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن ، وتوفى سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثم أخوه أحمد . فالإمام الهادى إلى الحق وهو المؤسس الحقيقى للدولة . وماتزال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حتى يفد عليها أبو الفتح الديلمى سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته ، ويخلفه عليها بنو سليمان أصحاب المخلاف السليمانى الزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك . وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعدة ، وتدخل صنعاء فى حوزتهم مرارا . ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢-٥٦٦ هـ) . وكان شاعرا محسنا ، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميرى . ومن أئمتهم فى العهد الأيوبى الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤ . ومن مشهوريهم فى عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهّاس ، والموطئ الرسى الذى بويع بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما عالما فقيها ، وظل الحكم بعده فى أبنائه وتتوالى أئمتهم فى عهد الدولتين : الرسولية والطاهرية ، وسنعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر .

أما عدن فكانت قديما داراً لبنى معن بن زائدة منذ ولايته عليها فى عهد المأمون ، وقد امتنعوا على بنى زياد أصحاب زَبيد ، ولما استولى عليها الصُّلَيْحى داعية الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها ، ثم عزلهم عنها ابنه المكرم ، وجعلها للهمدانيين ، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بنى زُرَيْع أن استخلصها لنفسه ، وكانوا إسماعيلية . ومن أهم أمرائهم محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠ هـ) . وكان يتلقب بالداعى المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين ، وقد اشترى حصن جُبْلة من الصليحيين ، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبى بكر العيْدى (٥٥٠-٥٦٥ هـ) . وكان يدبر دولته ودولة ابنيه ياسر بن بلال ممدوح ابن قلاقس الشاعر المصرى وغيره من الشعراء . وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بنى زريع . ويقال إن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت فى عهد الأيوبيين إلى

سبعمائة ألف . وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ أقام لنفسه فيها نوابا فى مدنها وحصونها ، وعادت إلى أحسن أحوالها من الخصب والعمارة والأمن ، غير أن الحكم فيها لم ينتظم تماماً لصلاح الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كما مر بنا سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحَىَّ على خير العمل » وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرهما من الشيعة ، وتوفى سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان . وَظلم الناس ، فولى السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه الملك المسعود سنة ٦١٢ وأناب عنه فى بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن على بن رسول أحد قواده ، فمكَّن لنفسه فيها . ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة .

وتظل اليمن فى قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعزّ بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسى سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت . وكانت الحرب كثيراً ما تنشب بين الرسوليين وبين الأئمة فى صَعْدة . وقتله مماليكه سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتَعزّ ، وبنى جوامع ومدارس كثيرة فى مدن اليمن . وفتح ظَفار فى أقصى بلاد حضرموت ونشبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ، وتوفى سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة فى العلوم والفنون ، فالملك المجاهد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأشرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخزرجى كتابه العقود اللؤلؤية ، ويصف حفل ختان أبنائه وصفاً رائعاً . وتضعف الدولة بعده وتأخذ فى التدهور ، وينتهز بنو طاهر ولاتهم وأمناؤهم فى عدن وغيرها الفرصة ، ويؤسسون دولتهم .

وقد اتخذ بنو طاهر «زَبيد» حاضرة لهم ، وأول أمرائهم عامر بن طاهر الذى استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفى سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك المجاهد إلى وفاته سنة ٨٨٣ وولى بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولى البرتغاليون على جزيرة كُمران فى البحر الأحمر ، وحينئذ يرسل قانصوه الغورى صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطردون من الجزيرة وتنزل الحملة اليمن وتستولى على زبيد وتعز وتقضى على دولة بنى طاهر

وتدخل اليمن فى حوزة الدولة العثمانية ، وتنشب مناوشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة

الزيديين وبين العثمانيين ، وتترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى فى أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم (١٠٥٤ – ١٠٨٧ هـ) وقد ظلت الإمامة فى عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن فى ثورتها الأخيرة ، وكان المتوكل مظفراً استولى على عدن وحضرموت وظَفار وجمع بلاد اليمن وتوالى الأئمة من بعده . وحدث فى عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدى أن زاره القبطان الإنجليزى ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر ، ونزل له طائعا عن جزيرة ميّون المسماة ببريم فى مضيق باب المندب بالبحر الأحمر ! وهى تقسم البحر عندها قسمين . وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليز سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحَج ، وأصبحت مستعمرة إنجليزية . ورأى الأتراك طمع الدول الأوربية فى اليمن ، وأحس أئمتها بحاجتهم إليهم ، فعادوا إلى احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م بينما مضى الإنجليز يضمون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت . وأخذت المناوشات تعود ثانية بين الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولى مناهضتهم لا فى هذا العصر ولا فى أواخره بل فى العصر الحديث الإمام الزيدى يحيى بن محمد حميد الدين

حَضْرَمَوْت [1] وظَفار وتاريخها

تقع حضرموت فى جنوبى الجزيرة على بحر العرب ، وهى إقليم جبلى يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتتفرع منه أودية كثيرة وكانت تشتهر قديما باسم أرض اللُّبان . وأهم مدنها فى الداخل شَبْوة وشِبام وَتريم وسيّون وعلى الساحل الشِّحْر والمُكَلاّ ، وكانت تسكنها قديما قبيلة كِنْدة ، ومازال الولاة يتتابعون عليها من قبل الخلفاء فى صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية . ولما تولى محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه ، وظل لبنيه نفوذ فيها ، حتى ولى بنو يعفر صنعاء وأقاموا دولتهم بها ، فإنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تتبعهم ، وحاول الحضارمة الثورة عليهم . ولكن ثورتهم أخفقت ، وقدمها فى أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى ، منتسبا نسبا شريفا إلى الحسين بن على ، ونزل بتريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم ، وهى زعامة أتاحت للشيعة

---

(١) انظر فى حضرموت وظفار وتاريخها ابن الأثير وابن خلدون فى مواضع متفرقة ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ حضرموت السياسى لصلاح البكرى وتاريخ الدولة الكثيرية لمحمد بن هاشم وصفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

أن يتنفسوا هناك وكانت النحلة الغالبة فى حضرموت نحلة الخوارج ولذلك كان أهلها دائما يثورون ثورات متعاقبة . ونزلها القرامطة فى أوائل القرن الرابع الهجرى مدة ثم تركوها ، ويلمع بها فى القرن الخامس أبو إسحق الحضرمى الخارجى ، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوارج فى عمان على أن يستقل بها بعد حروب دامية ، واستطاع أن يردَّ الصليحى عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولى شئونها واستقل بها . والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبى قحطان الكندى المولود بتريم سنة ٥٥٣ وقد حكمها وسنُّه دون الثلاثين ، واهتم بالعلم والعلماء . ولما فتح صلاح الدين اليمن وولى على عدن عثمان الزنجيلى فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله ، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره ، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولى من آل النعمان على شبام ، وتمضى البلاد فى أمن حتى يغزوها عمر بن مهدى اليمنى بجيش أيوبى سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعا : على الشِّحْر وشِبام وَتريم ، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهى بذلك عهد الأيوبيين فى حضرموت ، وتخلفهم دولة الرسوليين ، فيعملون على أن تظل حضرموت تابعة لهم ، وكان يليها بعض أبنائها نوابا عنهم . وحين دانت ظَفار شرق حضرموت لسالم بن إدريس الحبوظى استولى بجموعه على حضرموت سنة ٦٧٣ غير أن الرسوليين قضوا عليه . ولا يزال شيوخ القبائل فى البلاد وفى مقدمتهم بنوراشد وبنو نهد يتناحرون على حكم المدن ، ويشتهر آل باكثير باستيلائهم على الشِّحْر سنة ٧٨٦ وتكون الغلبة لهم فى كثير من البلاد . وكان ينافسهم آل بادجانة وآل باوزير والكِنْديين ولكن آل باكثير ظفروا بهم وبغيرهم من العشائر أو قل ظهروا عليهم . وخلف الرسوليين بنو طاهر على اليمن ، وكانت حضرموت تستشعر الولاء لهم ، وقد ردوا عن الشحر محمد بن سعيد بن فارس المهدى سنة ٨٦٧ وعهدوا بها إلى آل باكثير ، واشتهر من بينهم بوطويرق المولود سنة ٩٠٢ وقد استولى على شبام سنة ٩٢٦ واحتل تريم سنة ٩٢٧ واتخذها مركزا لدولته وكان يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستولى العثمانيون على اليمن سنة ٩٤٥ ويعترف لهم بوطويرق بالطاعة سنة ٩٧٠ غير أن ابنه عبد الله رفض حكم الترك واستقل ببلاده ، وخلفه أخوه عمر وكان نصيره ومعاونه وكاتبه الشاعر الكبير عبد الصمد بن عبد الله باكثير . ويتولى ابنه عبد الله شئون حضرموت حتى سنة ١٠٢٤ ويخلفه أخوه بدر ويظهر ولاءه للزيدية وأئمتهم بصنعاء وينشب خلاف بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبد الله بسبب ذلك ، ويقبض عليه ويعتقل ، فيغضب الإمام الزيدى المتوكل على الله إسماعيل ، ويرسل فى سنة ١٠٦٩ جيشاً إلى حضرموت يستولى عليها ، ويسلمها إلى بدر بن عمر ويظل يليها حتى وفاته سنة ١٠٧٣ ويتولاها ابنه محمد .

ويضعف شأن آل باكثير . ويصبح لبافع وعشائرها الكلمة العليا فى البلاد ، ويتحول الحكم والسلطان إليها حتى سنة ١٢٦٣ إذ يعيد غالب بن محسن الكثيرى دولة آله ويستولى على تريم . غير أن الشحر وأكثر البلاد تظل فى قبضة اليافعيين ، ويشتهر من بينهم عمر بن عوض القعيطى اليافعى ثم ابنه عوض الذى أخطأ خطأ فاحشاً فى حق بلده وأمته بتوقيع معاهدة مع الإنجليز سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨م أصبحت بها حضرموت إحدى حامياتهم على بحر العرب ، وصمة فى جبينه ما بعدها وصمة .

وظفار هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكُنْدُر (اللُّبان) الذى يستعمله الهنود فى معابدهم . وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوى ، وخلفه سالم بن إدريس الحبوظى الذى مر بنا غزوه لحضرموت وقضاء الرسوليين عليه . وكانوا يولون عليها نائبا لهم . وفى القرن السادس عشر الميلادى حكم البلاد سيف الإسلام الغسانى وهو من صنعاء . وكانت قلعة بَلِد مقر حكمه . وفى القرن السابع عشر الميلادى استولى عليها بنوكثير الحضرميون . ولا يعرف عنها شىء فى القرن الثامن عشر ، وحكمها علوى فى القرن التاسع عشر ، وقتله بنو قرا ، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن فى هذا القرن فرض سيادتهم عليها . وفزعوا إلى سعيد بن تركى بن سعيد جد أمراء عمان . وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم .

عُمان وأمراؤها[1]

تمتد عُمان على الشاطىء الجنوبى الشرقى لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندى وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وقد ثار بها الخوارج الإباضية منذ زمن الحجاج فى عصر بنى أمية ، وكانوا يتخذون مدينة نَزْوى فى الداخل جنوبى الجبل الأخضر مركزا لهم ، وكانوا يستولون عليها فى أكثر سنوات القرن الثالث الهجرى ، وتغلَّب على عمان أبو طاهر القرمطى عند اقتلاعه الحجر الأسود من الكعبة سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله المهدى ، وترددت عليها ولاة القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الإباضية سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين عليها حقبة من الزمن . يدل على ذلك أننا نجد

---

(١) انظر فى عمان وتاريخها وأمرائها ودولها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصبح الأعشى ومعجم البلدان لياقوت فى مواضع متفرقة وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمى وعمان تاريخ يتكلم محمد ابن عبد الله السالمى وعمان قديماً وحديثاً لمحمد على الزرقا والإمارات السبع لأحمد الوريني ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرايبة .

نفرا من أعيانها هم بنوم مكرم وكانوا شيعة إمامية يسيرون إلى بغداد ويتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربى . ويملكونها فعلا فى عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختار منهم أبا محمد بن مكرم ، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جبالهم فى نزوى وحولها ، ويخطب لبنى العباس . وظل الإباضية فى عهد بنى مكرم يولون عليهم أئمة منهم ، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومر ذكره فى حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمى على غزوها والاستيلاء عليها . وتوارث بنو مكرم ملك عمان ، ومن أهم أمرائهم ناصر الدولة على بن الحسين بن مكرم ، وكان جوادا ممدحا ، ومدحه مهيار الديلمى وغيره وتوفى سنة ٤٢٨ بعد استئثاره بالإمارة مدة طويلة .

وفى سنة ٤٤٢ ضعف ملك بنى مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد ، فزحف إليها الخوارج من نزوى وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد ، وله حروب مع قبيلتى نهد وعُقَيل سحقهما فيها ، وامتدحه بذلك أبو إسحق الحضرمى منوها ببسالته وبطولة جنوده . ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذى تملكها بعد أبيه وتظل فى أيدى خلفائه .

وفى القرن السادس الهجرى تملك عمان من أيدى الإباضية بنو نبهان سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣ م وهم عشيرة من العتيك من الأزْد استولوا عليها بعد شيوع الفوضى فيها ، وكانوا سبين ، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع ، وقد غزا الفرس عمان فى عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها فى عهد عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا فى الغزوتين مدحورين . كما يصور ذلك شاعر النبهانيين أحمد بن سعيد الستالى الخروصى ، ويشن المؤرخ نور الدين السالمى حملة على هذه الدولة النبهانية قائلا كانت دولة بنى نبهان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا للملوكهم ذكرا اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالى . وقد زار ابن بطوطة عمان فى عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة ، وأشاد بأمرها النبهانى وحسن ضيافته ثم ذكر نَزْوى عاصمة الخوارج ، وقال إنهم أهل نجدة وشجاعة . ومن أئمة الإباضية المهمين فى القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذى بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النبهانى أمير عمان ، وهزمه واضطره أن يفر إلى هُرْمز وتوفى عمر ، فعاد سليمان ونازل الإمام التالى للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام ، وباء بهزيمة منكرة ، فرحل ثانية إلى هرمز ، وتوفى أبو الحسن فاسترد سلطانه ، ونازل خليفته الإمام الإباضى

محمد بن إسماعيل الخروصى سنة ٩٠٦ وهُزم هزيمة لم تقم له بعدها قائمة . وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر .

وتصبح عمان تابعة للإباضية ، ويستردها سلطان بن محسن النبهانى سنة ٩٦٤ ويتوالى عليها حكام نبهانيون ، حتى يستولى عليها منهم الإمام الخارجى ناصر بن مرشد اليعربى (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها ، فأخذ يناوشهم ، وظلت مدينتا صحار ومسقط فى أيديهم وقيل بل سقطت فى يده صحار ، وخلفه سلطان بن سيف اليعربى (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) وهو أهم اليعربيين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهّر البلاد منهم . وبنى لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطىء إفريقيا والهند ، وكانت تتبعه مُمْباسة فى كينيا على ساحل إفريقيا الشرقى وجزيرة زَنْجبار [1] وجزيرة سُقُطرة فى بحر العرب ، غير أن أسرته ضعفت بعده .

وتخلف أسره اليَعْربيين فى حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذى جمع زمام الحكم فى عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ/ ١٧٤١م ورد الفرس على أعقابهم سنة ١١٦٣ هـ/١٧٤٩ م حين حاولوا غزو بلاده . ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذى ولى عمان سنة ١٢٢١ هـ/١٨٠٦ م وظل فى الحكم خمسين عاما . وقبيل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة فى مدخل الخليج العربى بزعامة القواسم ، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر فتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم . وأخذ الأسطول الإنجليزى يظهر فى هذه الأنحاء ، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة . وسرعان ماتزعم «دُبَىّ» آل بوفلاسا سنة ١٢٤٩ هـ/١٨٣٣ م كما تزعم «أبوظبى» آلُ فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتخلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان ، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا .

البحرين ودولها [2]

يقول ياقوت : « البحرين » اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة

---

(١) زنجبار : جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا سكانها عرب مهاجرون من منطقة الخليج العربى وكانت تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتى .

(٢) انظر فى البحرين ودولها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت فى مواضع متفرقة وصبح الأعشى والضوء اللامع فى =

العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدَّهْناء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا . وهى بذلك كانت تشمل إقليم قَطر والإقليم الشرقى للمملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقطيف وهجر ، ومجموعة من الجزر (البحرين الحالية) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولا ونحو عشرة أميال عرضا .

وقد سيطر القرامطة على هذا الإقليم مدة متطاولة من الزمن ، إذ غلب عليها بنو الجنَّابى بقيادة أبى سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القَطِيف . وفى سنة ٢٨٧ غلب على هجر ، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية.وقد تحدثنا فى العصر العباسى الثانى عن هذه العقيدة وعن أبى سعيد وابنه أبى طاهر وإغارته على مكة واستباحته دماء الحجاج ، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده ، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف . ولما رجع إلى البحرين رماه الله فى جسده ، حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . وفى سنة ٣٣٩ رُدَّ الحجر الكريم إلى موضعه . وفى عقيدتهم – كما صورناها فى كتاب العصر العباسى الثانى -- ضلال كثير . ويبدو أن علاقتهم بالفاطميين - وكانوا لا يزالون فى المهدية بجوار تونس – أخذت فى الفتور . حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقتهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية . ومن أهم أمرائهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبى طاهر ، وكان فارسا وشاعرا مجيدا تولى بعد أبيه سنة ٣٥٩ واتفق فى السنة التالية مع الخليفة العباسى المطيع لله على محاربة الفاطميين ، فأمده بالمال والسلاح ، وزحف على الشام تحت الرايات السود شعار الدولة العباسية ، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلى الفاطمى أساس عقيدته القرمطية ، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة ، واتجه بجيشه نحو مصر ، والتقى بالفاطميين وعساكرهم المغاربة فى عين شمس ، وكاد ينتصر عليهم لولا خروج بعض قواده عليه وانضمامهم إلى الفاطميين ، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين . ومر بنا فى حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمى لجنده من بنى سليم وبنى هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب . وفى سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكين الرومى مولى البويهيين ضد جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦ .

= أعيان القرن التاسع للسخاوى وديوان ابن مقرب العيونى وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد للشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض) وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١ / ٢٤٩ وما بعدها .

وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر ، وأخذت دولتهم فى الاضمحلال . ولا تصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمى الأحيفر من بنى المنتفق بن عامر بن عُقَيل جمعا كبيرا ، وينازل به القرامطة ، ويستولى منهم على القطيف ، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

وعمَّت الفوضى فى البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفر بن أبى الحسن الثعلبى سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائع العباسى ، واستقرت الدولة له . واختلفت فى أيامه قبيلة بنوثعلب مع بنى عُقَيل ، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق ، وطالت أيام الأصفر ، واتسع به طموحه ؛ فحاول التغلب على الجزيرة والموصل ، ونازله بنوعقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله . وبقى الملك فى البحرين بعده متوارثا فى بنيه إلى أن ضعفوا وتلاشوا .

وتخلفهم دولة بنى العيونى بزعامة مؤسسها عبد الله بن على . إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملكشاه السلجوقى سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة ، وكان لا يزال لها فى البحرين أتباع كثيرون . وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة ، فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ ووليها بعده ابنه محمد المكنى بأبى سنان حتى مقتله سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة . ووليها بعده ابنه أبوفراس غَرير ، وولى الأحساء فى أيامه عمه عبد الله بن على وولى ابنه أبو الحسن القَطيف . والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذى يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن ولاة البحرين العامِّين من العيونيين وولاة مدنها المختلفين . ويختلط بعضهم ببعض فى الديوان ، ومن أهمهم محمد بن أبى الحسين الذى تولى زمام الأمور فى البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخليفة الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بحقارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتى ثوب أكثرها من الإبريسم . وسمع فى سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تتجمع فى طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج ، فنكل بهم تنكيلا شديدا . وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة ، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن يعم الجزيرة . ويغتال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر ، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبى الحسين ويفتك به ثأراً لأبيه . وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة ، وتأخذ فى الضعف تدريجا ، ويستولى أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال (البحرين الحالية) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذانا بانتهاء دولة العيونيين .

ويغلب على البحرين بعد هذه الدولة دولة بنى عصفور من بنى عامر بن عوف العقيليين ، وتتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المماليك بعد هزيمتهم للتتار ، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فيكرم وفادته ، ويظلون يفدون على المماليك . وعلى رأس سنة سبعمائة للهجرة ينتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مغامس من بنى جبر ، وينتزعها منه بنو جروان من بنى عامر بن عوف العقيليين ويظلون يحكمونها حتى سنة ٨٢١ وفى عهدهم استولى المغول على جزيرة أُوال وظلت فى أيديهم مدة .

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين ، إذ خلَّصها من بنى جروان سيف بن زامل ، واتسع نفوذه فى نجد ، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أجود . ودبَّ الشقاق بين أبناء الأسرة ، فأخذها منهم راشد بن مغامس . وفى هذه الأثناء وفى غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون فى سنة ٩٢٢ على جزيرة أُوال (البحرين الحالية) والقَطيف وقطر ، وظلوا بتلك الديار حتى طردتهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣ .

وقد انفصلت قَطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجرى بزعامة آل ثانى ، وكانوا من يَبْرين ، فزاحموا قبيلة عبد القيس وتغلبوا عليها . أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرقى من المملكة العربية السعودية ، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوى على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧ هـ/١٧٨٢ م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزبارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم ، ووقَّع أحدها وهو الشيخ محمد بن خليفة معاهدة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م دخلت أوال (البحرين الحالية) بمقتضاها فى حمايتهم إلى أن استقلت أخيرا .

وظل يلى الأحساء والقطيف بنوخالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا ، وكان أول من وليهما منهم براك بن عُرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣ ، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف فى الروايات ، فسعدون بن محمد ، فسليمان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليهما بعده عرعر ، فابنه بطين ، فأخوه دجين ، فأخوهما سعدون ، فأخوهم دويحس وقد اشتبك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م فى حروب رجحت فيها كفة سعود . وتتطور الظروف وتنشب الحرب بين محمد على والسعوديين . ويعود بنوخالد إلى حكم الأحساء والقطيف ، غير أن الحاكم السعودى تركى بن عبد الله يضطرهم إلى تسليمها سنة

١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م وتعودان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصها منها فى العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف فى حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١ م وظل آل ثانى رؤساءها إلى أن نفض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم فى العصر الحديث ، واستقل ببلاده سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م وتظل أسرته متولية أمرها ومدبرة شئونها إلى اليوم .

٢

المجتمع [١]

يتقابل فى الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر ، والأولون عرب خُلَّص ، وقد دخل على الثانين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية ، والغلبة للعنصر العربى فهو قوام الحواضر . وربما كانت مكة بالذات من الحواضر التى كثر إليها نزوح الأجانب ، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله ، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامى ، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن . والعلاقة بين اليمن والحبشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين ينزلون بها ، ومرت بنا دولة آل نجاح فى زبيد ، وهم أحباش أو من أصل حبشي . ومن قديم كان الفرس ينزلون فى عمان ومدن الخليج . وكان كثير منهم يستوطنها ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . وبالمثل كان ينزل فى مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون ، وثورة الزنج بالبصرة فى القرن الثالث الهجرى مشهورة ، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا فى البحرين ، وكانوا كثيرين فى عُمان منذ أخذت تستولى فى القرن الثالث على سُقُطرة وبعض الجزر ، ونراها بعد ذلك تستولى على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية .

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والأغنام ، ويحفّها غير

---

(١) انظر فى مجتمع الجزيرة صبح الأعشى والنجوم الزاهرة فى مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعمارة ومروج الذهب للمسعودى : الفصل الخاص بالغناء والموسيقى فى الجزء الرابع والعقود اللؤلؤية للخزرجى وعنوان المجد فى تاريخ نجد لابن بشر وشعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم (نشر وطبع دار الكاتب العربى ببيروت) ورحلة ابن بطوطة وديوان ابن مقرب العيونى وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالمى وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

قليل من شظف العيش ، مما جعلهم أو بعبارة أدق جعل منهم عشائر تتعرض أحيانا للحجاج وتنهبهم ، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومانهم بصور كثيرة ، منها إرسال الحجاج فى قوافل مع حاميات ، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبنى عُقَيل أو لبنى أسد أن يحموا الحجاج ، وكانت القاهرة بدورها تعهد لآل الجراح فى العهد الفاطمى وآل فضل فى العهدين الأيوبى والمملوكى بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين .

وكان وراء مكة والمدينة فى الحجاز مدن وقرى كثيرة على شىء من التحضر ، نجد ذلك فى الطائف وفى جدة وفى يَنْبع وفى خَيْبر وفى وادى القرى ، حيث يقيم الناس فى دور شيدوها ويستقرون بها . وهذا الاستقرار أساس التحضر والعمران إذ يتجه الناس إلى عمل يُقيمون به أود حياتهم ، وكان الزراعةَ ، إذ نجدها فى كل هذه المدن . وطبيعى أن ينشأ فى المدن بجانب الزراع صناع ينهضون بالحرف المختلفة من عمارة ونجارة وحياكة ، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفيض عن حاجة مدنهم كالتمر مثلا ، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل . وتشتهر المدينة بكثرة زروعها ، وكانت مصر منذ العصر الفاطمى ترسل إليها وإلى مكة بكميات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك فى زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم فى زمن المماليك . وكان ينزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا ، فيشيعون فيهما الرخاء ، وأهَّل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسنيين فى مكة وإمارة أخرى للحسينيين فى المدينة .

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جنَّتان عن يمين وشمال) . ومعروف أنه تهبّ عليها الرياح الموسمية صيفا ، فتهطل بها أمطار غزيرة تغذى المروج والزروع والأشجار المتكاثفة ، ويزرع أهلها فى الأودية والسهول الحنطة والشعير والذُّرة والأرز والسمسم ، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخوخ والموز والليمون والبطِّيخ والسفرجل ، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقر والغنم والغزلان والقردة . ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين . وعدن ميناؤها ، ويقول القدماء إنه « لم يكن يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة ، والمقيم بها فى مكاسب وافرة وتجارة مربحة » . ومر بنا فى حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن ، هى زَبيد وصنعاء وصَعْدة وتَعِزّ ، وزبيد بتهامة اليمن فى سهل من الأرض وبها نخيل كثير ، وكانت مسوَّرة وبها قلعة ، وصنعاء فى منطقة الجبال بوسط اليمن ، وهى كثيرة الزروع والفواكه ، وصعدة فى منطقة جبلية وعرة شمالا ، أما تعزّ فحصن فى الجبال جنوبى اليمن مطل على تهامة وأراضى زبيد . وكان الرسوليون يقيمون بها

صيفا وبزبيد شتاء . واليمن بما قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم . وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة ، فلا غرابة أن كان أهلها فى هذا العصر يتمتعون بغير قليل من نعيم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار ، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله : «لأكابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن فى المأكل : يُطبَخ فى بيت الرجل منهم عدة ألوان .. وتطيَّب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفى بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش ، ولهم الدور الجليلة والمبانى الأنيقة ، إلا الرُّخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا» . ويدل من بعض الوجوه على ما كان فى اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بنى نجاح فى زبيد من أنه كان جوادا وأن نفقة مطبخه فى شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار .

ويبدو أن مجتمع اليمن كان يكتظ بكثير من الجوارى والإماء ، ويذكر عمارة اليمنى أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة ، وقد أشاع الإماء والجوارى فى قصور آل نجاح وغيرهم الغناء والطرب . والغناء قديم فى اليمن ، وأشار المسعودى إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء حميرى وحنفى ، ولعله يريد صنفا قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفا إسلاميا حنفيًّا أو حنيفيًّا . ولا نسمع بعد زمن المسعودى المتطابق مع أول هذا العصر عن مغنين أو مغنيات إلا ما ذكره عمارة فى زمن آل نجاح كما أسلفنا . ويبدو أن الأئمة الزيديين فى صَعْدة لم يفسحوا للغناء بل حاربوه طوال عصورهم ، أما الدول الأخرى فلعلها فسحت له ، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص فى بعض الاحتفالات ، ومن أهمها احتفال السلطان الرسولى الأشرف لسنة ٧٩٤ بختان أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة ، ولا بأس من أن نوجزه نقلا عن الخزرجى فى كتابه العقود اللؤلؤية إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ فى شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى . ويُعدِّد الخزرجى أسماء الآنية وأنواعها الكثيرة ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية ، وكان كل من يقدم هدية يجعل معها المغانى والرياحين والبوَّاقين يزفونها إلى باب الدار . وأقيمت للناس أربعة سماطات : سماط الطعام وسماط الحلوى وسماط المكسرات من اللوز والجوز والفستق والبندق وسماط رابع خاص بالعطور والمباخر ، ويشمل المسك والصندل والعود والبنفسج والعنبر والغالية وماء الورد . ويذكر الخزرجى أنه كان هناك من المغانى والراقصات ما أدهش الحاضرين ، وفى ذلك ما قد يدل

على أن الرسوليين لم يحاربوا الغناء فى دولتهم ، بل لعلهم شجعوا عليه. ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصنعانى العربى التى اشتهرت به صنعاء واليمن ربما بدأ فى أواسط العصر الرسولى أو فى أواخره . وفى رأيى أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية فى صنعاء وغيرها من مدن اليمن ، على الأقل منذ العهد الرسولى ، كما تدل على ذلك المغانى والراقصات فى الاحتفال السابق ، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزمن النجاحيين فى القرن السادس ، إذ نجد لابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمنيون بألحان غنائهم الصنعانى ، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم فى كتابه ، وأيضا فإننا نجد للشاعر اليمنى ابن هُتَيْمل شاعر القرن السابع الهجرى أشعارا ملحنة بهذا الغناء ، وكذلك للبرعى الشاعر اليمنى الصوفى المشهور فى القرن الثامن ، وتتوالى بعد ذلك الأغانى فى شعر القاضى موسى بن يحيى بهران والأمير الزيدى محمد بن إسحق . وتكثر الأغانى الشعبية الصنعانية ، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن .

وأشار الخزرجى فى الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء المُخْصَنات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء المقدَّمين. ولعل فى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على أن المرأة كانت تحظى فى اليمن بغير قليل من الحرية . ومرَّ بنا أن أسماء زوجة على ابن محمد الصُّلَيْحى كانت من فضليات النساء ، وكان الناس من شعراء وغير شعراء يقصدونها فتبرُّهم ، وكان ابنها المكرَّم يجلُّها إجلالا عظيما ، وكانت لا تستر وَجْهَها من الحاضرين ، وكان زوجها يكل إليها تدبير بعض شئون الدولة .

وحين مرض ابنها المكرَّم بالفالج فوَّض شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحى سنة ٤٦٧ فأحسنت القيام عليها وتدبيرها إلى أن توفى سنة ٤٨٤ وتولَّت بعده شئون الحكم ، كما مر بنا ، إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهى التى أمرت ببناء جامع جُبْلة والجناح الشرقى فى جامع صنعاء .

وكانت حَضْرَمَوْتُ من قديم متصلة باليمن ، بل كانت أحيانا تعد جزءاً منها ، وكان واليها فى القديم هو نفس والى اليمن . وقد يعيَّن عليها نائبا له ، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مرَّ بنا فى تاريخها السياسى . ومما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أشواطاً فى الخصب وكثرة الزروع . وهى بلاد جبلية يشقّها واد عظيم تَتفرع منه أودية مختلفة ، كما مر بنا . وأهم حاصلاتها اللُّبان (الكُنْدر) والحنطة والذرة والتمور ، وأهلها يهبطون فى التحضر

درجات كثيرة عن أهل اليمن ، لشَظف العيش بديارهم ، وهم ملاّحون ممتازون وجعلت الملاحة شطراً كبيراً منهم تجاراً ، وإليهم يرجع الفضل الأكبر فى نشر الإسلام بشرق إفريقيا وبالملايو وإندونسيا والهند . وهم بحق أبناء المحيط الهندى ، جابوه شرقا وغربا ، ونزلوا فى أقاليمه ، وعايشوا سكانها ، ولهم فى كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة . وبجانب حَضْرَمَوْت ظَفار ، وطبيعتها واحدة ، فهى الأخرى جبلية ، وأهلها يزرعون الموز والحنطة والذرة معتمدين فى ذلك على مياه الأمطار ، وهم يرعون الأنعام والأغنام ، ويشتهرون بتربية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعى أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندى أو بحر العرب . وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة ، التى رأيناها فى اليمن ، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمرائهم بعد صلاة العصر من كل يوم .

وعُمان إقليم كبير فى الجنوب الشرقى من الجزيرة ، وهى تطل على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وترسو بها السفن من الزنج والهند وإندونيسيا ، وينزلها إيرانيون كثيرون من قديم ، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة : عربية وإفريقية وإيرانية وهندية ، والغلبة للعنصر العربى . وبداخلها جبل عظيم الارتفاع تتشعب منه تسعة أودية جميعها لبنى رئام وبجنوبيه مدينة نَزْوى عاصمة الخوارج . ومن أهم موانى عُمان صُحار وكانت عاصمتها قديماً ، ومَسْقط وهى عاصمتها الآن . وتكثر على سواحلها مغاصات اللؤلؤ ، وهى كثيرة التمـــور والفواكه والزروع من الحنطة والذرة والشعير . وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥ : إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة ، ويصف نَزْوَى عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت فى سفح جبل ، تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة ويذكر أن من عادات أهلها الأكل فى صحون المساجد ، يأتى كل إنسان بما لديه من الأكل ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ويثنى على أهلها قائلا : «لهم نجدة وشجاعة» . ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبى محمد بن نبهان ، ويقول إنه يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه ، ولا يمنع أحدا من الدخول عليه سواء أكان مواطنا أم غريبا ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعيِّن له مدة الضيافة ويعطيه حسب قَدره . ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة ، هى نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ فى تصوره وملاحظته . وكل شئ يؤكد أن هذا الإقليم كان على شئ غير قليل من الثراء ، وهو ثراء مكّن سلطان بن سيف اليَعْربى فى القرن الحادى

عشر من بناء أسطول ضخم سحق به أسطول البرتغاليين واستولى على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندى وبعض شواطئ الهند .

والبَحْرين شديدة الخصب ، وهى كثيرة العيون والفواكه والنخيل وبها من التمور أنواع لا تُحْصَى ومن زروعها الحنطة والأُرُزّ ، وكان يرد إلى موانيها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالعروض التجارية . وأخبار كثيرة تصور ماكان فيها من رواج وانتعاش اقتصادى ، من ذلك ما يروى من أن تجاراً غرقت سفينتهم بين جزيرة أُوال (البحرين الحالية) والقَطيف ، وسقط فى الخليج كل ماكان معهم ، وعلم بذلك أمير البحرين العيونى الفضل بن عبد الله (٥٠٠ – ٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ماكان يحمله وقيمته نقدا ، وأعطى كلا منهم ما فقده كاملا . وكان بينهم جوهرى ، قال إنه كان يحمل عقودا من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف ، فأعطاها له . وهى مأثرة جليلة وتدل على حال الإمارة حينئذ ، وأنها كانت فى يسر . ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصا بأمير البحرين وحده ، بل كانت تشمل حكام مدنها ، ويروى أنه فى عهد أميرها غَرير الذى تولى إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدبة ، فأمر حاكمها على بن عبد الله العيونى بفتح خزائن الغلال والتمر وأن يأخذ منها الناس كل حسب حاجته ، وأمر بحطّ الزكاة والضرائب عنهم ، وما زال يوالى فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم . وكان يحكم القَطِيف فى نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن على ، فلجأ إليه سبعون فارسا من قبيلة عبد القيس ، فأكرمهم ، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم . سوى إقطاعات مختلفة .

وفى كل البلدان السالفة كانوا يفتنُّون فى المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعا بكثرة الأسماك ، ويكثر السردين فى حضرموت ، ووراءه فى شواطئ الشحر واليمن وعُمان والبَحْرين أنواع سمك لا تكاد تحصى ، ويكثر فى الخليج الآمور (الوقار) والرُّبْيان (الجنبرى) . وكانت المرأة تتفنن فى زينتها وثيابها وفيما تتخذ من حلى . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بعيدى الفطر والأضحى . وكان الغناء منتشرا وخاصة فى اليمن كما أسلفنا ، وكانوا يخرجون للصيد والطرد فى الصحراء من حولهم فرادى وجماعات .

٣

التشيع [١]

عرفت الجزيرة العربية كل نحل التشيع الأساسية ، وهى الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية ، وأطولها عمرا وأكثرها بقاء وأوسعها انتشارا نحلة الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ وقتل وصُلب ، وكان يرى أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوِّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك جوَّز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود على بن أبى طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها . وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة ونحلهم ، فكانت نحلته معتدلة ، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام ، ولا بأن وحياً نزل يعيِّن الأئمة . وكان يشترط فى الإمام أربعة شروط : العلم والزهد والشجاعة والسخاء ، وهو لا يكون إماماً إلا إذا ثار على الخليفة فى عصره وطالب بالخلافة ، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المستور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المختفى مثل الاثنى عشرية والكيسانية .

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة ، وفى مقدمتهم محمد بن عبد الله « النفس الزكية » الذى أعلن ثورته فى المدينة على المنصور العباسى سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فاستثار أهلها ، وهبُّوا معه ثائرين ، وقضى المنصور على هذه الثورة . وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن على الحسنى فى مكة والحجاز ، ويُهزَم هو ومن معه لعصر الهادى سنة ١٦٩ فى مكان يقال له « فَخّ » ويفرّ خاله إدريس بن عبد الله إلى فاس ويؤسس بها دولة الأدارسة . ويفرّ أخوه يحيى إلى خراسان ويُقْبض عليه ، ويلقى به فى غياهب السجون حتى موته . ويثور محمد بن إبراهيم الحسنى المعروف بابن طباطبا فى الكوفة لعهد المأمون ، ويُقْضَى على ثورته . وينشط الزيديون فى طبرستان

---

(١) انظر فى التشيع ونحله مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى والملل والنحل للشهرستانى وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمى وفرق الشيعة للنوبختى والتبصير فى الدين للإسفراينى وفضائح الباطنية للغزالى ورسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد تحقيق د . وداد القاضى (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر .

بالنصف الثانى من القرن الثالث ، وقد صورنا نشاطهم هناك فى الجزء الرابع من هذه السلسة الخاص بالعصر العباسى الثانى .

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان فى اليمن والحجاز ، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادى إلى الحق ، واتخذ مقرا له – كما مرَّ بنا – «صَعْدة» فى الجبال الشمالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالى بعده فى صعدة الأئمة من أبنائه ، حتى سنة ٤٣٧ إذ تولى الإمارة أبو الفتح الديلمى الحسنى كما مرَّ بنا ، ووليها بعده أصحاب المخلاف السليمانى ، وتعود إلى الأسرة الرَّسِّية : أسرة الإمام الهادى إلى الحق وتظل فى أبناء المتوكل على الله الرسىِّ ، كما أسلفنا . وتمر أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية ، فتتسع رقعتها وتستولى على صنعاء أحيانا . ولا يزال أئمتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والطاهريين ، ثم يصبحون وحدهم وجها لوجه أمام العثمانيين ، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مرَّ بنا . أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة ، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحديث ، وإن أخذت تلك الإمارة فى التضعضع والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدينتيه فى القرن العاشر الهجرى .

ومرَّ بنا فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى حديث مفصل عن نحلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النحلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانت قد أدركته المنية فى حياة أبيه ، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه ، لأنها – فى رأيهم – تتوارث فى الابن الأكبر حتى لو توفى قبل أبيه كما حدث لإسماعيل . ويخلفه – فى عقيدتهم – ابنه محمد ، ويخلف محمدا ثلاثة أئمة مستورون جاء فى إثرهم عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم ، وتلقيبه بالمهدى يشير إلى عقيدتهم فى المهدى المنتظر . وعرضنا فى العصر العباسى الثانى تفصيلا لتلك النحلة وأهم مبادئها وأن الذى نظّمها وكوَّن حولها جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح ، وكان ينزل فى سَلَمِيَّة بقرب اللاذقية ، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمى حمدانا ويلقَّب بقرمط ، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها ، وإليه ينسب القرامطة ، وكان يدعو فى جماعته إلى الأخذ بنظام الألفة ، وهى الشركة فى الأموال . وزعم ، وزعم معه القرامطة ، كما يقول البغدادى «أن الأنبياء كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبُّوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم بِنَيْرَنْجات (ضروب من السحر) واستعبدوهم بشرائعهم» وقالوا : «هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والحج

والجهاد» . ومن هنا كانوا يحلُّون أنفسهم من الفرائض ، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم . والقرامطة – بهذا التصوير للبغدادى – كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية ، وكان من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنّابى أرسل به إلى منطقة البحرين ، فاستجابت له هناك قبيلة عبد القيس ، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التى ظلت نحو تسعين عاما . وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريراً كبيراً ، وكثيرا ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم ، وكثيرا ما أغار على البصرة والكوفة وأحرق مساجدهما وأعمل فيهما السلب والنهب . وفى سنة ٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشى على الحجاج فى موسم الحج يوم التروية وسفكه لدماء الآلاف منهم ورَمْى كثير من جثثهم فى بئر زمزم واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى البحرين على نحو ما مرَّ بنا ، وهو فى أثناء ذلك ينشد أشعارا كافرة مارقة . ونرى القرامطة فى سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ومر بنا كيف أن الأعصم (٣٥٩ – ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت ألوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠ وظلت دولة القرامطة قائمة بعده – كما مر بنا – حتى سنة ٣٧٨ . وعلى الرغم من انتهاء دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة فى البحرين إلى أن قامت الدولة العيونية سنة ٤٦٦ وقد عنى مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هى عادة الماشوش ، إذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ، ويشعلون الشموع والمصابيح ويغنون ويرقصون ، ثم يطفئون الشموع ويختلطون . ويبدو أن عبد الله العيونى لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائيا ، فقد ظلت منها بقايا بعده ، بل يقول فؤاد حمزة فى كتابه «قلب جزيرة العرب» ! إنها لا تعدم فى الأحساء – إن صح ما يقول – من يعتنقونها إلى اليوم . وعُرفت الدعوة القرمطية فى اليمن ، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعاته ، هما المنصور بن حوشب وعلى ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة ، ونزلا على حافة اليمن النجدية ، غير أن دعوتهما اختلفت ، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحولهم من إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، وكأنما نفض يده من القرامطة ، وانتشرت دعوته فى بعض الجبال وبعض القبائل ، ويسميه الفاطميون منصور اليمن . وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم ، إذ توفى سنة ٣٣١ وخلفه ابنه فى الدعوة وشركه فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحى ، كما سنرى عما قليل . ونَفَضَ على بن الفضل يده ولسانه من الدعوة الفاطمية ، فلم يَدْعُ للفاطميين ، بل أخذ يدعو لنفسه ، واستطاع الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادَّعى أنه من بنى يَعْرُب أو قحطان ، كما مرَّ بنا ،

واستحلَّ المحارم ، ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم وانتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا .

وظل دعاة الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استمالوا على بن محمد الصليحى للدعوة الإسماعيلية ، واستطاع – كما رأينا فى غير هذا الموضع – أن يؤسس الدولة الصُّلَيْحِيَّة ، وأن يستولى على زَبيد وصنعاء وعدن ، واتخذ صنعاء عاصمة له . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً للحديث عن المذهب الفاطمى الإسماعيلى الذى كان يدين به هو وكثيرون من أهل إمارته . وقد ذكرنا آنفاً أن القرامطة كانوا فرعاً من المذهب الإسماعيلى ضلَّ هداه . وقد اتخذ هذا المذهب فى أول أمره شكل جمعية سرية كوَّن مبادئها عبد الله بن ميمون القدَّاح ، وهى مبادئ غُمست غمساً فى نظرية الفيض الأفلاطونية التى سكبوها فى نظرية الأدوار عندهم ، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون فى أدوار ، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلى الناطق عن القوى الخارقة ، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره . والإمام له نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ، ونسبة إلى عالم الطبيعة . وفى مبادئهم أن قدرة الله تنتقل إلى العقل الكلى أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع فى كل دور ، ولذلك يوصف – عندهم – بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفى عقيدتهم أن آيات القرآن الكريم ينبغى أن تفهم فهماً باطناً مجازيا ، ولا تفهم فهماً ظاهراً أو ظاهرياً ، حتى يؤوِّلوها كما يشاءون . والمنتظم فى سلك الدعوة – عندهم – يتدرّج فى سبع مراتب ويلغت تسعاً . وظلت الدولة الصليحية قائمة – كما أسلفنا – حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زُرَيْع حكام عدن إسماعيليين فاطميين ، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩ . وتلاشت بذلك الدعوة نهائياً بقضاء الأيوبيين عليها فى اليمن ومصر ، وبقيت فترة حية فى المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية ، ونظن ظناً أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر فى اعتناق هذه العقيدة طويلاً وأنها اعتنقت نحلة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية .

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرقىّ الجزيرة ، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالى فى اثنى عشر إماما . ولذلك يسمى أصحابها باسم الاثنى عشرية ، وآخرهم المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمت وإنما غاب وسيعود ليملأ الأرض عدلاً . ولم تقم للإمامية دولة فى الجزيرة العربية ، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسر فى الخليج العربى ، وقد مر بنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولاة كانوا يدينون

بالولاء للخليفة العباسى وبالتالى للبويهيين ، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثنى عشرية ، وفى نفس التاريخ يحدثنا المؤرخون أنه كان فى عُمان بيت إمامى اثنا عشرى هو بيت بنى المكرم ، وأنهم ، كما مر بنا ، دفعوا البويهيين إلى غزو عمان واستخلاصها من أيدى خوارج نَزْوَى ، وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عمان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين فى التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثانى عشر المختفى كما أسلفنا . ولا يزال يوجد إماميون فى الخليج العربى وإماراته إلى اليوم .

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ، وهو أخ ربيب للحسن والحسين ، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ وبالرجعة وكان ابن الحنفية يتبرَّأ منها أشد التبرؤ ، ويتوفى ، فيقول أتباعه إنه لم يمت ، بل غاب فى جبل رَضْوى ، ويقول فؤاد حمزة فى كتابه « قلب جزيرة العرب » يوجد فى الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية يقيمون فى جبل رَضْوَى بالقرب من يَنْبع وهم على شىء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن .

٤

الخوارج : الإباضية[1]

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمى أحد أربعة كانوا رءوس الخوارج فى منتصف القرن الأول الهجرى وحولهم تكونت فرقهم الأساسية : الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية ، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان . والنَّجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفى وكان مسرح نشاطهم اليمامة والبحرين ، والصُّفْرية أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة . وكان مسرح نشاط الإباضية عمان وحضرموت واليمن ، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أوكادت بانتهاء العصر الأموى ، أما فرقة الإباضية فظلت حية لا فى بيئتها الأصلية عمان وحضرموت فحسب ، بل أيضا فى بلاد المغرب ، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون فى

(١) انظر فى الإباضية الكتب المذكورة فى تاريخ عمان وأمرائها والملل والنحل للشهرستانى ومقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى وفجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين وحاضر العالم الإسلامى لشكيب أرسلان ومختصر تاريخ الإباضية لأبى ربيع سليمان الباروني (طبع المطبعة السلفية بالقاهرة) .

العصر الأموى أو بعبارة أدق فى أواخره ، ومازالت الدعوة تنمو فى المغرب ، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية فى تيهرت . ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة فى جنوبى الجزائر وليبيا .

أما فى عُمَان وحَضْرَمَوْت فقد اتخذ الإباضية نَزْوَى جنوبى الجبل الأخضر فى داخل إقليم عمان مركزا وحاضرة لهم وتوالى أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسى ، وكثيراً ماكانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدى العباسيين. وقد تغلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى سنة ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بنى مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ ويضعف بنو مكرم فيعود إليها الإباضية من نَزْوى قبيل منتصف القرن الخامس . وتخرج من أيديهم فى القرن السادس ويتملكها بنو نبهان ، وتعود إلى الإباضية فترة فى أول القرن العاشر الهجرى ، ثم تعود إليهم نهائيًا ويتولاها أئمة الإباضية اليعاربة منذ سنة ١٠٢٤ . وتخلفهم أسرة إباضية أخرى هى أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وتظل عليها إلى اليوم ، وتترك السلطة الدينية لأئمة نزوى وتكتفى بالسلطة الزمنية . ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية ، ومرَّ بنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى وقد نشر فيها مذهب الشافعى ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلا مع دعوة الخوارج ، ولأسرته نشاط علمى وأدبى كبير فى حضرموت ، ومرَّ بنا أن أبا إسحق الخارجى الحضرمى استقل بها فى القرن الخامس ، وكان خارجيًا يدين بالولاء لإباضية نزوى وإمامهم الخليل ابن شاذان ، وكثيرا ماكانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية فى نزوى أو فيها وفى عُمان . وقد نشر العمانيون المذهب الإباضى فى زنجبار والبلاد التى كانت تتبعهم فى شرقى إفريقيا مثل دار السلام ، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى .

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى أهل السنة ، وهم يذهبون إلى أن دار مخالفيهم من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصى كافرا ، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله ، بل يقصدون بكفره أنه كافر بالنعمة ، والكفر بذلك عندهم نوعان : كفر نعمة وكفر شرك بالله . وأحلوا التزوج من مخالفيهم من المسلمين وأن يتوارث الإباضى معهم . ولم يستحلّوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب ، وحرَّموا قتل المسلمين غيلةً وكذلك سَبْيهم سِرًّا . وقالوا إنه لايجوز قتالهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضى وإقامة الحجة عليهم وإعلان الحرب . وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وأتباعهم ، وقالوا

فى مرتكبى الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون ، وهم كفار نعمة لا كفار ملة . وعندهم أن الإيمان لا يكفى فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق ، بل لا بد من العمل وأداء فروض الدين . ويتفقون مع المعتزلة فى نفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة وينزهون الذات العلية عن الشبه بالمخلوقات ، ويقولون إن القرآن مخلوق حادث ، وإذا صح ما يقوله الشهرستانى كانوا يتفقون مع الأشعرية فى رأيهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثًا وإبداعًا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا . ولا يتسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين ، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين .

وهذا الاعتدال فى مذهب الإباضية يجعلنا ننفى عنهم نفيا باتًّا دولة بنى مهدى الخارجية التى استولت على زبيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا ، فقد تسمى مؤسسها بأمير المؤمنين كما تسمى بالمهدى ، وكأنه جمع بين فكرتى الشيعة الإسماعيلية والخوارج الغالين معا مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية ، إذ كان – كما أسلفنا – يكفر بالمعاصى ويقتل من اقترف كبيرة وبالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نساءهم وسمى دارهم دار حرب . وهو فى ذلك كله غال غلوا شديدا حتى ليتقدم الأزارقة خطوة فى الغلو ، ثم هو يدَّعى العصمة ويدعيها له أتباعه وهو فى ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية ، بل إنه ليعد نفسه المهدىّ المنتظر ، ولم ينبث توران شاه – كما مرَّ بنا – أن قضى على من خَلَفَه ودولتهم الخارجية الشيعية .

٥

الدعوة الوهابية السلفية[١]

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبذ البدع التى شابت العقيدة الإسلامية ونبذ تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم إلى قضاء الحاجات . كالبركة فى الزروع أو فى الأغنام والأنعام أو فى برء المرضى وشفائهم ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حمـــل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع القاهرة) وكتاب التوحيد وكشف الشبهات فى التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب طبع القاهرة ولمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب للركبى وعنوان المجد فى تاريخ نجد لعثمان بن بشر وروضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر

والأحجار ، وكان حنبليًّا يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية ، وقد مضى يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم ، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم . وكان الغزالى قد وصل بين التصوف والشريعة محاولا تخليصه من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفا سنيا ، وقد شَنَّ ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة ، وناهض المذهب الأشعرى وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدعاً جديدة .

وعلى هدى من هذه الدعوة التى وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبرى محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ/١٧٠٣م بالعُيَيْنة فى إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه ، وكان أبوه قاضيا للعيينة وعليه تلقى دروسه الأولى وكذلك على علمائها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة ، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكبَّ على قراءته ، وعاد إلى موطنه ، يدعو إلى مذهبه الحنبلى وإلى كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولى أو شفيع ونَبْذ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقبورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية ، والرجوع إلى السنة والعمل على إحيائها ، واتباع السلف فى ذلك كله ، ولذلك يسمى الوهابيون أنفسهم سلفية . وكُتب لهذه الدعوة أن تعم وتنتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدِّرْعيَّة (١١٣٧ – ١١٧٩ هـ .) يده فى يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية ، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية ، بحيث ينبذ النجديون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث .

وأخذ محمد بن سعود وخلفاؤه يعملون على نشر الدعوة ، وأداهم ذلك إلى حروب طاحنة فى الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التى تُظِلُّ نجد والأحساء والحجاز اليوم . وفى الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م فى الدرعية يبث تعاليمه وينشرها فى أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة ، وفى مقدمتها كتاب التوحيد ومجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادى بعبادة الله وحده وأن زيارة قبور الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك . وبالغ أتباعه فى هذا المبدأ فمنعوا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين ، وتشددوا فى قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتختم بالذهب . والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى ، كما كان فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . ولذلك دعت إلى نبذ كل

ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف فى العهد الإسلامى الأول ، ونادت بأنه يجب إزالته ، حتى لوكانت بعض المذاهب السنية الأخرى أباحته ، بل حتى لو حبذته . وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقا فى الوقت نفسه للمذهب الحنبلى ، وتوثقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأسرة محمد ابن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة ، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية ، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية ، فللأولين الحكم والسياسة وللثانين الإفتاء والتعليم والقضاء .

٦

الزهد والتصوف[1]

لم تكن نجد تعرف شيئا عن الترف والنعيم ، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف ، فطبيعى أن لا يتعلق الناس بمتاع الحياة الدنيا ، وحقا كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج فى بعض السنوات طلباً لما فى أيديهم من مال ومتاع ، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون فى متاع الحياة العاجل انتظاراً لما عند الله من الثواب الآجل . ومعروف أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج ، كما منعوا التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية .

وكانت المدينتان المقدستان فى الحجاز ، ولا تزالان ، موئلا للنساك والعباد ، ومن قديم كان يجاور فيها وخاصة فى مكة كبار الزهاد والمتصوفة ، فيقيمون فيها بضع سنوات ، وقد ينفقون فيها العمر كله . ومعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن فؤاد كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعيًّا أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور فى العالم الإسلامى دون أن يفد على مكة ، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية . ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألموا بمكة وجاوروا فيها الحلاَّج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة ، جاور فيها سنة كاملة . ومرَّ بنا فى العصر العباسى الثانى ترجمة له وعرض لشعره الصوفى وبيان لتصوفه وأنه كان تصوفاً فلسفيًّا ، إذ جرت على لسانه كلمات الاتحاد

---

(١) انظر العقد الثمين فى مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للجعدى (طبع القاهرة) والعقود اللؤلؤية ، وتاريخ الشعراء الحضرميين لعبد الله السقاف وسلافة العصر لابن معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلو (نشر مكتبة دار العروبة) .

والحلول . وممن جاور فى مكة بعده القشيرى المتصوف السنى المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث ، وهو الذى رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة ، فنحّى عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والفناء . وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية ، وجاور بمكة بعده شهاب الدين السُّهْروردى شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقى ابن الفارض المتصوف المصرى المشهور الذى كان يجاور هناك ، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طوالا ، وهو يطوف المشاعر مبتهلا إلى الله متغنيا بالحب الصوفى الإلهى ناظما أشعاره الرائعة . وإنشاد البوصيرى لميميته أمام قبر الرسول ﷺ ذائع مشهور . ومن متفلسفة المتصوفة الذين جاوروا بمكة ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفى «ترجمان الأشواق» سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمى : «الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق» وجاور بها أيضا من متفلسفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسى المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة . ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورين بمكة إنما هم قليل من كثير ، وأكثر منهم من جاوروا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة . وكان يتعبد الله معهم أهل المدينتين ومن كان بهما من النساك وإنهم ليفوتون الحصر والاستقصاء ، ولنأخذ مثلا كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين «مكة» فإن من يتصفح تراجمه فى مجلداته الثمانية لا يزال يتنقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد .

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدى لا يزال يتحدث عن زهدِ كثير من هؤلاء الفقهاء و إعراضهم عن متاع الدنيا الفانى ، وحقًّا أكثرهم من فقهاء زَبيد الشافعية ، ولكن الزهد كان يحيى فى كل البيئات وفى كل المدن . وكان كثير من أئمة الزيدية فى صَعْدة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره فى إمارتهم ، فأكبَّ فيها كثيرون على النسك والعبادة ، وبالمثل كان الرسوليون أو كانت كثرة حكامهم . ولم تكتف اليمن بالزهد ، فقد عرفت التصوف السنى وطرقه من شاذلية وجيلانية ورفاعية ، واشتهر عندهم صوفى كبير يسمى أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم فى اليمن المجاذيب ، وهم يطوفون فى البلدان اليمنية مرددين أغانى وأناشيد فى مديح قطبهم الربانى ، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التى شاعت منذ أواسط القرن السادس ، يدل على ذلك ما يُرَى عند أتباعه إلى اليوم من احتمال الآلام الجسمانية ، مصورين بذلك مقدرتهم الخارقة . ومرَّ بنا فى حديثنا عن المجتمع اليمنى والغناء فيه أنهم كانوا يتغنون هناك بمقطوعة

لابن الفارض ، ولعل فى ذلك ما يدل على صلة التصوف اليمنى بالتصوف السنى المصرى عند ابن الفارض وأمثاله ، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيرى فى مدائح الرسول ﷺ وصَلتْهم ، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجرى حتى يلقانا عندهم شاعر صوفى سنى هو عبد الرحيم البرعى المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة ، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهى والمدائح النبوية . وعلى غراره محمد بن إبراهيم الوزير ، وله ديوان شعر كله ابتهالات وزهد وتصوف . ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميناهم عبد الله بن أسعد اليافعى صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين ، وزار مصر ، وكان ابنه عبد الرحمن زاهداً صوفيا على شاكلته وصحب الصالحين ببلاد كثيرة . وما زالت موجتا الزهد والتصوف تنتشران فى اليمن ، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت فى عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن فى مواجهة العثمانيين ، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها ، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة فى البلاد ، حتى نهاية هذا العصر .

وعلى نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين فى اليمن كانا أيضا منتشرين فى حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف فى كتابه عن شعرائها يقول فى مقدمته : إنك ترى فى شعرهم جميعا طلاء صوفيا . وفى الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفى كثير فى محبة الله ومحبة رسوله ومديحه . ويكثر عند السقاف وصف الشاعر بلقب الصوفى الزاهد التقى الورع . ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العَيْدروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمر باعَمرة المتوفى سنة ٩٥٢ وكان كلما سار حفَّ به مريدون يذكرون الله وقد يتغنون ويرقصون ، وكان له مجلس ذكر وسماع وغناء . وممن ترجم لهم أيضاً السقاف عبد الله الحداد العلوى المتوفى سنة ١١٣٢ وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتوفى سنة ١١٩٢ ويفيض كتاب السقاف بسيول من شعر الزهد والتصوف .

ولم تكن عُمان وإقليمها يوماً بيئة تصوف لغلبة الخوارج الإباضية عليها ، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف ، وقد وصف أبو حمزة الخارجى شبابهم قديما بأنهم «غضيضة عن النظر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح (أنضاء) سهر» وطبيعى أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الزائل ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل . ونجد عند شعراء بنى نبهان لمعة من الزهد والمديح النبوى .

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف فى عصر القرامطة ، وفى ديوان ابن مقرب العيونى بعض أشعار قليلة زاهدة ، وهى تشيع فى كتابى سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبى ، وتشيع معها أو تكثر ابتهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات فيها روح الغزل الصوفى وما يشيع فيه من وجد . وتلقانا فى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة .

obeikandl.com

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية [١]

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول ﷺ معلمين إلى القبائل والقرى فى الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الحنيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تتدفق فى كل ركن من أركان الجزيرة . وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة وكل مدن العالم الإسلامى . ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية فى جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الأقاليم الأخرى ، وسرعان ما تتعهده وتضيف إليه إضافات كثيرة .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية فى الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدى ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة ، فقد كانت حركتها العلمية فرعا من فروع الشجرة الكبرى ، شجرة الحركة العلمية العربية العامة ، إذ نلتقى فى كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا فى بغداد وغير بغداد ، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كانت جداوله ونهيراته تجرى فى كل مكان وفى كل دار من أقصى الشرق فى خراسان إلى أقصى الغرب فى الأندلس .

وتتغلغل جداول هذه الثقافة حتى فى نجد : البيئة التى يُظَنّ أنها كانت بعيدة عن الحركة

(١) انظر فى الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيراق فى ابن خلكان والعقد الثمين وتاريخ عمارة اليمنى والعقود اللؤلؤية وسلافة العصر لابن معصوم ونشر العرف لزيارة والبدر الطالع للشوكانى والنور السافر للعيدروس وتاريخ مكة لأحمد السباعى (مطابع دار قريش بمكة) وثغر عدن لباخرمة والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافى وتاريخ الشعراء الحضرميين للسقاف وصفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير وتحفة الأعيان لنور الدين السالمى وعمان تاريخ يتكلم لمحمد السالمى وعساف وشعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم .

العلمية لما يحيط بها من أسوار الصحراء ، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ ، وكانت تُتلَى فيها كتب الشريعة وأيضا كتب العربية بأخرة . وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلا أو كثيرا من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة ، على نحو ما حدث فى بنى مَزْيد وقبيلتهم بنى أسد حين أسسوا مدينة الحِلّة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار ، وأيضاً على نحو ما حدث فى بنى عُقَيْل حين اتخذوا لهم إمارة فى الموصل ، فإن القبيلتين جميعاً قادتا حركة علمية فى ديارهما ، وقد عادتا جميعاً إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجرى . ومن المؤكد أن قرى نجد مثل اليمامة (الرياض فيما بعد) وبُرَيْدَةَ وحائل والعُيَيْنة والدِّرْعية لم تخلُ فى أى عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقى كتب الفقه والتفسير والحديث النبوى . ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استحالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية وللدارسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية .

وإذا تركنا نجداً إلى المدينتين المقدستين فى الحجاز : مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكى والمدنى يتحولان فى عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين ، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية فى البلاد العربية ، لسبب مهم سبق أن عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء النابهين بالأقطار العربية فى كل عصر كانوا ينزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طوالاً ، وقد يمضون فيها بقية حياتهم ، وبالمثل كانوا ينزلون المدينة ، غير من كان فيها وفى مكة من علماء الشريعة والعربية . وتفيض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء ، ويكفى أن تتصفح مثلاً كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين : مكة لترى مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف ، وكان لكل عالم حلقته ، فلمقرئ القرآن الكريم حلقته وكذلك للمفسر والمحدث والفقيه وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف . وتتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى لتُعَد بالعشرات . وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس ، فقد بنى بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة ، رتب لها مدرسين وإماماً ومؤذناً وطلاباً يتعلمون ، ووقف عليها أوقافاً دارّة . وتعاقب بعده بناء المدارس فى مكة والمدينة ، يبنيها بعض السلاطين الرسوليين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباى التى بناها بجوار الحرم المكى ورصد لها أوقافاً كثيرة . وعُنى العثمانيون بعد استيلائهم على الحرمين ببناء المدارس ، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه ، وتتكاثر المدارس فى المدينتين المقدستين وتتكاثر الكتاتيب وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجرى .

ونشطت الحركة العلمية فى اليمن من قديم ، بسبب توزعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علميا وأدبيا مما جعل كلا منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء ، فالأمير على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة الصُّلَيْحية الإسماعيلية كان عالما ، ويقول عنه عمارة : «كان عالما وفقيها مستبصرا فى علم التأويل وخطيبا بليغا» وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية . ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخارى مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة . وكان جياش من آل نجاح أمراء زبيد مؤرخا وصنف « المفيد فى أخبار زبيد» واختصره عمارة اليمنى ونُشر مختصره ، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكى ، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب . ويقول عمارة اليمنى إنه رأى جريدة هذه الرواتب التى كانت تُدْفَعُ إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة ، فوجدها اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة . وبالمثل عُرف بنو زُرَيْع أمراء عدن بإكرام العلماء والشعراء وإسباغ العطايا والجوائز عليهم . وحين تسلم الرسوليون زمام الأمور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يتقدمهم فى ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بنى فى تعزّ عاصمته الصيفية مدرستين وفى عدن مدرسة وفى زبيد عاصمته الشتوية ثلاث مدارس : مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية ومدرسة للحديث النبوى ، ورتب فى كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا ، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفايتها وتسدّ حاجتها . وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية فى تعزّ وجوامع أخرى فى أنحاء إمارته وبنى مدرسة بتعزّ ، وأخرى بظفار وكانت تتبعه . وابتنى أحد رجاله المسمى بدراً المظفرى بزبيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوى ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة . وخلفه ابنه السلطان الأشرف ، وكان عالما فى فنون مختلفة وله عدة مصنفات ، منها كتاب طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب فى التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان ، وتعمق فى علوم الأوائل ، وله كتاب فى الأسطرلاب وكتاب الجامع فى الطب . وولى بعده أخوه المؤيد ، وكان عالما أديبا ، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحوى المصرى وكتاب الجمل فى النحو للزجاجى وكفاية المتحفظ فى اللغة ، ودرس كتاب التنبيه فى الفقه الشافعى لأبى إسحق الشيرازى وسمع الحديث النبوى من حفاظه الأعلام وأجازه منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبرى شيخ السنة بالحرم المكى وأذن له فى رواية البخارى والترمذى عنه وناوله صحيح مسلم . وجمع من الكتب ما لا يكاد يُحْصَى ، واختصر كتاب الجمهرة فى البيزرة وألف فى الطب كتاب

العمدة . وأشتهر بعده حفيده السلطان الأشرف إسماعيل بتشجيعه الحركة العلمية ، وحين علم فى سنة ٧٨٨ بتأليف القاضى جمال الدين محمد بن عبد الله الريمى كتابه « التفقيه فى شرح التنبيه » فى أربعة وعشرين جزءاً أمر بحمل هذا الكتاب على رءوس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلسه ، مزفوفاً بالطبلخانة ، وحين وصل الكتاب ومصنفه منحة مكافأة لجهده العلمى : ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم والعلماء ، ورَفْعاً لدرجة الشيخ . ويقول الخزرجى إنه طرَّز كتبه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته ، ويذكر عنه أنه رتَّب فى سنة ٧٩١ بجامع المملاح ستة مدرسين ومقرئاً للقراءات السبع ومحدِّثاً ومدرِّسين : شافعياً وحنفيا ومدرسين : فى النحو والفرائض ، ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقيِّمين وخطيباً ومعلماً وأيتاماً يحفظون القرآن وشيخاً صوفيًّا . وكان الخزرجى نفسه أحد المرتَّبين لإقراء القرآن . وأمر السلطان الأشرف بعدِّ المساجد والمدارس فى سنة ٧٩٥ بزبيد فكانت مائتين وبضعا وثلاثين . ومعروف أن المساجد فى العالم الإسلامى كانت مدارس تُعْقَدُ فيها دائماً حلقات للطلاب والعلماء . ولعل فى هذا ما يدل على مدى النهضة العلمية باليمن فى عهد الرسوليين ، وبلغ من عنايتهم بذلك أن اشترك معهم نساؤهم فى بناء المدارس والجوامع والمساجد . وقصد اليمن حينئذ كثير من العلماء ، ومن أهمهم الفيروزابادى صاحب كتاب القاموس المحيط ، ألفه فى زَبيد ، ونوَّه فى مقدمته بالسلطان الأشرف ، وقد أنزله منزلة رفيعة ، ويقال إنه لما ألَّف كتابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يُحْمَل الكتاب إلى بابه مزفوفاً بالطبول فى موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة ، وأمر للفيروزابادى توا بثلاثة آلاف دينار ، إذ كان الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، فجعل لكل جزء ألفاً . ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة فى تعزّ . وفى الحق أن دولة الرسوليين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة فى اليمن ، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتى ألف مجلد ، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتباً نفيسة أو نادرة . وأهتم بنو طاهر الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم فى العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء .

ومنذ اتخذ الرَّسِّيُّون صَعْدة مركزاً لدعوتهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وهم يبعثون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها . فكثيرون منهم ألفوا فى الفقه الزيدى وفى علم الكلام وفى غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية فى اليمن . وللإمام المهدى المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبى الفتح الديلمى المتوفى سنة ٤٤٤ وللإمام المنصور بالله المتوفى

سنة ٥٩٨ وللإمام المهدى أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٧٠ . وعلى هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن فى النهضة العلمية . ويشتهر الإمام شرف الدين يحيى المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس فى صنعاء وذمار وكوكبان . ومَّر بنا أن الإمارة الزيدية اتسعت فى العصر العثمانى وشملت صنعاء وغيرها من المدن ، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين .

ويلقانا فى حَضْرَمَوت كثير من العلماء النابهين ، وهم منبثون فى كتب التراجم ، ولهم دلالتهم على ما كان وراءهم من حركة علمية ، وفى كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك فى كتاب العقد الثمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاوروا فى مكة . وفى كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمى ما يصور من بعض الوجوه النشاط العلمى وازدهاره بحضرموت ومدنها : تريم وغير تريم .

وكانت عُمان من قديم مركزاً لحركة علمية نشطة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دُرَيْد أكبر علماء اللغة فى عصره أزدى عُمانى وقد أمضى بعمان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر فى تكوينه اللغوى ، ومن آثارها فى معجمه « الجمهرة » أنه يحمل كثيراً من لغة الأزد العُمانيين وخصائص لهجتهم ، ومعروف أنه توفى قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤ . وشهرة عُمان العلمية فى القرن الرابع الهجرى هى التى جعلت أبا سعيد السيرافى ، كما قال الرواة ، يخرج من بلدته سيراف فى طلب العلم إلى عُمان ، ويتفقه بها ويتعلم العربية ، ثم يدخل بغداد بعد ذلك ، ويروى أنه تتلمذ لابن دُرَيْد . وقد عُنى حكام عُمان من بنى مكرم وخلفائهم من بنى نبهان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم ، فكثر فى عمان الأدباء والعلماء والشعراء . وكان للخوارج فى عاصمتهم نَزْوَى ثم فى عمان حين استولوا عليها نهائيا فى العصور المتأخرة نشاطهم الخاص فى مذهبهم الإباضى والتأليف فيه مع العناية بالعربية .

ومنطقة البَحْرين هى منطقة قبائل عبد القيس وتميم قديماً ، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق دارين ، وأنجبت عبد القيس فى الجاهلية والعصر الإسلامى غير شاعر وخطيب ، وأشاد بخطبائها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ونوَّه بهم طويلاً . ونشعر حين استولى القرامطة على البحرين بخمود الحركة العلمية فيها ، غير أنها أخذت تنتعش سريعاً فى زمن العيونيين وبنى عصفور وبنى جبر ، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وقفوا أنفسهم على تلقين الشريعة والعلوم اللغوية للناشئة وتفقيه

الناس بأمور دينهم ووعظهم . وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة ، على نحو ما يصور ذلك مثلاً كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم فى القرن الحادى عشر والثانى عشر مثل الشيخ سلمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة فى المنطق وعلم الكلام . ومن يطلع على كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر يرى نشاطاً علميا وأدبيا واسعاً فى أواخر هذا العصر كان يعم البحرين ، بمعناها العام : فى الأحساء وقَطر والقَطيف وجزيرة أُوال (البحرين الحالية) .

٢

علوم الأوائل [١]

من مفاخر جزيرة العرب وحَضْرَمَوْت خاصة أنها قدَّمت إلى الفكر العربى فى نهاية العصر العباسى الأول ومفتتح العصر العباسى الثانى أول فيلسوف بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف ، وهو يعقوب بن إسحق الكندى الذى تمثَّل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلا رائعا ، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقهاً حسناً ، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة ، سواء فى العلوم الطبيعية أو الرياضية أو فى المنطق والسياسة والأخلاق والطب . وقد أحصى ابن النديم فى الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتاباً ، وكثير منها ترجم إلى اللاتينية ، ويقول ألدوميلى إن كتابه فى الهندسة أثَّر أثراً بعيداً فى روجر بيكون .

والكندى ثمرة الحركة العلمية فى البصرة التى نشأ بها وفى بغداد التى عاش فيها ، وطبيعى أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية ، غير أن مراكز أخرى أخذت تتكون فى هذا العصر بإيران وبمصر والشام ، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز ينافس هذه المراكز ، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعداداً للمشاركة فى علوم الأوائل أو على الأقل فى تعلُّمها تعلماً حسناً . ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى حتى نجد أبا محمد الحسن الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل ، ويتقنها فهماً وتحليلاً ، بل لقد ألف فيها مصنفات جيدة ، ومن أهمها كتابه « سرائر الحكمة » وفيه

---

(١) انظر العلم عند العرب لألد وميلى وترجمة الهمدانى فى مختصر الزوزنى لكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ١٦٣ وديوان السلطان الخطاب تحقيق إسماعيل قربان حسين (طبع دار المعارف – المقدمة) وترجمة ابن سينا فى ابن أبى أصيبعة وترجمة زيد بن عطية فى إنباه الرواة وكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة العصر لابن معصوم .

عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب . وبيَّن علم أحكام النجوم واستوفى ضروبه ، وكذلك كتابه « القوى » فى الطب ، وكتابه « الإكليل » الذى ألفه فى ملوك حمير وأنسابها وهو فى عشرة أجزاء كبار ، وفيه مما يتصل بعلوم الأوائل « جُمَل من القرانات » فى النجوم وأوقاتها – كما يقول القفطى – ونُبَذٌ من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل فى قدم العالم وحدوثه واختلافهم فى أدواره . ثم يقول القفطى : وله زيجه المعروف ، وعليه اعتماد أهل اليمن .

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية فى عصر الدولة الصُّلَيْحية (٤٣٩ – ٥٣٢ هـ) هيأت من بعض الوجوه للعناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، إذ كانت ترتكز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية ، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعاية لها ، وهى من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها فى الأفلاطونية الحديثة وأيضاً عرضٌ لعلوم الأوائل . ونجد أحد دعاة الفاطميين فى اليمن المسمى الداعى الذؤيب وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منهما رسالة فى النفس ، ومعروف أنها من المباحث الفلسفية ، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته الفاطمية ، وهى تصطبغ بصبغة فلسفية واضحة كالبحث فى الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعقولات والمحسوسات .

وفى ترجمة ابن سينا ذُكر شخص همدانى يشدو الفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألهم فيها الإنصاف بينه وبين ابن سينا ولم نقع على اسم هذا الهمدانى . وفى الجزء الثانى من كتاب إنباه الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصَّعدى اللغوى ، وفيها أنه «كان لغويا شاعرا منجما حاسبا هندسيا . يسلِّم إليه المنجمون فى ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب ، وله تصانيف فى ذلك ، منها زيجان : كبير وصغير ، ومنها « أحكام نجومية » و « فصول » .

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت فى اليمن اهتماما بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة فى عهد سلطانها المظفر (٦٤٧ – ٦٩٤ هـ) . وولديه السلطانين الأشرف والمؤيد ، ولكل منهما فى الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة فى الطب ، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر يطلب منه طبيبا قائلا : « ولا يظن المقام العالى أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا ، وقد اشتغلنا به من أيام الشبيبة ، وولدنا عمر – يقصد السلطان الأشرف – من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله » . ومرَّ بنا أن للسلطان المؤيد فيه كتابا سماه « العمدة » . ويذكر

صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن فى القرن الحادى عشر طبيبا شيرازيا ، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره .

ويلقانا دائماً اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم ، ونقرأ عن ذلك أخباراً متناثرة هنا وهناك ، من ذلك ما نقرؤه فى تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين : إحداهما فى الطب والثانية فى علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة فى علم الجبر والمقابلة . ونستطيع أن نعمم هذه النزعة فى عمان والبحرين وفى مكة والمدينة . ومما يدل على رغبة المثقفين فى الجزيرة العربية على الاطلاع على علوم الأوائل أننا نجد فى كتاب نفح الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عنى بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس فى الهندسة وكتاب المجسطى فى الهيئة ، كما قرأ الحكمة الإشراقية . ونؤمن بأن المنطق ظل يدرس فى كل أنحاء الجزيرة ، لاقتناع العلماء فى كل مكان بضرورة درسه .

ونترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية ، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى مع أول هذا العصر ، كما مر بنا آنفاً ، ولأبى على الهجرى كتاب النوادر والتعليقات وهو زاخر بأماكن الجزيرة ، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية ، ومعروف أن الأمم القديمة فى أفريقيا وآسيا وأوربا اخترقت البحار والمحيطات من حولها ، وبنت سفناً حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو ، حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القُلْزُم أو البحر الأحمر ، كما اقتحموا المحيط الهندى إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غرباً وإلى الهند شرقاً . وكان اقتحامهم له فى أواخر القرن الأول الهجرى سبباً فى أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونسيا ، بل لقد اقتحموا المحيط الهادى ونزلوا على شواطئ الصين ، واشتهر أحد تجارهم المسمى سليمان بكتابة رحلة له قام بها فى سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميمّما ديار الصين ، وقد تحدث فيها عما ركبه وخاضه من بحار بادئاً بالخليج العربى . وتوالى رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية .

علم الملاحة البحرية [1]

كان ربابنة السفن فى البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول

(١) انظر فى هذا العلم وفى ابن ماجد وسليمان المهرى كتاب العرب والملاحة فى المحيط الهندى لجورج فضلو حورانى ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة الأنجلو) بالقاهرة . وراجع قران فى مادتى شهاب الدين أحمد بن ماجد والمهرى فى دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثة أزهار فى معرفة البحار لأحمد بن ماجد .

فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر فى المحيط الهندى وما يتصل به من المحيط الهادى ، مما كان سبباً مباشراً فى نشوء علم الملاحة عند العرب وازدهاره على مر السنين . وكان يشترك فى هذه الملاحة سكان الخليج العربى وجنوبى الجزيرة العربية ، ونهض بها منهم ربابنة كثيرون .

وأشهر ربابنة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود فى عُمان حوالى سنة ٨٣٠ للهجرة ، وقد نشر له المستشرق جبرييل فران فى باريس سنة ١٩٢١ – ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله النثرية والشعرية أنشأها فى نحو ثلاثين عاماً بين سنتى ٨٦٥ و٨٩٥ ولفران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره فى دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين . ونشر المستشرق الروسى تيودور شوموفسكى فى موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لأحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بهذه الأراجيز الثلاث ونشرها فى القاهرة بعنوان : « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكى ، وردَّ الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها المطبوعة والمخطوطة ، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد وبذل فى ذلك كله جهداً محموداً .

والأعمال التى نشرها فران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة فى باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين ، تتناول أصول علم البحار والفلك والملاحة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب . وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب . وبجانب هذه الأشعار فى المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس : « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة ، وهو فى اثنى عشر فصلاً ، ويتحدث ابن ماجد فى الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحة والإبرة والبوصلة والإسطرلاب . ويعرض للكتابات فى الملاحة قبله ويشيد بثلاثة من الربابنة ، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان ، معتمداً فى ذلك على دفتر كتبه حفيد لسهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية ، وليس

– تحقيق تيودور شوموفسكى ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى والملاحة وعلوم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد العليم (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدوميلى ص ٥٣٢ وما بعدها ومقالاً للأستاذ حسن الصيرفى فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان « علماء البحار العرب واصطلاحاتهم البحرية » .

بصحيح ماذهب إليه بعض الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كاتب النسخة وأنه كتبها – كما يظن – سنة ٣١٥ للهجرة وكأن هؤلاء الربابنة الثلاثة – فى رأيه – كانوا يعيشون فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وهو ما نستبعده ونظن أنهم عاشوا فى النصف الأول من القرن السادس . ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابنة الثلاثة ويقول إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم البحرية لم تتجاوز الخليج العربى . ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم . ويؤكد أن كتابه ليس كتاباً نظريا كالكتب السابقة له ، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر ، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجده ، فقد كانا رُبَّانين كبيرين ، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية فى ألف بيت تُعَدّ دليلاً ومرشداً هادياً للملاحة فى البحر الأحمر . ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهل بن أبان عن جده وصاحبيه من معارف فى الملاحة يسميهم الليوث ، ويسمى نفسه رابع الليوث أو رابع الثلاثة . ويذكر فى الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التى تطابق تقاسيم البوصلة الاثنين والثلاثين والطرق البحرية فى المحيط الهندى وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانى فى المحيطين : الهندى والهادى والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندى والخليج العربى والرياح الموسمية المواتية للرحلات والبحر الأحمر ومراسيه وشطآنه وشعابه المرجانية ورياحه وأغواره . ويقول قَرّان إن وصفه لكل ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف لكاتب آخر فى الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية . وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط . فكل ربان لابد أن تكون معه خريطة وبوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه (واسمها عند ابن ماجد بُلُد) ومزاول لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبى .

ومن سوء طالع هذا العالم العربى الفذ فى علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاما ونيفا أن تعرَّف عليه فى « مالندى » بشرق إفريقيا فاسكودى جاما البرتغالى ، وكان قد يئس من الوصول إلى الهند عن طريق البحر ، إذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحرى إليها ، وكانت سفنهم كلما خرجت فى المحيط الهندى واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها أحد . ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشدا يهديه الطريق فى سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا فى الهند . وبذلك يكون – لغفلته – أداة للاستعمار البغيض : البرتغالى أولا ، ثم الإنجليزى والفرنسى والهولندى . من شاطئ إفريقيا الشرقى إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين . وسرعان ما شعر بسوء فعله ، وصَوَّر ذلك مرارا

فى ألم ومرارة عن قاسكودى جاما وأصحابه البرتغاليين فى الأرجوزة الأولى من « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » :

وجَا لكاليكوتَ خُذْ ذى الفائده لعام تسْعْمايَهْ وستٌّ زائده
وسار فيها مبغضُ الإسلامِ والناسُ فى خَوْفٍ وفى اهتمامِ
واشْتَرَوُا البيوت ثم سكنوا وصاحَبوا ولسَّوامرْ ركبوا

وهو يريد بالسوامر البرتغاليين نسبة إلى السامرىّ الذى صنع العجل وعبده بنو إسرائيل يريد أنهم كفار ، ومع ذلك صاحبَهم حكام ثغر كاليكوت فى الهند . وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان . ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضاً يختل الوزن عنده أحياناً .

وخلف ابن ماجد ربان من سدنة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهرى من مَهْرة فى الشِّحْر بين حضرموت وعمان ، عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ، وله فى الملاحة كتب لا تقل أهمية عن كتب ابن ماجد ، بل لعلها أوفى وأشمل فى بيانها لأحوال الملاحة فى المحيطين الهندى والهادى حتى بحر الصين ، ومن كتبه « تحفة الفحول » و « العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية » و « المنهج الفاخر فى علم البحر الزاخر » وتاريخها جميعاً يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر ، وقد درس قران أعمال سليمان المهرى البحرية دراسة وافية .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة فى التراث اللغوى والنحوى والبلاغى والنقدى ، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم فى بيئة من البيئات العربية إلا ونجده قد نُقل إلى البيئات الأخرى ، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات ، بل عن طريق الطيارات ، لا نبلغ مبلغ أسلافنا فى سرعة التواصل بينهم فى الكتب ، لا فى مجالات الفقه والحديث وما إليهما من الدراسات الدينية فحسب بل أيضا فى جميع المجالات لغوية وغير لغوية . وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء ، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتابا ، ولم يستطع

الحصول عليه رغم تطوافه فى البلدان لجأ إلى النداء عليه فى الحج ، ليخبره عنه بعض من رآه فى مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند . وكان العالم فى أى علم أو فن يرى أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد فى رحلته ليلقى العلماء ويقرأ كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذى يريد التعمق فيه . ونقلوا فى أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كتبه الأسلاف ومعاصروهم ، وفتحت المكتبات فى كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجزى حَمَلَتها خير الجزاء .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط فى علم بأى بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخذهم رموزا للحركة العلمية الكبيرة ، وهى أكبر جدا من أسمائهم ، لأنها تعنى النشاط العلمى فى العالم العربى جميعه ، إذ كانت كتبه ومصنفاته تُصَبُّ فى كل البلدان العربية ، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب . وقد يضيفون إليها فى كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عيداً لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم من البلاد العربية ، إذ كانت معرفتهم بكتبه ومصنفاته تسبقه ، فكان بمجرد نزوله فى بلد يتحول فى التوّ محاضرا ويتحلق حوله الطلاب يفيدون من علمه .

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية ، أشبه ما تكون بالدورة الدموية ، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر ، ويدور العلماء أنفسهم . وكانت الجزيرة العربية تدخل فى هذه الدورة ، تدخل فيها نجد بقراها التى أخذت تعنى بتعلم العربية منذ أن هَجَرَتْ أوكادت الإعراب فى القرن السابع الهجرى وما بعده . أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم ، كما كانا يعنيان بالنحو ، وكان يوجد لها دائما مدرسون ينهضون بهما سوى من كان ينزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية ، ويكفى أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة [1] الأندلسى المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيبويه على الطلاب فى الحرم المكى ، مما جعل الزمخشرى [2] يرحل فى شبيبته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذه عنه ، وقد جاور بمكة - بدوره - مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كتبه ، وكان لا يبارَى فى اللغة والنحو وألف فيهما مؤلفات دَوَّتْ شهرتها فى العالم العربى ، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذى رتب مواده بحسب الحرف الأول . وأدخل فيها كثيرا

---

(١) انظره فى التكملة لابن الأبار ٢ / ٨١٥ والعقد الثمين ٥ / ١٨٢ وبغية الوعاة والبحر المحيط لأبى حيان ٤ / ٣٧٢ .

(٢) راجع فى الزمخشرى ابن خلكان (طبعة دار صادر بيروت) ٥ / ١٦٨ وانظر بقية مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من القسم الخاص بإيران .

من الشواهد والأساليب الأدبية ، ويغلب أن يقول فى ختام المادة : « ومن المجاز » فيقرن الأساليب المجازية إلى الأساليب الحقيقية . وألف فى غريب الحديث النبوى كتابه « الفائق » وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ الغريبة ، وصنف فى تفسير القرآن الكريم وألفاظه « الكشاف » وشهرته تملأ الخافقين . ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيبويه والمستقصى فى أمثال العرب والقسطاس فى العروض . ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل ، جعله فى أقسام أربعة : قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشترك وأراد به الإمالة والوقف والإبدال والإعلال ، ولابن يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور . وللزمخشرى بجانبه فى النحو كتاب سماه النموذج . ولا ريب فى أن هذا العالم النحوى اللغوى العظيم بعث فى مكة حركة علمية مباركة فى فنون اللغة والنحو والتفسير ولا بد أن كثيرين شَدُّوا الرحال إليه فى مكة ليتلقوا عنه مصنفاته ، وليحملوا عنه الإجازات بروايتها سماعاً وإلقاء . وممن نَزَل بمكة وجاور بها سنين من كبار اللغويين الصغانى الحسن[1] بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ وحياته تقصُّ ما قلناه من وحدة الثقافة فى العالمين العربى والإسلامى ، فقد ولد سنة ٥٧٧ فى لاهور عاصمة إقليم بُنْجاب فى الهند ، ونشأ فى إقليم صغان كورة من بلاد السُّغد ، ويذكر مترجموه شيخين له فى الهند ، فالشيوخ ومعلمو العربية والشريعة منبثون فى أنحاء العالم الإسلامى ، حتى فى أبعد ديَاره . ورحل فى طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها سنتين ، ودخل اليمن ، واستطاع بمن لقيهم من الشيوخ فى موطنه وغير موطنه ، وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث ، أن يصبح إماماً من أئمة اللغة العربية ، مما جعله موئلاً للطلاب فى كل مكان نزل به وخاصة فى مكة . وعُنى بوضع المعاجم والكتب فى اللغة ، ومن أهمها : مجمع البحرين فى اثنى عشر مجلداً ويقول فى مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهرى ومعجم له سماه « التكملة والذيل والصلة » . وعادة يفصل فى مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكملة وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة . ونشر مجمع اللغة العربية معجم « التكملة والذيل والصلة » المذكور فى ستة مجلدات ، وقد ضمنه ما فات الجوهرى فى صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام . وله كتاب فى الأضداد ، وكتاب سماه النوادر فى اللغة روى فيه غرائب اللغة التى نصَّ عليها علماء اللغة الأقدمون ، وفى دار الكتب المصرية منه مخطوطة . وحاول بأخرة من عمره أن

---

(١) انظره فى العقد الثمين ٤/١٧٦ والجواهر المضية لابن تغرى بردى ٧/٢٦ .
٢٠١/١ وشذرات الذهب ٥/٢٥٠ والنجوم الزاهرة

يؤلف فى اللغة معجماً كبيراً سماه العباب الزاخر ، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه . ولا شك فى أن هذا الإنتاج الغزير يصوِّر عالماً لغويا كبيراً ، وهو لم ينشأ فى الجزيرة ولا فى بلد عربى ، وإنما نشأ فى الهند ، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأفذاذ فى العربية على مر العصور ، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربى كان ملقى بكل مكان فى العالم العربى والعالم الإسلامى الكبير . وممن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد [١] المعطى أحمد بن محمد الملقب بنحوىّ الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربى مصرى تتلمذ فى العربية على أبى حيان الغرناطى عالمها المشهور ، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحوى المعروف ، ثم جاور بمكة إلى أن توفى بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض . ومن النحاة بعده محمد [٢] بن أبى بكر المرجانى المكى المتوفى سنة ٨٢٧ . ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية . ولا ريب فى أن دراستها ظلت نشطة فى العصر العثمانى وحتى نهايته ، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية فى مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة .

وتنشط اليمن طوال هذا العصر فى الدراسات اللغوية والنحوية ، وهو يفتتح فى سنة ٣٣٤ للهجرة بوفاة عالم لغوى يمنى مهم ، هو الهمدانى [٣] المذكور فيما مرَّ ، وفيه يقول القفطى فى إنباه الرواة «هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها» . وسبق أن نوهنا بكتابه الإكليل وهو فى سير الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين ، طبع منه الأجزاء : الأول والثانى والثامن ، وكذلك الجزء العاشر وهو فى أنساب همدان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة . وله كتاب يسمى «اليعسوب فى فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعار» يقول القفطى عنه : إنه جيد جداً ومفيد للمتأدبين ، ومرَّ بنا ذكر كتابه صفة جزيرة العرب ، وهو يحمل مقداراً كبيراً من اللغة والشعر . وله القصيدة الدامغة افتخرفيها باليمن على مضر ، طبعت مشروحة بالقاهرة . وكان يكاتب ابن الأنبارى وغيره من لغويى بغداد ويعترفون بفضله ، ومن أجله رحل العالم النحوى المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعنى بجمع ديوانه وتخريجه ، إذ كان شاعراً مجيداً . وتمضى اليمن فى نشاطها اللغوى والنحوى طوال أزمنة الدول التى مرت بنا فى زبيد وصنعاء وعدن وصَعْدة إذ كان أمراؤها يتنافسون فى جمع العلماء بإماراتهم ومن حولهم : علماء العربية وغيرهم ، ويلقانا

---

(١) انظره فى العقد الثمين ٣/١٤٩ والدرر الكامنة لابن حجر ١/٢٧٧ .

(٢) العقد الثمين ١/٤٢٩ .

(٣) إنباه الرواة ١/٢٧٩ وأخبار الحكماء ص١٦٣ ومعجم الأدباء ٧/٢٣٠ وروضات الجنات ٢٣٨ .

منهم فى زبيدبيلاط جياش بن نجاح زيد بن عطية الذى سبق أن تحدثنا عن حذقه لعلوم الأوائل ، وكان يعاصره فى بلاط الصليحيين إسماعيل [١] بن إبراهيم الربعى النحوى اللغوى الشاعر ، من أهل صنعاء ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء الصليحيين ، وله قصيدة فى غريب اللغة جعل ترتيبها على ترتيب معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد وسماها « قَيْد الأوابد » وجعل لها شرحاً ضمنه نوادر وطرائف من الأخبار والأشعار . ومن نحاة اليمن القاضى أبو بكر اليافعى المتوفى سنة ٥٥٢ وله فى النحو مختصر سماه المفتاح ، وسرعان ما تنجب اليمن نشوان [٢] بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ وله فى اللغة كتب مختلفة ، أهمها « شمس [٣] العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم » فى ثمانية مجلدات ، رتبه على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا أواخرها متابعا فى ذلك الزمخشرى فى معجمه أساس البلاغة ، وحرص فيه على دقة الضبط بالنقط والحركات ، وقسم كل باب فيه أو حرف قسمين : قسما للأسماء وقسما للأفعال ، وعُنى بأن يذكر فيه كثيرا من الكلمات اليمنية التى لم تسجلها المعاجم قبله ، وأكثر فيه من شواهد القرآن الكريم والحديث النبوى والشعر والأمثال . وكان يعاصره الحسن [٤] بن أبى عباد المتوفى سنة ٥٩٠ ويقول القفطى إن له مختصراً فى النحو مشهوراً فى اليمن يقرؤه المبتدئون ، ويقول السيوطى فى البغية عنه : « إمام النحاة فى قطر اليمن كانت الرحلة فى علم النحو إليه وإلى ابن أخيه إبراهيم » . وكان يعاصرهما على [٥] بن سليمان اليمنى النحوى المتوفى سنة ٥٩٩ وله مصنف فى النحو سماه كشف المشكل فى مجلدين ، وروى له ياقوت أبياتاً يحصر فيها جموع التكسير .

وتنهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ، وكانوا يجزلون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج ومرَّ بنا أن الفيروزابادى [٦] مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ بزبيد وفد على السلطان الأشرف ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيراً ما عاد إليها ، وجعلها فى سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين : فى الحديث وفقه مالك وفقه الشافعى ، وزار المدينة المنورة وقرر بها ما قرر بمكة ، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضى

---

(١) إنباه الرواة ١ / ١٩١ .

(٢) انظر مصادره فى ترجمته بالفصل الثالث .

(٣) طبع الجزء الأول منه فى برين ثم طبع بالقاهرة .

(٤) انظره فى معجم الأدباء ٨ / ٥٣ وإنباه الرواة ١ / ٢٩٠ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٢٢٢ وانظر فى ابن أخيه الآتى ذكره معجم الأدباء ١ / ١٦٤ وله فى النحو مصنفات .

(٥) راجعه فى معجم الأدباء ١٣ / ٢٤٣ .

(٦) راجعه فى الضوء اللامع للسخاوى ١٠ / ٧٩ وفى العقد الثمين ٢ / ٣٩٢ وبغية الوعاة والروض العاطر للنعالبى ٢ / ٢٤٩ والبدر الطالع للشوكانى ٢ / ٢٨٠ والشذرات النعالبية على هامش ابن خلكان ١ / ٣٢ .

القضاة باليمن . وظل يليها أكثر من عشرين سنة فى عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدركته الوفاة . وكانت أكثر إقامته بزبيد ، وأقام مدة بتعزّ ، لما كان فُوِّض إليه من التدريس بمدارس البلدتين . وله مصنفات كثيرة فى الحديث وفى الفقه ، ومرت بنا المنحة التى أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف فى الفقه كتابه الإسعاد ، وله فى النحو كتاب سماه « مقصود ذوى الألباب فى علم الإعراب » . أما اللغة فكان فيها بحر لا يسبر غوره ؛ ومن مصنفاته فيها مصنف فى الترادف سماه : « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف » . وله كتاب فى غريب الذكر الحكيم سماه « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز » وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى عدة مجلدات . ومن أروع أعماله معجمه النفيس « القاموس المحيط » الذى ألفه فى زَبيد ، ولا نغلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو فى أربعة مجلدات فقط ، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حولها إلى ما يشبه بحثاً قصيراً ، وقد اتبع فى ترتيب مواده طريقة الصحاح للجوهرى فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزمخشرى فى أساس البلاغة ، لأن الحرف الأخير فى المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة . وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاته من بعض المواد أو ما سبق خطأ إلى وهمه . وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق فى كتابه الجاسوس على القاموس ، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادى ، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية المعربة ؛ وهى جديرة بأن تجمع ويخرج فيها كتاب مستقل ، ولنفاسة المعجم تعهده يمنى بصنع شرح مطول له هو السيد مرتضى[1] الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩٠ م وقد اتخذ القاهرة مهاجراً له وموطناً منذ سنة ١١٦٧ هـ/ ١٧٥٣ م وفيها ألف هذا الشرح الذى سماه « تاج العروس فى شرح جواهر القاموس » وهو مطبوع فى عشرة مجلدات ، ويتلافى نواقص القاموس فى المادة اللغوية مستعيناً بلسان العرب لابن منظور وغيره من المعاجم المطولة ، ويتوسع فى الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية ، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية .

وهذه النهضة بعلوم العربية فى اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين فى صَعْدة وفيما يتبعهم أحيانا من البلدان مثل صنعاء وَزبيد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين

(١) انظره فى فهرس الكتانى ١/١٩٨ والجبرتى ٢/١٩٦ المكتبة السلفية) ٢/٢١ .
والخطط التوفيقية ٣/ ٩ ونشر العرف لزبارة (طبع

نشروا هذه النهضة فى كل مكان . وكان العثمانيون فى أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وبتعليم العربية ، وكان الزيديون ينافسونهم فى هذا المضمار والزبيدى نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر فى اليمن وهو رمز قوى لما كانت تحظى به العربية حينئذ من نشاط خصب .

ولم يكن هذا النشاط قاصرا على اليمن والحجاز بل كان عاما فى حضرموت وعُمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولا بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأشعار ، ثم يأخذ المتعلمون قسطا من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية ، وهل من شك فى أن كل ما نقرأ من شعر وأدب فى هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية ، ونتخذ لهذه العناية مثالا هو الشيخ عبد الله البيتوشى [1] ، وأصله شهرزورى تثقف ببغداد واستوطن الأحساء حتى توفى سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهى لقطر الندى تأليف ابن هشام ، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة ، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة فى اللغة والنحو والدين . وكان فى كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية حتى نجد وقراها المتوغلة فى الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين . ويدل على ذلك مانجده فى كتاب « لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب » من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمَّى عبد الرحمن بن أحمد من أهل بُرَيْدَة إحدى القرى المتعمقة فى بوادى نجد . وإنه ليكفى من نشاط الجزيرة العربية فى هذا العصر فيما يخصّ الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجمهرة لابن دريد ، ثم أهدت مجموعة المعاجم التى خلفها الصغانى والقاموس المحيط للفيروزابادى وتاج العروس للزبيدى فنشاطها اللغوى كان نشاطا جما مثمرا .

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغى أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تنتجه بيئة عربية فى علم من العلوم يصبح حقاً مشاعاً لكل البيئات الأخرى ، ولذلك كنا نفاجأ من حين إلى حين بكتاب فى بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة فى شرح نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، تلك التى قدم بها كمال الدين ميثم [2] بن على بن مَيْثَمَ البَحْرانى المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بتبريز إذ له وراءه شرحان ، وفيه تحدث عن البيان فى النهج ووزع

---

(١) انظر فيه كتاب البيتوشى لمحمد الخال قاضى السليمانية (٢) راجع فى ميثم كتاب سليمان البحرانى عنه باسم (طبع بغداد) وكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلو السلافة البهية فى الترجمة الميثمية . ص ١٧ ومابعدها .

حديثه على ثلاث قواعد ، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعانى ، والثالثة لدراسة الخطابة ، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة .

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغى فى الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمُن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدى اليمنى يحيى[1] بن حمزة العلوى ، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول فى مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هى ، المثل السائر لابن الأثير والتبيان فى علم البيان لابن الزملكانى ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى والمصباح فى البيان والبديع لبدر الدين بن مالك ، ويشيد بعبد القاهر وكتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول : « أول من أسس فى هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين عبد القاهر الجرجانى » غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتابيه المذكورين آنفا ، إنما اطلع على شذرات منهما فى كتابات البلاغيين . وقد ذكر السكاكى مراراً ، مما يدل على أنه اطلع على كتابه « المفتاح » ويقول إن الحافز الذى دفعه إلى تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم فى البلاغة كتاباً ، فاستجاب لهم ، وأثرُ ابن الأثير والفخر الرازى والسكاكى بين فى الكتاب ، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات ، وسمى كل فرع من هذه الفروع فنا ، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز ، وسَلَكَ فى الفصاحة والبلاغة علمى المعانى والبيان . ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإتقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن . ونصوص الشعر والنثر . ويستوحى الفخر الرازى فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالتزامية ، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير . ويطيل فى الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية ، ويتضح هنا تأثره بعلم أصول الفقه . ويعرض المجاز وماهيته ويتحدث عن المجاز اللغوى أو المرسل وعلاقاته ويسمى المجاز العقلى باسم المجاز المركب وينقل عن الرازى بعض أحكام المجاز . وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد ويطيل مستضيئاً بابن الأثير فى بيان وجوه الحسن فى أفراد الحروف والكلمات . ويتحدث عن البلاغة مهتدياً بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازى من جمال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوط وبعضها غير منقوط ويذكر آراءه فى معنى

---

(١) انظره فى البدر الطالع للشوكانى ٢/٣٣١ وكتابه « الطراز » نشرته دار الكتب المصرية فى ثلاثة مجلدات سنة ١٩١٤ وراجع كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٠ .

الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى للأخيرة هو الإعجاز . ويخرج إلى بيان مواقع الغلط فى اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه . ويترك الفن الأول وهو المقدمات إلى الفن الثانى فى الكتاب ، وهو المقاصد ، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الالتزامية ، ويعرض أبواب البيان مبتدئاً بالمجاز وأنواعه من الاستعارة والكناية والتمثيل ، ويفصل القول فى الاستعارة وتعريفاتها عند الرمانى والفخر الرازى وابن الأثير ، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لها بشواهد كثيره من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر ، ويتحدث عن أقسامها على هدى الرازى وبدر الدين بن مالك ، ويجعلها عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، أما باعتبار ذاتها فتنقسم إلى حقيقية وخيالية ، وباعتبار لازمتها تنقسم إلى مجردة ومرشحة ، وباعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقبيحة ، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس لمحسوس أو معقول لمعقول . ويخرج إلى التشبيه ، ويذكر أن ابن الأثير أدخله فى المجاز ، ويفصل القول فيه ، متأثراً بالرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك ، ويجعله أقساماً : قسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف المحسوسة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام والليونة والصلابة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف العقلية . ويؤكد أن مدار الجمال فى التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المألوف . ويعود إلى تقسيمات أخرى فى التشبيه باعتبارات مختلفة ، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام : مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب ، وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طرداً وعكساً وباعتبار أداته إلى مظهر ومضمر . ويعرض الكناية وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها ، ويقف مع ابن الأثير فى عدِّها ضرباً من المجاز قائلاً إنها « اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح » ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل . وينتقل إلى الكلام عن علم المعانى ، مازجاً فيه بين مباحث الرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزملكانى ، وقد ذكر فيه – على هدى الأخير– المعرفة والنكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفى ، وأيضاً ذكر على هداه وهدى ابن الأثير صور الالتفات . وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان : قسم بالقصر وقسم بالتقرير يريد به المساواة .

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصوراً من المبالغة ، وهو فى كل ذلك يستلهم

ابن الأثير. وفصَّل القول فى علم البديع * على هدى بدر الدين بن مالك ، وجعله نوعين : نوعاً يتعلق بالفصاحة اللفظية ، وينتظم عشرين محسناً بلاغياً من مثل الجناس والترصيع والألغاز ، وعَدَّ من هذا النوع الطباق ومردّه إلى المعنى ، ونوعاً ثانياً يتعلق بالفصاحة المعنوية وينتظم خمسة وثلاثين محسناً بلاغيًّا . وينتقل إلى التكميلات الملحقة بالكتاب ، وهى الفن الثالث من فنونه ، وهو فن خاص ببيان البلاغة فى القرآن الكريم وآياته ، وهو يوضح روعة فصاحته فى حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبِّق على تعبيراته ومواطن الجمال فيها علوم المعانى والبيان البديع ، ويتحدث فى إفاضة عن إعجازه البلاغى وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية .

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوى البديعيات وهى قصائد فى مديح الرسول ﷺ تتضمن أبياتها كل ألوان البديع ومحسناته ، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح ، وتوزع على المحسنات البديعية فى أبواب متلاحقة ، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صفى الدين الحِلِّىّ المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات فى جميع الأقطار العربية . وممن شارك فى هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم[1] الحسينى من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعيته :

حُسْنُ ابتدائى بذكرى جيرة الحَرَمِ له براعةُ شوقٍ تستهلُّ دمى

وألف عليها شرحا سماه « أنوار الربيع فى أنواع البديع » وتتضمن ألفاظ الأبيات أسماء المحسنات البديعية ، وذكر فى مقدمة شرحه أسماء من سبقوه إلى نظم البديعيات والتأليف محاكيا بذلك أصحاب البديعيات وشروحها قبله .

وعلى نحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة فى الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما فى شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب لعبد[2] الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمى المكى قاضى جدة المتوفى حوالى سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح بابا لعرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنبى مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة ثم يعرض الأبيات المستهجنة فيها والمستحسنة ، ويعقد بابا ثانيا يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتنبى من الشعراء وسرقات الشعراء منه . ثم يسوق خاتمة فى

---

(١) انظره فى : البدر الطالع ١ / ٤٢٨ وأمل الآمل ص ٥٢ .

(٢) راجع مقدمة محقق الكتاب : الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح ، وما بها من مصادر عن المؤلف .

بيان وجوه من محاسن المتنبي فى إرسال الأمثال والحكم وينهيه بالثناء عليه وعلى شعره. والكتاب يدل على بصر جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحضرمى المكى وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبى قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة فى بيان محاسن شعره ومعايبه ، وهو يشيد به فى فواتح كتابه إشادة بالغة وكذلك فى تضاعيفه وفى خاتمته ونهايته . ومن أطرف صحفه الصحف التى تحدث فيها عن السرقات إذ عرض فيها أسماء شعراء متأخرين نابهين كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتى زمنه .

٤

علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام .

ما قلناه عن التراث اللغوى والنحوى والبلاغى وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام ، فهو تراث مشترك يدرس فى كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس فى كل أنحاء العالم العربى ، لا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن . ولم يكن طلاب العلم حينئذ يكتفون بأخذه عن علماء بلدهم ، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النابهين فى كل بلد وخاصة فى العراق والشام ومصر ، ليتلقوا العلم عنهم شفاها . ولا يكتفى الطالب بالرحلة مثلا إلى بغداد ولقاء علمائها ، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا فى أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد المعرفة فى علم بعينه أو فى مجموعة من العلوم .

وجعل الحجُّ والزيارةُ النبوية مكةَ والمدينةَ قبلتين للطلاب والعلماء جميعا ، على نحو ما مرَّ بنا فى علوم العربية فكان يفد عليهما أنبه العلماء فى العالم الإسلامى ، وكثيرا ما ينزلون بهما سنة أو سنوات ، وطلاب البلدتين ينهلون من ينابيع علومهم الغزيرة . ونضرب مثلا فى الفقه بالجوينى[1] عبد الملك بن عبد الله النيسابورى شيخ الإسلام العلامة الأصولى الفقيه المتكلم المتوفى سنة ٤٧٨ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا فى المدينة ولذلك سُمِّى إمام الحرمين ، وكان يدرس هناك ويفتى ويجتهد فى نشر العلم بفقه الشافعى ، وكان علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا لاسمه فى موطنه وحين نزل بغداد ولقى علماءها وناظروه ، ويقولون عنه : وقفَ علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه ، ويقول

(١) انظر مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من القسم الخاص بايران .

السبكي : «لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقة والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقا . . وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيرا ، مما جعل اسمه يطير فى الأقطار وذكره يملأ الديار» . ومن تصانيفه فى الفقه الشافعى النهاية فى الفقه ويقول السبكى : «لم يصنف فى مذهب الشافعى مثلها فيما أجزم به» ويذكر له فى أصول الدين أو علم الكلام كتاب الشامل وكتاب الإرشاد كما يذكر له فى أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى . ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه والأصول والكلام فى مكة والمدينة فحسب ، بل كان يحضره أيضا الوافدون على البلدتين من أقطار العالم الإسلامى ، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال . وعاد إلى نيسابور ، فبنى له نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوق مدرسة ليلقى بها محاضراته من مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقته تضم نحوا من أربعمائة طالب ، وحين توفى طافوا ببلده ينوحون عليه وكسروا المحابر والأقلام حزنا وجزعا . والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين ، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله ، يسمى مثلا إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى طائفة كبيرة . وكذلك غيره من كتب[1] التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الهيثمى المتوفى سنه ٩٧٣ وله شرح كبير على المنهاج للنووى ومصنفات كثيرة .

ونلتقى فى مكة بمحدث من كبار المحدثين فى العالم الإسلامى هو محب[2] الدين الطبرى المكى المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه المولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة . وهى مسقط رأسه وموطنه ، نشأ بها ، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبى الحسن على بن المقيِّر ، ومما قرأه عليه سنن أبى داود عن أبى الفضل بن سهل الإسفراييني وعن الخطيب البغدادى وسنن النسائى أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على عن البزدى عن عبد الرحمن بن محمد الدونىّ . وكانوا يدققون فيمن يذكرونهم من الحفاظ فلابد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ نابهين على نحو ما حمل ابن المقير سنن أبى داود

(١) راجع مثلاً فى إمام لحنفية بالمسجد الحرام المنهل الصافى ١/٤٠٤ هو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن على بن يوسف ، وفى إمام للمالكية العقد الثمين ٤/٣٢٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلانى المكى ، وفى إمام للشافعية العقد الثمين ١/٢٨٠ وهو الرضى الطبرى المكى ، وفى إمام للحنابلة العقد الثمين ٧/١١٩ وهو ابن الطباخ الحنبلى .

(٢) انظره فى طبقات الشافعية للسبكى ٨/١٨ والمنهل الصافى ١/٣٢٠ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٧٤ وشذرات الذهب ٥/٤٢٦ ومرآة الجنان ٤/٢٢٤ والنجوم الزاهرة ٨/٧٤ .

عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفراييني والبغدادي ، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عمن أخذه لصحة السند وللثقة بالرواية ، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة ، وقد يقولون سمعه من شيخه ، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفي أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة . وقد يجمعون الحسنيين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة ، فيقولون : سماعا وقراءة . وقرأ محب الدين الطبري صحيح البخاري على عبد الرحمن بن حرمي سبط السلفي الحافظ المشهور ، وقرأه أيضا على عمين لأبيه وأخ له . وقرأ جامع الترمذي على يعقوب بن أبي بكر الطبري وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبي الفضل المرسي ، وقرأ الأربعين للحافظ الثقفي على أبي الحسن بن الجُمَّيْزي وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلفي ، وقرأ الأربعين البلدانية على شعيب الزعفراني ، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحميدي عن ابن البَطِّي ، وقرأ على ابن العديم وريحان السُّكيني وشيخ الحرم نجم الدين التبريزي جزء الأنصاري . وكان يعنى بالفقه ، وقرأ كتاب التنبيه المشهور في الفقه الشافعي والذي ألفه أبو إسحق الشيرازي على ابن سكينة وتفقه عليه . وسمع بعض كتاب الغريب لأبي عبيدة عن شُهدة ، وهي إحدى المحدثات الكبيرات . وكأنما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التي أخذها عن العلماء ، فيعقبون على ما سبق بقولهم : وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها . والحرم المكي بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية . ونقف قليلاً عند المشايخ والأعيان الذين تتلمذوا له فمنهم القاضي جمال الدين الطبري قاضي مكة قرأ عليه في سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوي . وهذا يعني أنه كان يدرس في المدينة أحياناً .

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدوي والقطب القسطلاني المصري ثم المكي ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضي المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطي المصري المشهور وعلم الدين البِرْزالي الدمشقي المصري وقاضي مكة نجم الدين الطبري وقطب الدين الحلبي وأبو حيان الغرناطي وخلق كثير ، كما يقول مترجموه ، آخرهم وفاة عثمان بن الصفي الطبري ، وآخر أصحابه بالإجازة الشهاب الحنفي . وأساتذته وتلامذته هم أعلام الحديث في عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة ، غير من انتفع به في الفقه الشافعي ، واستدعاه المظفر السلطان الرسولي مرَاراً ، وسمع عليه بعض مروياته وتآليفه ولابد أنه كان يلقي في أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بزبيد . ونقف مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة ، منها في الحديث كتاب الأحكام

الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها ، وهو فى خمسة أجزاء ، وكتاب الأحكام الوسطى مجلد كبير ، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر ، وكتاب المحرر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين ، واختصره فى كتاب سماه العمدة ، وكتاب الرياض النضرة فى فضائل العشرة المبشرين بجنة الرضوان مجلدان وهو مطبوع ، وكتاب ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، وكتاب السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ، وتقرب المرام فى غريب القاسم بن سلام ، وكتاب القِرَى من ساكن أم القُرى جرد فيه أحاديث المناسك من الكتب الستة وغيرها ، وغاية بغية الناسك من أحكام المناسك ، وصفة حجة النبى ﷺ على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها ، غير كتب أخرى .

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبيه لأبى إسحق الشيرازى فى عشرة أجزاء ونكت كبرى عليه فى أربعة أجزاء وكتاب المسلك النبيه فى تلخيص التنبيه ، وكتاب مختصر المهذب ، مجلدان . ومما يتصل بالقرآن الكريم : القبس الأسنى فى كشف الغريب والمعنى ، والكافى فى غريب القرآن ، وكتاب التحفة المدنية ، وكتاب مرسوم المصحف العثمانى المدنى . وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهروردى . ومحب الدين الطبرى ، بهذا كله رمز كبير لتلك الحركة العلمية التى كانت منبثة فى الحجاز والتى كان شررها يتطاير إلى جميع البيئات فى الجزيرة العربية . ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها ، وخاصة فى رواية الحديث ، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيوخ ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سيرى عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها يروى جلّة العلماء عنهن الحديث النبوى .

وطبيعى أن تنشط دراسة التفسير فى مكة مع دراسة الحديث ، وقد رأينا محب الدين الطبرى يجانب عمله فى الحديث يخدم التفسير خدمات كبيرة ، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفى قبل إتمامه . وقد صُنِّف بمكة تفسير من أعظم التفاسير ، صنفه الزمخشرى فى أثناء مجاورته بها وهو « الكشاف » ومع أنه ضمنه آراءه الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعته ، ويلقبه الفاسى المالكى بأنه « الإمام الكبير فى التفسير . . كان إمام عصره غير مدافع » ويقول ابن خلكان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله . وكان يمليه فى مكة على الطلاب ، وممن رواه عنه قاضيها أبو المعالى يحيى ابن عبد الرحمن الشيبانى ، أخذه عنه بالحرم المكى الشريف ، وظل العلماء بعد الزمخشرى يعنون بالكشاف فى التفسير ، كما يعنون برواية كتب الزمخشرى المشهورة وإلقائها على

الطلاب والطالبات بالحرم المكى ، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشَّعْرية خاتمة الرواة عن الزمخشرى وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه ، ويقول الفاسى فى العقد الثمين من طريقها وقع لنا حديثه .

ومنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته فى الحرمين المكى والمدنى ، ويختار ابن مجاهد فى القرن الرابع قراءة ابن كثير التى كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التى كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره ، وظلت قراءة كل منهما تتداول فى بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل ، وتلقانا فى كتاب طبقات القراء لابن الجزرى أسماء طائفة منهم مثل أبى يحيى المكى المتوفى سنة ٣٤٤ وأبى عبد الله البلخى المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكتظ كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء فى مكة والمدينة . وكانتا دارين للقراءات وعلوم الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن له بهما كبير شأن .

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقه فيها نشاطاً من قديم منذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثورى وابن عُيَيْنة ، وخلفه تلميذة عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روى الحديث أحمد بن حنبل وغيره ، وخلفه أبو قرة موسى بن طارق . وكان الغالبُ فى اليمن حتى القرن الثالث مذهبى أبى حنيفة ومالك ، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعى ، وفى مقدمتهم موسى بن عمران الَمعَافِرىّ وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقه الشافعى . ويقول الجعدى فى كتابه «طبقات فقهاء اليمن» : وخلف هذا الجيل إمام أئمة الشافعية فى صنعاء وعدن القاسم بن محمد القرشى المتوفى سنة ٤٣٧ وهو الذى نشر مذهب الشافعى فى مخلاف الجَند وفى صنعاء وعدن وَزبيد ، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقة علم القراءات . وكان يعاصره الصعبى أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر المزنى المصرى صاحب الشافعى – كما يقول الجعدى – فى أربع سنوات مقابلاً الكعبة الشريفة . ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعى وبيان مذهبه . ولما ألف أبو إسحاق الشيرازى كتابيه : المهذب والتنبيه فى الفقة الشافعى ، وأخذهما عنه حسين بن على الطبرى وأبو نصر البندنيجى وسكنا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنهما الكتابين ، كما حملوهما عن تلميذه محمد بن عَبْدويه الذى سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زَبيد ، وكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدى . وينشط الفقه الشافعى أو المذهب الشافعى فى الفقه بتهامة وزبيد نشاطاً واسعاً ،

ويكثر فقهاؤه ، ومن أهمهم يحيى[١] بن أبى الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ وقد تفقه على جماعة ، منهم خاله أبو الفتوح بن عثمان العمرانى وزيد بن عبد الله اليفاعى ، وقد قرأ كتاب التنبيه للشيرازى على موسى بن على الصعبى ، وحفظ كتاب الشيرازى : «المهذب» على عبد الله بن أحمد الهمدانى ، وكذلك كتابه «اللمع» وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايشى تعليق الشيخ الشيرازى فى أصول الفقة مع ملخصه ، وحضر دروس فقهاء كثيرين ، وقرأ على القاضى مسلم بن أبى بكر الصعبى كتاب الحروف السبعة فى علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفة الحسين بن جعفر المراغى ، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذى ، ومما قرأه ونصَّ عليه الجعدى شروح المزنى والمجموع للمحاملى والشامل لابن الصباغ والفروع لسليم وشروح المولدات لأبى الطيب والعدة للقاضى حسين بن على الطبرى تلميذ الشيرازى كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبى على السِّنجى وكتاب التبصرة لأبى الفتوح على مذهب السلف الصالح .

وكان الفقهاء فى اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية ، وكان يحيى بن أبى الخير يختار مذهب أهل السنة ويناظر الفقهاء فى مذهب الأشعرى المتكلم . وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبى حنيفة ، وله مصنفات مختلفة ، من أهمها فى الفقه الشافعى كتابه الزوائد ألفه فى أربع سنوات وكتابه البيان ألفه فى ست ، وكتابه استخراج المسائل المشكلة فى المهذب .

ومن الطريف أن الجعدى فى كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالى ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا فى بيت بعينه ، من ذلك أسرة بنى أبى عَقامة ، ويقول عنهم الجعدى : «وفضائل بنى أبى عقامة مشهورة ، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعى فى تهامة» ومن أهمهم أبو الفتوح[٢] عبد الله بن محمد بن على بن أبى عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ تفقه على جده على وعلى أبى الغنائم الفارقى ، وله مصنفات جيدة منها كتاب الحنائى وفيه نفائس حسنة ، قال النووى : لم يسبق إلى تصنيف مثله . وعقد العماد الأصبهانى لهذه الأسرة فصلاً فى الخريدة ، ويقول الجندى فى كتابه السلوك عن أحدهم ، وهو القاضى أبو محمد الحسن بن أبى عقامة : «له كتاب نوادر مذهب أبى حنيفة التى يستشنعها أصحاب الشافعية» وقد صار هذا الكتاب فى اليمن قليل الوجود ، لأن الحنفية

---

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدى (طبع القاهرة) ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للسبكى (الطبعة الثانية) ٧/ ٣٣٦ وشذرات الذهب ٤/ ١٨٥ .

(٢) انظره فى طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والسبكى ٧/ ١٣٠ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٦٢ وقسم الشام من كتاب الخريدة للعماد الأصبهانى ٣/ ٢٤٦ .

اجتهدت بتحصيله وإذهابه [١] » .

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم فى القرن الخامس فى اليمن القاضى محمد بن أبى عوف ، ويعقد لهم الجعدى فصلاً قصيراً فى كتابه يذكر أسماء طائفة منهم ، ويقف عند القاضى المذكور ، ويقول إنه صنف كتاباً بعنوان « القاضى » وهو مشهور فى اليمن والعراق عند الحنفية . واشتهر منهم فى القرن السابع أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاش [٢] المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رياسة الحنفية فى اليمن ، ويقال : لو لم يوجد لمات مذهب أبى حنيفة هناك ، إذ حمل السلطان نور الدين الرسولى على بناء مدرسة للحنفية بزبيد وكان قد بنى بها مدرسة للشافعية .

وكان يقابل فقه الشافعية فى تهامة وزَبيد فقه الزيدية فى صَعْدة من قديم . وكان الأئمة الرسّيون كلما غلبوا على بلد فى اليمن حاولوا أن يشيعوا فيه مذهبهم ، حتى إذا تمت لهم الغلبة فى العصر العثمانى أشاعوا مذهب الزيدية ، غير أن مركز الشافعية فى زبيد وتهامة ظل ثابتاً إلى اليوم . ومعروف أن الفقه الزيدى نشأ مبكرا . فإن زيد بن على زين العابدين بن الحسين المقتول سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذى أرسى قواعده فى كتاب فقهى له اشتهر باسم المجموع الفقهى [٣] ، وهو أساس الفتوى والأحكام القضائية عند الزيدية ، وقد طُبع فى القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم الروض النضير للحسين الخيمى فى أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضا بشرح شرف الدين السباعى . والشرحان مطبوعان فى القاهرة . وعُنى أئمة الزيدية فى اليمن – منذ تأسيس الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين دعوتهم – بهذا الكتاب فهو عمدتهم فى الفقه والتأليف فيه ، وللإمام الهادى كتاب يسمى كتاب جامع [٤] الأحكام فى الحلال والحرام . ويتكاثر تأليف أئمة الزيدية لكتب الفقه فى اليمن ، ونذكر من كتبهم أطرافا . فمن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، له فتاوى كثيرة مجموعة . ومن ذلك الإمام محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المنهاج الجلى شرح مجموع الإمام زيد بن على . ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة صاحب الطراز الذى تحدثنا عنه فى النشاط البلاغى له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار فى ثمانية عشر جزءاً . ومن ذلك الإمام المهدى أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طُبع مع تخريج أحاديثه فى خمسة أجزاء ، وله أيضا كتاب

---

(١) كتاب (السلوك – النكت) للجندى ص ٦٣٢ .

(٢) العقود اللؤلؤية للخزرجى ١ / ١٥٥ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الطبعة العربية) ٣ / ٣٢٣ .

(٤) بروكلمان ٣ / ٣٢٨ .

الأزهار فى فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحا سماه « الغيث المدرار » . وهناك كثيرون من علماء الزيدية ، من الأمراء وغيرهم ، تعمقوا فى الفقه الزيدى وألفوا فيه وحوله كتبا ومصنفات مختلفة ، ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية فى القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حينئذ ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » فى أربعة مجلدات ، واختصره فى كتابه « الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم » وهو مطبوع .

وبجانب هذا النشاط الفقهى فى اليمن كان هناك نشاط واسع فى علم الحديث ، وهو يبدأ فى الحديث كما بدأ فى الفقه بمعمر بن راشد فله الجامع المشهور فى السنن ، ونمضى بعده فى كتاب طبقات فقهاء اليمن فنجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعانى كتاب المنتقى فى السنن ، وقلما يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حُمل عنه الحديث ، وكثيرا مايقول الجعدى عن هذا أو ذاك إنه سمع صحيح البخارى ، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذى أو صحيح مسلم أو سنن أبى داود أو سنن النسائى . ومن حين لآخر نجد الجعدى يبعث الفقيه الذى يترجم له بأنه الحافظ المحدث ، أو يقول سيف السنة . وبنفس النشاط فى هذه الرواية للحديث كانت بيئة الزيديين تنشط فى روايته وللإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب فى الحديث يسمى الشفاء ، وللإمام القاسم المتوفى سنه ١٠٢٩ فى الحديث كتاب الاعتصام .

وعُنيت اليمن بالتفسير والقراءات كما عنيت بالحديث والفقه ، وكان فيها من المفسرين قديما طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس . وهو باب هذه الحركة ، ومضى اليمنيون بعده يعنون بكتب التفسير ، حتى إذا ظهر تفسير الطبرى أقبلوا على تداوله ، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه . ومر بنا نشاط الفيروزابادى لعهد الرسوليين فى هذا الاتجاه . ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به ، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غريب القرآن المجيد ، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه ، وذكر للإمام الهادى مؤسس العقيدة فى اليمن تفسيرا لبعض سور الذكر الحكيم . ولأبى الفتح الديلمى المتوفى سنه ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد ، وللإمام المهدى محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن . ولعل أروع تفسير صنفته اليمن فى عصورها جميعا على الإطلاق تفسير محمد[1]

(١) انظره فى كتابه البدر الطالع ٢١٤/٢ وترجم له ابن زبارة فى كتابه (نيل الوطر من تراجم اليمن فى القرن الثالث عشر» وقال إنه أستاذه .

ابن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م سماه «فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية فى التفسير» وكان قد بدأ حياته زيديا ونزع إلى الدعوة الوهابية ، وهو يعد إماما مجتهدا ، وله عشرات المصنفات فى الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة .

واهتمت اليمن من قديم بالقراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرة موسى بن طارق الذى حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التى كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها فى اليمن ، ومن أعلام القراء هناك زيد[١] بن الحسن الفايشى المتوفى سنة ٤٥٨ وكان عالما بعلوم كثيرة ، منها التفسير ، ومنها القراءات أخذها عن أبى معشر الطبرى بمكة ، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن ، وعليه تفقه يحيى بن أبى الخير المار ذكره . ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزرى فى طبقاته ابن شداد البرعى على بن أبى بكر الزبيدى شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزبيد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث ، توفى سنة ٧٧٠ وخلفه أحمد بن محمد الأشعرى العبدلى شيخ زبيد فى القراءات ، ويقول ابن الجزرى : لما دخلت اليمن لازمنى كثيرا وسمع منى نصف كتاب النشر وكتبا أخرى ، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر[٢] . ومعروف نشاط ابن الجزرى فى القراءات ، ولاشك أن اليمن أفادت منه كثيرا . وهذا النشاط فى القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية .

وعنيت اليمن فى هذا العصر بالمباحث الكلامية ، وظلت عنايتها بها متصلة ، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين منزعان : منزع أشعرى ومنزع أهل السنة ، وكانت الكثرة تنزع المنزع السنى ، ونجد ذلك واضحا فى تأليف الكتب التى تعنى بنقض آراء المعتزلة ، مثل «كتاب الحروف السبعة فى الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة» للمراغى [٣] ومثل كتاب يحيى بن أبى الخير الذى تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء ، وقد جعل عنوانه : «الانتصار فى الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» وفى مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، أحد علماء الزيدية ، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأى المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم ، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم . وحاول يحيى بن أبى الخير تفنيد آرائه الاعتزالية ، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول ﷺ فى التحذير من القدرية . ولم يكد يقرأ رسالته شمس

---

(١) راجع ترجمته فى طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ والسبكى ٧/ ٨٥ .

(٢) غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ١٠٣ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣ .

الدين حتى نقضها بكتاب سماه « الدامغ للباطل من مذهب الحنابل » فأثار حفيظة يحيى ابن أبى الخير ، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا ، وأضاف إلى المعتزلة فى الكتاب الأشعرية وأجحف بهم ، مما جعل الشريف العثمانى الأشعرى يناظره ويجادله فى مذهب الحنابلة أهل السنة [١] .

ومعروف أن زيد بن على زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسه تتلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا ينتظمون فى المعتزلة ، مما جعل الاعتزال يستقر فى مباحثهم ، كما جعلهم يكثرون من هذه المباحث ، ومن يرجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسى جد الإمام الهادى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونفى الجبر والتشبيه ، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضى عبد الجبار أكبر معتزلى فى نهاية القرن الرابع الهجرى شرحا مطولا ، وللإمام الهادى كتاب المسترشد فى التوحيد ، وللإمام المهدى المتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر فى التوحيد . وتتوالى كتب كلامية كثيرة فى بيئة الزيدية ، من ذلك شرح القلائد فى علم الكلام للإمام المهدى أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس فى علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩ . ولم تؤلف هذه البيئة فى الاعتزال وحده ، بل ألفت أيضا كتبا فى رجاله ، وكتاب ابن المرتضى فى المعتزلة مشهور .

ولم تكن حَضْرَمَوْت بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية فى اليمن والحجاز ، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يفدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقينه ، ويلقانا منهم كثيرون فى كتب التراجم ، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم فى تَرِيم وشِبام وغيرهما من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت فى تلقينه للشباب . وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين ، بل منهم من كان يرحل فى طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد ، ويعود محملا بالكتب وبالإجازات العلمية التى تتيح له روايتها ونشرها . ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعى اليمنى المتوفى سنه ٥١٤ كان يغصّ بالفقهاء من حضرموت [٢] ، ويذكر الجعدى من تلاميذ الفقيه يحيى بن أبى الخير الذى مر بنا فى الحديث عن فقهاء اليمن محمد [٣] بن عبد الله الحضرمى من تَرِيم حاضرة حَضْرَموت وأيضا محمد بن مفلح الحضرمى وهو الذى طلب إليه تأليف كتابه

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ - ١٨٠ .
(٢) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ .

« استخراج المسائل المشكلة فى المهذب » لأبى إسحق الشيرازى وأجابه إلى طلبه[١] .

ويذكر الجعدى من فقهاء حضرموت أبا زُنَيج وأبا جحوش وأبا أكدر قاضى تَريم وقد جمع بين الفقه والقراءات السبع [٢] ، وفى كتاب الجعدى فقيهان من شبْوة بحضرموت هما عيسى بن مفلح وأحمد[٣] بن سليمان . ويقول المؤرخون إنه قُتل كثير من فقهاء حضرموت وقُرَّائها فى الحملة التى وجهها نائب توران شاه من عدن إلى حضرموت . ويشيد السبكى بقطب[٤] الدين الحضرمى شارح المهذب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول « تفقه به خلائق » وله مصنفات كثيرة . وفى ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك . وكانوا يعنون إلى جانب ذلك بالحديث والتفسير . ويحدثنا السقاف فى كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيرين ترجم لهم ، نذكر منهم ابن عقبة المتوفى فى عدن سنة ٦٩٥ وعلى بن أبى بكر السقاف المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلى بن عبد الرحيم باكثير المتوفى سنه ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢ . وممن ذكرهم السقاف من المحدِّثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتعز فى سنة ٨٨٩ وقد رحل إلى اليمن ومكة وكان يقرأ للناس الصحيحين ، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧ . وكثيرا ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون . وممن نعتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن ابن على السقاف المتوفى سنة ٩٢٣ . ومن مقرئيها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبى مشيرح الحضرمى المجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد فى القراءات الثمان ، وقد أشاد به وبكتابه ابن الجزرى ، وقال إنه توفى فى سنه ٥٦٠ وإنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ المصريين[٥] وممن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢ وقال : له مختصر نهاية الناشرى فى القراءات وشرح الجزرية . ويذكر السقاف ممن عنوا بعلم الكلام شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٩٠ ويذكر له مصنفات فى علم التوحيد ، وكان المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة .

وهذه الصورة من النشاط العلمى لحضرموت هى صورة ظَفار وعمان والبحرين ، ونجد لظفار فقيها ينسب إلى ميناثها مرباط هو مفتيها محمد بن على القلعى ، ويقول الجعدى : له مصنفات حسنة ، منها قواعد المهذب وغيره[٦] . ولا ريب فى أن النشاط العلمى فى دراسة

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ص ٢٠٢ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكى ٨ / ١٣٠ .

(٥) انظر طبقات القراء لابن الجزرى ٢ / ٤٦ وكتابه : « النشر فى القراءات العشر ١ / ٩٣ .

(٦) الجعدى ص ٢٢٠ .

الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدما فى عُمان لزمن بنى مكرم وبنى نبهان ، أما فى نزوى عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عمان فى العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره ، وقد عنوا طويلا بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدى الإباضى المتوفى سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المسانيد المعروفة فى الحديث النبوى ، وانصبَّت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف فى عقيدتهم الإباضية . وفرقتهم ، كما قدمنا ، أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربها إلى الجماعة ، ونَصْبُ إمام المسلمين عندهم واجب ، وتجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره ، فإن جار ولم يتب وجبت الثورة عليه ، ومر بنا حديث عن عقيدتهم فى الفصل الماضى .

وكانت البحرين مثل عُمان نشطة فى دراسة علوم الدين الحنيف ، وكانت تدخل فى دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة ، فكان طلابها وعلماؤها لا يزالون ذاهبين آيبين من العراق وإليه . وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين ، ويتخذها مقاما له وموطنا ، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر . وكانت علوم الشريعة مطروحة فى كل مسجد ، وظلت حلقاتها قائمة ، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغوية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك ، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصر وله مصنفات مختلفة فى المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للتفتازانى وكتاب إيساغوجى[1] وشاع هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلى مع الوهابيين ، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة . ومنذ دخلت الأحساء فى المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمَّت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف ، غير أن هذا لا يدخل فى عصرنا إنما يدخل فى العصر الحديث .

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة فى البلاد العربية ، فقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس فى قرى نجد ، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة ، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد فى قريته تَريم ست عشرة سنة ، وأنه قرأ عليه فيها صحيحى البخارى ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التميمى فى قرى القَصِيم حيث تتلمذ عليه فى علم الفقه والتفسير سبع سنوات . ورحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى العراق

---

(١) ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٨ .

وتتلمذ على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود ، كما مر فى الفصل الماضى ، على نشر عقيدته . وهى ليست عقيدة جديدة بل هى عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية . وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته فى محاضراته ومؤلفاته ، ومرَّ بنا كتاب التوحيد ، ومجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكبائر ومعرفة العبد ربه ودينه ونبيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكتاب المسائل وكتاب الثلاثة الأصول فى معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية . وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها : جواب أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والزيدية لعبد الله ابنه ، ولسليمان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد . واتسع التأليف فى الدعوة مبكرا وراء نجد ، إذ نجد محمد بن على الشوكانى اليمنى يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار .

٥

التاريخ

نشطت كتابة التاريخ فى الجزيرة العربية كما نشطت فى كل بلد عربى ، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط فى الحجاز ، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرقى «أخبار مكة» وهو كتاب مبكر . وأهم المصنفات التى تلقانا عنها فى هذا العصر مصنفات الفاسى[1] أبى الطيب محمد بن أحمد الحسنى المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكوَّن علمياً حتى أصبح من علمائها الأفذاذ ، وسرعان ما تحول مدرساً يفيد الطلاب من علمه . وتقلد منصب شيخ الحرم المكى إلى أن توفى سنة ٨٣٢ وعنى بتاريخ مكة ، فصنف فيها كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» فى مجلدين ، وهو مطبوع ، وأهم منه كتابه «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين» الذى ترجع إليه ، وهو فى ثمان مجلدات ، افتتحها بالحديث عن مكة تاريخيًّا وجغرافيًّا ثم أجمل السيرة النبوية ، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئاً بالمحمدين ، ولم يترك حاكماً ولا عالماً ولا مؤذناً ولا مجاوراً بمكة ولا شاعراً إلا أسهب فى الترجمة له ،

---

(١) انظره فى الضوء اللامع ١٨/٧ والشذرات فيه انظر ٣٣١/١
١٩٩/٧ ومقدمة كتابه «العقد الثمين» وقد ترجم لنفسه .

وهو بذلك تاريخ كامل لمكة : سياسى وثقافى وأدبى وحضارى . وللديار [١] بكرى المكى المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان «الخميس فى أحوال أنفس نفيس» فى مجلدين كبيرين ، طبعت مراراً ، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة . وكان يعاصره قطب الدين [٢] النهروالى المكى ، وكان مفتياً ومدرساً ، إلى أن توفى سنة ٩٩٠ وله «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه فى عهد العثمانيين ، طبع مراراً . ولمكة مؤرخ عام هو عبد الحى [٣] بن العماد الحنبلى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة . ومن مؤرخى مكة المتأخرين أحمد زينى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ/١٨٨٦م وله : «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» .

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفى مقدمتهم محمد بن الحسين بن زبالة الذى ألف كتاباً فى تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخى العصر الذى نحن بصدده ، بل قل من أشهرهم نور الدين السمهودى [٤] المصرى المجاور بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، والكتاب دائرة معارف كبيرة فى جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طُبع بمصر فى مجلدين وطبع مختصر له باسم « خلاصة الوفا» . ومن مؤرخى المدينة ابن خضر المدنى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وله مخطوطة فى طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية . وجاء بعده جعفر البرزنجى [٥] المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوى ، طبعت بمصر مراراً منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل .

وتكتظ اليمن بالمؤرخين ومصنفاتهم التاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوى الذى صنف كتاباً فى سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتاباً فى أخبار المنصور بالله القاسم الرسىّ المتوفى سنة٣٩٣ للهجرة . وتنشط الكتابة التاريخية باليمن ، ويلقانا من مؤرخيها جياش بن نجاح أمير زبيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب «المفيد فى أخبار زبيد» فُقد ولم يصل إلينا ، غير أن عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ اختصره فى

(١) راجعه فى الشذرات ٨/٤١٩ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظره فى الشذرات ٨/٤٢٠ والنور السافر ص ٣٨٣ والبدر الطالع ٢ / ٥٧ .

(٣) راجعه فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ٢/٣٤٠

(٤) انظره فى الضوء اللامع ٥/٢٤٥ والشذرات ٨/٥٠ والبدر الطالع ١/٤٧٠ .

(٥) راجعه فى سلك الدرر ٢/٩ والجبرتى ١/٣٦٣ .

كتاب سماه « مختصر المفيد فى أخبار زبيد » وقد طبع فى القاهرة . وبشهر عمارة [١] بكتاب له فى تاريخ اليمن نشره كاى ثم نشر فى القاهرة ، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره ، وله كتاب سماه « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » تحدث فيه عن الوزراء فى آخر العهد بالفاطميين ، وهم طلائع بن رزيك وشاور والكامل ابنه ، وطُبع هذا الكتاب بشالون فى آخر القرن الماضى وطبع معه ديوانه . ومرَّ بنا ذكر طبقات فقهاء اليمن مراراً ، وهو لعمر[٢] بن على بن سمرة الجعدى المتوفى لأواخر القرن السادس الهجرى . وللقاضى حميد [٣] بن أحمد المحلى المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما « الحدائق الوردية فى سير الأئمة الزيدية » و « محاسن الأزهار فى فضائل العترة الأخيار » ومن مؤرخى اليمن الجندى [٤] بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله « السلوك فى طبقات العلماء والملوك » ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف ، ومرَّ بنا ذكر السلطان الأشرف الرسولى وكتبه . وللسلطان الأفضل عباس [٥] الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب « العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية » . ومن مؤرخى اليمن اليافعى عبد الله بن أسعد بن عفيف نزيل مكة المجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان فى التراجم العامة وهو مطبوع . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الحسن الخزرجى [٦] المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدِّثين فى عصره وقد رتب كتابه ترتيباً زمنياً محكماً ، وترجم للسلاطين الرسوليين ترجمات دقيقة . وهو لا يعرض فى الكتاب التاريخ السياسى فحسب بل يعرض أيضاً التاريخ الثقافى والحضارى عرضاً مفصلاً ، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين . وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن الدَّيْبع [٧] أبو عبد الله عبد الرحمن الزبيدى ، وكان محدثاً كبيراً درس الحديث فى الجامع الأعظم بزبيد وتوفى سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة ، منها قرة العيون بأخبار اليمن الميمون

---

(١) انظره فى ابن خلكان ٣/ ٤٣١ والخريدة قسم الشام ٦/ ٢٥٧ وفى هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص ٨٨ .

(٢) انظر فى التعريف به وبكتابه مقدمة المحقق له : فؤاد السيد .

(٣) تاريخ اليمن للجرافى ص ١٢١ .

(٤) انظره فى إعلان التوبيخ للسخاوى ص ١٢٤ ويعتمد عليه الخزرجى فى كتابه العقود اللؤلؤية .

(٥) راجعه فى العقود اللؤلؤية للخزرجى وفى الشذرات.

(٦) انظر ترجمته فى الضوء اللامع ٥/ ٢١٠ والشذرات ٧/ ٩٧ .

(٧) انظر فى ابن الديبع ترجمته لنفسه فى آخر كتابه بغية المستفيد والدر السافر ص ٢١٢ والشذرات ٨/ ٢٥٥ والبدر الطالع ١/ ٣٣٦ والكواكب السائرة ٢/ ١٥٨ .

حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخزرجي فى دولة الرسوليين ، ثم أضاف إليه دولة بنى طاهر التى خلفتهم ويعد أول من عُنى بالتاريخ لها . ومن كتبه التاريخية بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد وهو يعرض تاريخها مفصلاً حتى المائة التاسعة للهجرة . ومن الكتب الجيدة التى ألفت فى القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن) . وتلقانا بعـــــده كتب كثيرة فى أئمة اليمن وفى الحكام العثمانيين ، من ذلك ماكتبه الجرموزى المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم ، وقد سماه « الجوهرة المضية فى تاريخ الخلافة المؤيدية » وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتاباً سماه « النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة » . وصنَّف يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمنى فى أواخر القرن الحادى عشر تاريخاً لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أنباء الزمن فى أخبار اليمن » . وليوسف بن يحيى الصنعانى المتوفى حوالى سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب « نسمة السحر فيمن تشيَّع وشعر » ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره . ولمحمد بن على الشوكانى العالم النابه كتاب فى التراجم لمن بعد القرن السابع حتى عصره فى القرن الثالث عشر سماه « البدر الطالع » وهو أحد المراجع التى يتكرر ذكرها فى هذا الجزء . وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل منتخبات فى أخبار اليمن للهمدانى ، ومثل النور السافر فى تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذيَّل عليه جمال الدين الشلى الحضرمى بكتاب سماه « السناء الباهر بتكميل النور السافر » .

ولنجد كتب تاريخية مختلفة فى الحقب المتأخرة منها « روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام » لحسين بن غنام الأحسائى المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال فى سبيل الدعوة ، وهو يكثر من السجع فى كتابه . ويليه فى الأهمية كتاب عنوان المجد فى تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م وهو تاريخ على السنوات يبتدئ بسنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وينتهى بسنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م أى من حين نزول محمد بن عبد الوهاب فى « الدرعية » ووضع الأمير محمد بن سعود يده فى يده لنصرته حتى وفاة فيصل بن تركى . وضمن الكتاب أحداثاً سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم فى الدرعية بمنتصف القرن التاسع للهجرة ، وأسلوب الكتاب مرسل خال من السجع . ويلى الكتابين السالفين فى الأهمية كتاب « عقد الدرر فيما وقع فى نجد من الحوادث فى آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو يبتدئ من حين انتهى ابن بشر سنة ١٢٦٨ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ موزعاً حديثه التاريخى على السنوات .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر على كل لسان

ظل الشعر حيا يجرى على الألسنة فى الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نبع قديماً وأن ينابيعه كانت تمتد فى شمالى الجزيرة وشرقيها وغربيها ، أو قل فى الجزيرة جميعها ، باستثناء اليمن فى العصر الجاهلى أوبعبارة ادق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت فى التعرب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر فى اليمن بإزاء الحجاز وفى نجران وفى حضرموت وبين أزد عُمان . وتم تعرب اليمن سريعاً بعد الإسلام أو قل تم تعرب ما كان قد بقى منها يتحدث الحميرية .

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذى نؤرخ له والذى يبتدئ بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء فى كل أنحاء الجزيرة ، وكانت الحجاز – وخاصة مكة – دارا كبيرة للشعر والشعراء ، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها وأمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواماً طويلة فحسب فإن ذلك أكثر من أن يحصى أو يستقصى ، بل أيضاً أشعار الشعراء من أهلها الذين ولدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها . وكانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ويقيم فيها بين ظهرانيهم . فكان ذلك غذاء سائغاً لشاعرياتهم . وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة . ولا بد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هى نفس لغتهم اليومية ، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة فى القرنين الثانى والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لنزول كثير من الموالى بهما ومعيشتهم فيهما ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر الإسلامى أن عدد القتلى من الموالى فى موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا

من الأعاجم . ولابد أن الأعاجم بمكة كانوا أكثر من سكانها الأصليين فى هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاماً ، فما بالنا فى هذا العصر؟ إن المعقول الذى يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب فى المدينتين المقدستين زادت زيادة كبيرة ، وهى زيادة أعدت فى هذا العصر لشيوع لغة عامية متداولة على ألسنة العامة ، لغة تكثر فيها الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، ويكثر فيها التحريف فى مقاطع الكلمات ونبراتها . وعلى الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره ، وكان هناك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس ، وكان الحَرمان جامعتين كبيرتين تدرس فيهما جميع مواد الثقافتين الإسلامية والعربية ، وكان وراءهما مدارس وكتاتيب ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة ، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربى الفصيح .

ولم تكن العناصر الأجنبية فى اليمن كثيرة . ومع ذلك كان ينزلها الأحباش والإفريقيون بكثرة ، ومرَّ بنا أن الأحباش كونوا لأنفسهم فى حقبة إمارةً فى زَبيد ، وكان ينزل فى عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين ، ويبدو أن العناصر الإفريقية – وهى الكثيرة – كانت تتعرب سريعاً . وليس معنى ذلك أنه لم تتكون فى اليمن على مر الزمن لغة عامية ، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة ، حتى القرن السادس الهجرى على الأقل فى بعض أنحائها ، فعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ للهجرة يحكى فى كتاب المفيد فى أخبار زَبيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زَبيد فى سنة ٥٣٠ ليطلب الفقه وهو دون العشرين من عمره تعجب الفقهاء فى جميع المدارس التى ألمَّ بها فى تلك البلدة من أنه لا يلحن فى شىء من الكلام ؛ ومن قوله : « وجبلا عُكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلهما باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم . . ولما زارنى والدى وسبعة من إخوتى فى زبيد تحدَّثوا مع الفقهاء فلا والله ما لحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتوها عليه»[1] . ويتضح من كلام عمارة أن المدن اليمنية مثل زبيد كان أهلها يلحنون فى لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجرى ، أما تهامة والبوادى وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقاً سليماً . ويبدو أن أنحاء كثيرة من اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظاً صحيحاً ، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها فى بعض تلك الأنحاء حديثاً غير ملحون ، إذ يقول صاحب المخلاف السليمانى إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير فى هذا المخلاف الذى يطلق عليه الآن اسم عَسير ، وقد ضُمَّ إلى

(١) المفيد فى أخبار زبيد ص ٥٤ .

المملكة العربية السعودية بأخرة ، ويصور ذلك تصويراً مسهباً فؤاد حمزة إذ يقول : «أفصح اللهجات (فى الجزيرة) وأقربها إلى الفصحى فيما نعتقد اللهجات الواقعة ما بين جنوبى الحجاز وشمالى اليمن (عَسير) وكثيراً ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من مخارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصيح من سواه . وبعض البدو من أهل هذه المنطقة يخرجون جُمَلا يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا فى المدارس على إخراجها على ذلك النحو بينما أن الحقيقة هى بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ، فيجىء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظنها فى الأقطار العربية المتمدنةمهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البداهة»[1] .

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية الأخرى، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة ، ولكنها على كل حال أخذت فى إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجرى . كما يدل كلام عمارة السابق فقد عجب فقهاء زبيد من أنه يوجد فى بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يخطئهم السداد فيها ، مما يدل بوضوح على أن اللحن كان قد فشا على ألسنة أهل المدن ، وأخذت تتكوَّن بسرعة هناك لغة يمنية عامية . وكان ثراء اليمن عاملاً مهماً فى أن يعنى حكامها بالعربية وبالعلوم الإسلامية ومرَّبنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم فى اليمن ، وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة فى زَبيد وتعزّ وصنعاء وعَدن ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة فى اليمن وأن تظل الأشعار تجرى على الألسنة . غير أنه يلاحظ أنه أخذت تُنْظَمُ هناك ، كما كان الشأن فى البلاد العربية الأخرى أشعار عامية . ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط ، وإذا احتكمنا إلى تاريخ أول أغنية عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم فى كتابه النفيس : «شعر الغناء الصنعانى» وجدنا هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وهى للشاعر شهاب الدين أبى محمد أحمد بن فُلَيْته . وقد اشتهر زمن السلطان الرسولى المجاهد على الذى حكم من سنة ٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ ويسهب الدكتور غانم فى بيان خصائص هذه الأغانى اليمنية العامية من زمن ابن فليتة إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى . ويقول إنها جميعاً من الشعر الحُمَيْنى وهو اسم خاص بالشعر العامى اليمنى الذى لا يلتزم قواعد الفصحى النحوية والاشتقاقية ، كما لا يلتزم عروضها وتكثر فيه المسمَّطات والموشحات ، وتبدو المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية . ويوضح الدكتور غانم

(١) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٩٩ .

توضيحاً مفصلاً كيف أن هذا الشعر الحُمَيْنى أو العامى اليمنى يرتفع فى لهجته عن اللغة اليمنية العامية ويهبط فى الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصحى . وهو بذلك يُعَدّ فرعاً كبيراً من شجرة الشعر النبطى الذى أخذ يشيع فى الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجرى ، بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد . وهو شعر يلقانا فى كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر ، نلقاه فى الحجاز وحضرموت وفى عمان والبحرين ونجده جنوباً وشمالاً . وجميعه شعر يعلو درجات فوق العامية لكل تلك الأقاليم ويهبط درجات عن الفُصحى ، شعر بلغة بين العامية والفصحى . ويسمونه باسم الشعر النبطى ، وهو كله غير معرب ، وكأنه يحلّ فى الجزيرة محل الشعر الجاهلى فيها قديماً . فقد كان شِعْرَ جميع القَبائل تُشارك فيه ، وكانت لها لهجاتها المحلية الخاصة ، وكأن الموقف فى هذا الشعر يتعاكس مع ماكان فى الجاهلية ، فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى وألحان عروضها وأنغامه ولم يكونوا ينفكُّون عنها أبداً ، مع أنها ليست لغتهم اليومية تماماً . وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطى يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية ، فيترك نفر منهم النظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دنوًّا من قبيلته ولغتها العامية ، ومع ذلك يظلون يرفدونه بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصيح ، وكأنما فى دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغى أن يظل مرتفعاً قليلاً أوكثيراً عن اللغة العامية اليومية ، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة .

ومهما يكن فإن هذا الشعر العامى أو قل الحُمَيْنى اليمنى لم تَعْلُ كِفَّته يوما على الشعر الفصيح الذى ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره فى اليمن إلى اليوم . ومايَصْدق على اليمن يصدق على حضرموت ، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحُمَيْنى العامى ، ولكن ظلت للشعر الفصيح السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحميني وتمثَّل لذلك بأبى بكر العيدروس الحضرمى المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعراً وأغانى حُمَيْنِيَّة عامية ولكن شعره الفصيح هو الذى ذاع وشاع أو قل هو الذى غلب عليه ، كما يصور ذلك ديوانه : « محجة السالك وحجة الناسك » . على أن شعره الحميني يقترب من الفصحى اقتراباً شديداً .

وكانت تنزل عُمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية ؛ ومما هيأ للأخيرة النزول كثيراً أن حاكم هُرْمز الإيرانية أوقل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عمان ، وكانت أحياناً تتبعهم ، فكثر نزول الإيرانيين بها ، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخيلة فى لغة العمانيين اليومية ، وطبيعى أن يتبع ذلك تغيرات فى الألفاظ العربية ذاتها فى بعض مقاطعها وبعض ضغوطها ونبراتها ، لذلك كان ابن بطوطة محقاً حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن « كلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً لا تأكل ،

لا تمش ، لا تفعل كذا» . فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم ، أما لا التى ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائماً حين يطلبون من شخص شيئاً فأكبر الظن أنها لام الأمر حُرِّفت ومُدَّت قليلاً أو لعلها لام التوكيد . وينبغى أن لا نظن من ذلك أن العمانيين كانوا قد هجروا الفصحى فى عهد ابن بطوطة ، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية ، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعاً ، يتخذونها لغة للعلم وللشعر ، وكثيراً ما نقرأ فى ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها فى عُمان ، وقل ذلك نفسه فى نَزْوَى وفى صُحار وغيرهما من المدن .

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فمواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تنزلها ، وكان لذلك بعض التأثير فى اللغة العامية التى نشأت هناك ، وإن كان لا يصل إلى تأثير الإيرانية فى عامية عمان لأن الإيرانيين كثيراً ما نزلوا هناك وحكموها . وقد ظل البحرانيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما أعد لظهور شعراء مختلفين على مر الزمن طوال هذا العصر ، وكأن سيل الشعر كان لا يمكن رَدُّه ولا صده فى أى إقليم عربى ، فهو دائماً زاد للعرب وعُدَّة وعتاد .

ومعرفتنا بالحركة الشعرية فى نجد قليلة ، ومع ذلك نستطيع أن نتعرف على أطراف منها من خلال من كانوا يرحلون عنها إلى الأقطار المجاورة ، إذ لم تكن وسائل حفظ الشعر عندهم مهيأة ، ونقصد وسائله الأولى من الأقلام والحبر والورق . وهؤلاء المهاجرون يَدُلُّوننا على ما كان من نشاط شعرى وراءهم ، وقد نشط الشعر فى عهد بنى مزيد الأسديين الذين سادوا الحِلَّة على حدود العراق وكذلك فى عهد بنى عُقَيْل العامريين حين هاجروا إلى الموصل على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع . ونفاجأ بنشاط واسع للشعر فى نجد مع دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التى تحدثنا عنها فى أقاليمها المختلفة نشاطاً واسعاً فى الشعر ، فقد كان الحكام دائماً يعنون بأن تحفَّ بهم جمهرة من الشعراء ، وخاصة فى اليمن التى قامت فيها دويلات صغيرة تنافست فى جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم . غير أن أخبار هؤلاء الشعراء فى القرن الرابع الهجرى قليلة ، وكان المظنون أن يترجم الثعالبى فى اليتيمة وتتمتها لطائفة

منهم ، غير أنه لم يُعْنَ بهم ، وإن كان قد ذكر أبا الحسن التهامى ، وسنترجم له فى غير هذا الموضع ، وجاء عنده ذكر شعراء قليلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق أو إلى إيران مثل ابن أبى مرَّة المكى وينشد له قوله فى أبى الفتوح أمير مكة الآتى ذكره[١]:

يا سَيِّدًا فَدَيْتُه بِرُوحى خَوَّلَكَ اللهُ أبا الفتوحِ
مُلْكَ سليمانٍ وعُمْرَ نوحِ

وإذا كان الثعالبى قصرَّ فى الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عُنى بهم فى فاتحة كتابه «دُمْية القَصْر وعُصْرة أهل العصر» إذ ترجم لطائفة كبيرة منهم ، مقدما لهم بقوله :

«إن أحسن أبيات الأشعار ما طلعت من أبيات الأشعار[٢] ، ورعت مع الظِّباء الشِّيح ، وتزوَّدت مع الضِّباب[٣] الريح ، مستغنية بحسنها عن التصنع والتعمل ، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل . وقد وقع لى من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء الزُّلال ، وأرقُّ من الشَّمول صُفِّقت بالشمال» .

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخرزى من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى فى الجزيرة العربية ، فمنهم المكى والمدنى والطائفى الثقفى واليمنى ، ومنهم العامرى والأسدى والبكرى والطائى والغَسَّانى والرَّبَعى والشيبانى والهَمْدانى . وهم بذلك يمثلون الجزيرة فى جميع أنحائها غَرْباً وشرقاً ووسطاً وشمالاً وجنوباً . وفى ذلك ما يؤكد أن الفصحى كانت لا تزال مسيطرة على الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولا تزال حية ناضرة على ألسنة العرب فى نجد والحجاز واليمن ، كما توضح ذلك تراجم الباخرزى وما ساقه لأصحابها من أشعار ، وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحلاته إلى ما وراء البصرة وبغداد . ومنهم من لقيه فى هاتين المدينتين أو فى مدينة الرَّىّ حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم نظام الملك الذى وفد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم . وجمهورهم لم يلقهم الباخرزى ، وقد روى أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأدباء المكيين والمدنيين الذين ذكروهم له أو عن بعض الأدباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل التميمى الجرجانى ، وهو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمى «قلائد الشرف» . وأول من ترجم له أبو الفتوح[٤] الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة المتوفى سنة

---

(١) تتمة اليتيمة للثعالبى ١/٨٣ .

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخرزى الخباء المتخذة من أوبار الإبل رمزاً للبادية .

(٣) الضب : من الزواحف فى نجد وذنبه كثير العقد .

(٤) انظره فى العقد الثمين ٤/٦٩ .

٤٣٠ للهجرة ، وقد أنشد له قوله :

وَصَلَتْنِي الهمومُ وَصْلَ هواكِ وجَفانى الرُّقَادُ مثلَ جَفَاكِ
وحكى لى الرسولُ أنكِ غَضْبَى يا كَفَى اللهُ شرَّ ما هو حاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة ، وقد نسبهما العماد فى الخريدة لابن أبى الفتوح شكر [١] الذى خلفه على إمارة مكة إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وهو الذى حاك بعض بنى هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا ، كما مرَّ بنا ، أنه تزوج الجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالى ، ثم حدثت بينه وبين عشيرتها مغاضَبة ، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزيارة أبويها ، وذهب معهم إلى نجوعهم فى نجد . فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهى معهم ، ومضوا فى رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا ، على نحو ما هو معروف عن رحلة بنى هلال المشهورة ، وظل لها بين جوانحه حب دفين ، وظلت تَكْلَفُ به إلى أن ماتت وهى هائمة بحبه عاشقة . ويبدو أن بنى هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة ، إذ يجرى فيها خلل الإعراب كما يجرى فى بقية أقاصيص الهلالية ، وإنما نزعم هذا الزعم ، لما رواه الباخرزى من أشعار النجديين فى هذا التاريخ ، وهى تدل على أن الخلل الإعرابى لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وفى تقديرنا أن ذلك إنما حدث فى القرون التالية مباشرة . ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله [٢] :

قَوِّضْ خيامك عن أرضٍ تُضام بها وجانب الذُّلَّ إن الذُّلَّ يُجتنَبُ
وارْحَلْ إذا كان فى الأوطان منقصةٌ فالمَنْدَل الرَّطْبُ فى أوطانِه حَطَبُ

والبيتان يصوران إباء العربى وشعوره بالكرامة ورفضه للضيم مهما احتمل فى هذا الرفض من العناء الشاق . ويترجم الباخرزى لشاعر يسمى المجاشعى ويلقبه بشاعر الحرمين ، ويسوق له مدحة فى نظام الملك ، ويتلوه بأبى الحسن العبشمى المكى ثم بأبى الفضل جعفر بن الحسين الشيبى ، ويسوق له أبياتاً سمعها منه فى مديح بعض الوزراء ، كما يسوق له أبياتاً فى النسيب ، ويترجم لعم له يسمى جعفر بن يحيى الحكَّاك وشعره متوسط . ويترجم الباخرزى بجانب هؤلاء الشعراء المكيين لشاعرين من المدينة : خزرجى وأوسى ، ثم لشاعر من الطائف يسمى سليمان بن خضر ، وينشد له غزلاً رقيقاً . ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحجازيين شاعراً يمنيًّا يسلكه فيهم هو على بن محمد الصُّلَيْحى مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن ، وكان فارساً ، وله أشعار جيدة فى تصوير فروسيته وفتكه بأعدائه فى القتال من مثل قوله [٣] .

---

(١) الخريدة (قسم شعراء الشام) نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ٣/ ١٩ وانظر العقد الثمين ٥/ ١٥

(٢) العقد الثمين ٥/ ١٦ . والمندل : عود الطيب .

(٣) الخريدة (قسم شعراء الشام) ٣/ ٢٢٥ .

زَوَّجْتُ بِيضَ الهند سُمْرَ رِماحهم فرءوسُهم عِوَضَ النِّثارِ نِثارُ
وكذا العُلا لا يُستباح زواجُها إلا بحيث تطلَّق الأعمارُ

والنثار ما ينثر على العروسين فى الزفاف من الدراهم والدنانير والورود ، وهو يتصور معاركه مع أعدائه أفراحاً ، نثارها رءوس خصومه التى تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده ، ويقول إن هذا دائماً مهر العلا وصَداقها .

ويترك الباخرزى شعراء غربى الجزيرة إلى شرقيها مصعداً إلى أقصى الشمال حيث إمارة بنى عُقَيل العامريين الذين أسسوها فى الموصل وبوادى نجد العراقية فى القرن الرابع الهجرى ، ويترجم الباخرزى لأمير منهم هو قِرْواش بن المقلَّد الذى ولى الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميراً نحو خمسين عاماً إلى أن غلبه على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفى فى سجنه ، كما مرَّ بنا ، سنة ٤٤٤ ويقول المؤرخون : « كان كريماً وهاباً نهاباً » وكان يحسن صوغ الشعر وحوكه ، من مثل قوله الذى أنشده الباخرزى :

لى أشقرٌ سَمْحُ العِنان مغاورٌ يُعْطيك ما يُرضيك من مجهودِهِ
ومهنَّدٌ عَضْبٌ إذا جَرَّدْتَهُ خِلْتَ البروقَ تموج فى تجريدِه
ومثقَّفٌ لَدْنُ السِّنان كأنما أمُّ المنايا رُكِّبَتْ فى عوده
وبذا حويتُ المال إلا أننى سلَّطتُ جودَ يدى على تبديدِهِ

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثاً عن آبائه ، وإنما هو مما أنعم به عليه فرسه الذى لا يُشَقّ غباره فى الغارات ، وسيفه القاطع المسلول دائماً للنزال ورمحه الذى يفتك بالرجال ، وتلك أدوات جلبه للمال وسرعان ما تبدده يداه فى الناس . ويترجم الباخرزى لابن عم له يسمى أباجَوْثة ، ثم يهبط من الموصل وبواديها إلى بوادى الحِلّة بالقرب من الكوفة حيث إمارة بنى مَزْيد الأسديين التى أسستها قبيلتهم بنوأسد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ويترجم لدُبَيْس بن على بن مَزْيد الذى ولى إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بنى خفاجة ، واستنجد به قرواش ضد الغُزّ حين أغاروا على بلاده ، فنَجدَه . وينشد له الباخرزى بيتين يدلان على شاعرية متوسطة بل على شاعرية ضعيفة

ويأخذ الباخرزى بعد ذلك فى الترجمة لطائفة من شعراء نجد ، يبتدئهم بمحمد بن الجراح من قبيلة بكر ، ومما أنشده له فى كرم الضيافة الذى يشتهر به العرب من قديم قوله :

لا يرفع الضيفُ عَيْناً فى منازلنا إلا إلى ضاحكٍ منا ومبتسمِ

ويطيل الباخرزى فى الوقوف عند شاعر طائى ، هوأبو كامل تميم بن المفرج ، وفيه يقول : «كاملٌ» وبالكمال قد كُنِّى ، وإذا وُصف تمام الفضل فتميم عُنِى ، وناهيك بذاك الألمعى » .

ويذكر الباخرزى أنه مدح الوزراء فى إيران ونال جوائزهم ، وأنه أبعد فى الرحلة حتى غَزَنة . ويلم ببعض مدائحه وخمرياته ، وينشد له أشعاراً فى الغزل تذوب رقة ، من مثل قوله :

ودِّعينا – إن كنت أزمعتِ – جارَه قبل أن يمنع الفراقُ الزيارَهْ
زوِّدِى وامقاً أجَدَّ ارتحالاً ما قَضَى فى مُقامه أوطارَهْ
لم يزل يَحْذَرُ التفرق حتَّى حققوا يوم رَامَتَيْنِ حِذارَه
كان يكفيه – والمحبُّ قَنوعٌ – وَقْفَةٌ أو تحيَّةٌ أو إشاره
كاعبٌ فى الحِجال يمنعها الزَّوْ رَ حَياءٌ يصونها وغَرَارَهْ
ذاتُ ثَغْرٍ كأنه حين يبدو عِقْدُ دُرٍّ أو أُقْحُوان قَراره

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة ، والألفاظ فيها ملتحمة أوثق التحام ، وكلما قرأنا بيتاً فيها ، بل شطراً ، أحسسنا بجمال اتساقه ، وأنه يتصل بسابقه اتصال ذوى الرحم والقرابة ، وما أجمل قوله : «والمحب قنوع» فأى شىء يقنعه : وقفة أو تحية أو إشارة من بعيد . وقد عبَّر عن حجابها وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيراً ظريفاً ، إذ ذكر أنها فى الحجال والأستار داخل بيتها ، ولا يصونها الحجاب وحده ، بل يصونها أيضاً حياؤها وخجلها . والمعانى رقيقة رقة بالغة ، والصور جميلة وطبيعية ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، بل شاعر وامق يعبِّر عن حبه وهيامه تعبيراً حافلاً بالوجد والصبابة دون أى أثر للحب الحسى المادى وأدرانه ، بل هو حب عذرى طاهر يخلو من كل إثم ووزر ،سوى اللوعة . ويترجم الباخرزى لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدوى ، ثم لشاعر ثالث هَمْدانى يسمى المنيع ، وينشد له قطعة غزلية فى ابنة عم له تسمى ذؤابة شغفت قلبه حبا ، وفيها يقول :

كأنَّ ذُؤابةَ فى القَزِّ تمشى ربيبُ مَهاً تَرَتَدِى بالظِّلالِ

وهى صورة بديعة ، إذ يصور صاحبته وثوبها الهفهاف بمهاة فى يوم قيظ شديد الحرارة ، وقد أوت إلى ظلال شجرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حرَّة القيظ . ويمضى الباخرزى ، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم لشاعر عامرى يسمى قيساً ، وكأنما يعيد لنا ذكرى قيس مجنون ليلى ، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبته ومعاهدها من مثل قوله :

قِفا صاحبىَّ قليلاً عَلَيَّا ولا تُعْجلانى يا صاحبيَّا
وعُوجا علىَ طَلَل دائرٍ لِرَيَّا وأين من العين رَيَّا
معاهدُ لم يُبْقِ صَرْفُ الزما نِ منها ومِنِّى إلا شُوَيَّا

«وشُوَيَّا» تصغير شىء بمعنى بقية قليلة ، بالضبط كما نستعملها فى عاميتنا المصرية ، وكأن لها أصلاً صحيحاً فى العربية ، والأبيات تفيض بالوجد والحنين . ويترجم الباخرزى لشاعر شيبانى

من مدّاح نظام الملك الوزير السلجوقى ولشاعر من بنى عِجْل من شيبان من مدّاحه أيضاً ، ويبدأ مدحته فيه بوصف الخمر . ويتبعها الباخرزى بثلاثة من الشعراء النجديين ، ويقف وقفة طويلة عند شاعر من اليمامة يسمى على بن الأزهر ، ويقول : «مما سحر لُبّى من لُبّ كلامه قوله :

ديارَهمُ بالرَّقْمَتين سُقِيتِ ... سَحاباً من الوَسْمِىِّ ثم وُليتِ [1]
وما لكِ فى رِىِّ السحائب حاجةٌ ... فقد طالما من مُقْلتىَّ رَوِيتِ
وكم قد سَبَتْنى فيكِ من ذات بُرْقُعٍ ... بأحسن عينٍ للمهَاة وليتِ [2]
أيا بأبى الفَوْرانِ طِنْتِ فيهما ... وأرضٌ من الفَوْرين كنتِ وطيتِ [3]
وماءٌ حللتيه وإن كان آجناً ... وروضٌ رعيتِ العُشْبَ فيه رُعيتِ

والصورة فى البيت الثانى بديعة ، إذ ذكر ، بعد أن دعا للديار بالسُّقيا ، أنها ليست فى حاجة إلى رى السحاب فقد طالما رويت من مقلتيه ، وقد سبته صاحبته بعينيها وصفحة جيدها . ويذكر فى البيت الرابع الفورين ، وهما موضعان باليمامة كثيراً ما التقيا فيهما ، ويهتف مفديا الأرض التى وطئتها قدماها وكل مامرت به أو نزلت عنده من مياه ورياض . وفى البيت الخامس يشبع الكسرة فى كلمة «حللتِه» فتمتد تاء التأنيث على نحو ما تمتد فى عاميتنا المصرية . والكلمات محبوكة ، وكل بيت يستدعى ما يليه فى سلاسة وعذوبة ، ويستطيب الماء الذى حلت به وإن كان آجناً متغيراً ، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها ، ويقول الباخرزى : «ما أحسن ما جمع بين قوله : «رعيت العشب» على الإخبار و«رُعيت» على الدعاء» . ويستعجل الشاعر الركب معه فى السير ، وينشأ بينه وبين صاحبته حوار طريف على هذا النمط :

فقلت لهم سيروا ولا تتروَّحوا ... فليس لنا وادى الغَضا بمبيتِ
فقالتْ : ولِمْ أمسيتَ تطوى بلادنا ... فقلتُ أمرتينى غداةَ نَهيتِ
وقد كنتِ لا تَرْضِين منهم بما أرى ... من الضَّيْم لى فاليومَ كيف رَضيتِ
وأقسمتِ أن لا تَقْبلى قولَ كاشحٍ ... كذوبٍ فكم أقسمتِ ثم نَسِيتِ

والحوار مع صاحبته طبيعى ، ولكل بيت رقته وعذوبته ودقته ، فلم يعد الغضا مبيتاً صالحاً لها ، وقد أمرته بالمسير غداة نهته ، ولم تكن ترضى له بالضيم والهوان فرضيت ، وكم أقسمت له وعاهدته أن لا تقبل فيه قول كاشح كاذب ، ولم يقل لها -كما لاحظ الباخرزى- نقضت

(١) الرقمة : جانب الوادى والروضة . الوسمى : أول مطر الربيع .
(٢) الليت : صفحة العنق .
(٣) طنبت : أقمت . وطيت : سرت فيها .

العهد وحنثت فى يمينك ، بل قال لها متلطفاً « نسيت » القسم والعهد بل الأقسام والعهود . وهو لطف ورقة حسٌّ ما بعدها رقة ، ويترجم الباخرزى بعده لشاعر بدوى نجدى يسمى على بن حسان ، وينشد له قوله :

سَقْياً لأيام التصابى مع كلِّ خَرْعَبَةٍ كَعَابِ[1]
إذ نحن نَرْتَعُ فى الهوى ونجرُّ أرديةَ الشَّبابِ
والدَّهرُ عنا غافلٌ كالسيف يُؤْمَنُ فى القِرابِ

والأبيات سلسة سائغة ، والصور والأخيلة فيها طريفة ، وخاصة الصورة الأخيرة التى صور فيها الدهر وكأنه سيف احتواه غمده ، فلم يعد يخيفهم ولا يرهبهم ، فالسيف فى غمده ، والدهر بهمومه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين . وينشد له الباخرزى من قصيدة قافية :

وحقَّ لى وَجْدى على شادنٍ أدقَّ جِسْمى منه خَصْرٌ دقيقْ
وشاهدٌ يشهد فى خَدِّهِ أن ليس فى الحسن لهذا رفيقْ
فكلما عـــــذَّبنى هَجْرُهُ صحتُ من الوَجْد الحريقَ الحريق

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه ، وكأنما أعداه نحولاً وضَنىً ، وما أجمل البيت الثانى الذى جعل فيه من الخدِّ شاهدا يشهد بحسنه وجماله بل يتفوقه على كل حسن وجمال . والحب يكوى فؤاده ويلذعه ، وكأنه جمرات نار يصلى بها قلبه بل يحترق ، وهو ينادى ، الحريق الحريق . ويترجم الباخرزى بعده لشاعر أسدى من شعراء المديح ولمغنية بدوية تسمى أم كلثوم .

وإنما أطلنا عرض شعراء البدو فى الدِّمْية لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة فى الحقب الأولى من هذا العصر ، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادى كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء . ومن الغريب أن العماد الأصبهانى وزير صلاح الدين الأيوبى وشاعره الذى عُنى مثل الباخرزى بالترجمة لشعر العالم العربى جميعه لم يعن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفاً فى خريدته إلا ما ذكره عن شعراء عُقَيْل أصحاب إمارة الموصل وبواديه ، أودعهم فى قسم الشام والجزيرة ، وكذلك ما ذكره من شعراء بنى مزيد الأسديين أصحاب الحِلَّة وبواديها أودعهم قسم العراق ، وبالمثل أودع شعراء الحجاز واليمن فى القسم الخاص بالشام ، أو قل ألحقهم به ، ولم يعن أى عناية بشعراء عُمان والبحرين . وكتابه يُعَدّ المصدر العام الثانى بعد الدمية لشعراء الجزيرة العربية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين . وقد صنفه فى مطالع العقد الثامن من القرن السادس ، وهو يصرِّح بذلك مراراً فى تضاعيفه .

(١) الخرعبة : الشابة الحسنة

ولم يذكر العماد لبنى عُقَيْل أصحاب الموصل وبوادى الجزيرة سوى مسلم [١] بن قريش ابن أخى قِرْواش الذى مرَّ ذكره ، وهو أعظم أمراء هذه الأسرة سلطاناً ، إذ كان يستولى على ديار ربيعة ومضر فى نجْد . وملك حلب من بنى مرداس ، وبذلك قضى على إمارتهم فيها نهائيا ، وأخذ الإتاوة من الروم . وكانت سيرته منذ ولى سنة ٤٥٣ من أحسن السير وأعدلها ، وعمَّ الأمن دياره ، وكان يصرف الجزية فى جميع بلاده إلى الطالبيين من أبناء على بن أبى طالب . وكان هو وأهله شيعة إسماعيلية على مذهب الفاطميين ، ومما يدل على ذلك أن قرواشاً عمه خطب فى بلاده للحاكم صاحب مصر ، كما يقول المؤرخون ، ثم رجع عن ذلك خوفاً من حُكَّام بغداد السلاجقة . وغنى هو وأفراد أسرته بنثر الأموال على الشعراء فأتوهم من بغداد وغير بغداد . وكان مسلم يجزل العطايا للشعراء ، وحين قصده ابن حَيُّوس شاعر الشام وأنشده مدائحه فيه بالغ فى إكرامه . ويقول العماد الأصبهانى إنه أقطعه الموصل ، غير أن ابن حيوس لم يلبث أن توفى ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحُمل ذلك إلى خزانة مسلم فردَّه ، وقال : لا يَتحدَّث الناس عنى أننى أعطيت شاعراً مالاً ، ثم شرهت فيه وأخذته ، ويروى أنه لما ملك حلب هجاه بعض شعرائها ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه من أهل قرية المعرَّة رعيتك ، فقال : أَوْصوا به الوالى ليحسن إليه ، وحذِّروه أن يجنى عليه ، فهذا لا يعرفنا ، ولو لم تكن له شكاية من والينا ما قال هذا القول [٢] . وفى ذلك ما يدل على حصافته وبعد نظره وحسن سياسته وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر ورصفه ، وله مكاتبات شعرية مع منصور بن دُبَيْس المزيدى أمير بَوادى الحِلَّة وأنشد له العماد إحدى هذه المكاتبات ، كما أنشد له شعراً شيعيًّا ، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية . ويُرْوَى له [٣] :

وما كنتُ مِجْزاعَ الفؤاد وإنما ... فؤادى على بَيْنِ الحبيب جَزُوعُ
وكانتْ سُلَيْمى للمحين رَوْضَةً ... ووَصْلُ سُلَيْمى روضةٌ ورَبيعُ

والصورة فى البيت الثانى بديعة وتدلّ على شاعرية جيدة . وكان طموحاً كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظاً ، وله فى ذلك مهوِّنا من أهل عصره ومصغِّراً :

وإنى لأَحْقِر هذا الزمانَ ... ولا سيَّما أهل هذا الزَمَنْ
يريدون نَيْلَ العلا بالمُنَى ... ونَيْلُ العُلا برغيبِ الثَّمَنْ

وكانت وقفة العماد عند بنى مَزْيد الأسديين أكثر طولاً ، وأول من ترجم له منهم بهاء الدولة

---

(١) انظر فى ترجمة مسلم الخريدة (قسم الشام) ٢/٢٥٥ وابن خلكان ٥/٢٦٧ والنجوم الزاهرة ٥/١١٩ .

(٢) الخريدة قسم الشام ٢/١٢٨ .

(٣) انظر فى هذين البيتين وما بعدهما هامش الخريدة فى ترجمة مسلم نقلا عن الوافى للصفدى .

منصور [١] بن دُبَيْس الذى خلف أباه على رياسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيليًّا رافضيًّا مثل آبائه ، وله – كما ذكرنا آنفاً – مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه ، وظل على رياسة قبيلته الأسدية حتى توفى سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطاً أدبيا فى بيئتهما ، فقصدهما الشعراء بالمديح . وكان منصور يجيد الشعر وله فى رثاء صاحب له يُكْنى أبا مالك :

فإن كان أَوْدَى خِدْنُنا وندِيمنا أبو مالكٍ فالنائباتُ تنوبُ
وكلُّ ابنِ أُنثَى لا محالة ميِّتٌ وفى كلِّ حَىٍّ للمَنُون نصيبُ
ولو ردَّ حُزْنٌ أوبكاءٌ هالكٍ بكيناه ما هَبَّتْ صَباً وجَنُوبُ

وله فخر جيد . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة [٢] ، وهو الذى بنى مدينة الحِلَّة لقبيلته ، كى تنتقل من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، وفيه يقول العماد : «كان جليل القدر ، جميل الذكر . . له دار الضيافة التى ينفق عليها الأموال الألوف . المعروف بإسداء المعروف ، وإغاثة الملهوف» وقد قصده الشعراء من كل فج ، وله قدم ابن الهَبَّارِيَّة – كما مرَّ بنا – كتابه الصادح والباغم » الذى نظمه فى عشر سنوات على غرار كليلة ودمنة . ونازل محمد بن ملكشاه السلجوقى سنة ٥٠١ وقُتل فى المعركة ، ولما سمع نظام الملك وزير السلجوقيين فى الرَّىِّ خبر موته قال : مات أجلُّ صاحب عمامة . وكان فارساً شجاعاً عادلاً فى رعيته ، كما كان محسناً للآداب حافظاً أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين . ويقول العماد : كان يقبل على الشعراء ، ويمدهم بحسن الإصغاء وجزيل العطاء» وكان يرتب لهم سنويا مكافآت ، كل حسب طبقته . واسطاع ابنه دُبَيس [٣] أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته ، غير أنه خرج على المسترشد مراراً وتفرَّق عنه جنده تكراراً إلى أن قتله السلطان المسعودى السلجوقى صبرا سنة ٥٢٩ وهو الذى يشير إليه الحريرى – كما مرَّ بنا – فى مقامته « العُمانية » واصفاً كيف أقبل الناس يثنون على أبى زيد ، حين سمعوا فصاحته ، يقول : «حتى كأنه الأسدى دُبيس » فى إقبال الناس وتزاحمهم على رؤيته لشجاعته ، وكان شاعراً ، وأنشد له العماد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد :

حُبُّ علىٍّ بن أبى طالبٍ للنـاس مقيـاسٌ ومِعْيـارُ
يُخْرِج ما فى أصلهم مثلما تُخْرج غِشَّ الذهب النارُ

---

(١) ترجمته فى الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٥٧ وابن خلكان ٢/٤٩١ والنجوم الزاهرة ٥/١٢٢ .

(٢) انظر فى صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٦٣ وابن خلكان ٢/٤٩٠ والنجوم الزاهرة ٥/١٩٦ .

(٣) راجعه فى الخريدة ٤/١/١٧٠ والمنتظم ١٠/٥٢ وابن خلكان ٢/٢٦٣ والنجوم الزاهرة ٥/٢٥٦ .

ولم يستقم لآل مزيد بعد دُبَيْس سلطان ، وأبدلت العزة بالذلة ، كما يقول العماد . ويترجم لأخيه بدران (١) ، ويقول إنه تغرب عن الحِلَّة ، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفى سنة ٥٣٠ وروى له العماد أشعاراً يحنُّ فيها إلى الحِلَّةِ باكياً مجد آبائه ، وأخرى غزلية ، أو شيعية ، أو يذيب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله :

لا والذى قصَد الحجيجُ على بُزْلٍ وما يَقْطَعْنَ من جَدَدِ (٢)
لاكنتُ بالراضى بمنقصةٍ يوماً وإلا لستُ من أسَدِ
لأُقَلْقِلَنَّ العِيسَ داميةً الـ أخفاف من بلدٍ إلى بلدِ (٣)

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارة آبائه . ولا يلقانا بعده شاعر لبنى مزيد فى الحلة ، وأغلب الظن أن قبيلة بنى أسد عادت أوعاد معظمها إلى البوادى ، وكأنما كان ذلك كله دوراً نهضت به وانتهى بانتهاء بنى مزيد وانتقاض سلطانهم .

ويترجم العماد لشعراء الحجاز وتهامة ويريد بها مكة ، إذ يطلق عليها اسم تهامة أحياناً ، وأول من يترجم لهم شكربن أبى الفتوح ، وقد مرت بنا ترجمته عند الباخرزى . وتلاه بترجمة لجعفر (٤) بن محمدبن إسماعيل الحسنى ، وقال إنه كان عارفاً بالنحو واللغة ، شاعراً يمدح الأكابر طلباً لرفدهم وعطائهم ، وقال نقلاً عن السمعانى إنه كانت فى رأسه دعاوى عريضة خارجة عن الحد ، لا يرى أحداً فى علم اللغة فوقه . رحل من الحجاز إلى العراق ، ثم دخل خراسان وأقام بها ، ثم عاد إلى بغداد وألمَّ بواسط والبصرة فى سنة نيف وثلاثين وخمسمائة على عزم المسير إلى بلاد فارس ، وأنشد له العماد قطعتين : حائية ولامية ، ومن قوله فى أولاهما :

أما لظلام لَيْلِى من صباحِ أما للنجم فيه من بَراحِ
كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ فليس يُرْجَى له نَهْجٌ إلى كل النواحى
كأنَّ الصبحَ منفىٌّ طريدٌ كأن الليلَ بات صريعَ راحِ

ويتلوه العماد بأبى عبد الله (٥) محمد بن إبراهيم الأسدى الحجازى ، ويقول إن مولده بمكة ومنشأه بالحجاز ، وإنه لقى أبا الحسن التهامى شاعر مكة المشهور فى صباه ، ويبدو أنه عُمِّر طويلاً ، إذ يقال إنه ولد سنة ٤٠١ وتوفى سنة ٥٠٠ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غزنه ، وينسب له البيتان المشهوران :

(١) الخريدة ٤/١/١٧٧ وابن خلكان ٢/ ٢٦٤ .
(٢) البزل : جمع بازل وهو البعير القوى المتين ، والجدد : الأرض المستوية .
(٣) العيس : الإبل .
(٤) انظر ترجمته فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٠
والعقد الثمين ٣/ ٤٢٨ وإنباه الرواة للقفطى ١/ ٢٦٦ .
(٥) انظره فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٣ والوافى بالوفيات للصفدى ١/ ٣٥٦ والعقد الثمين ٣/ ٣٩٨ والمنتظم لابن الجوزى ٩/ ١٥٣ .

قلت : ثَقَّلتُ إذ أتيتُ مراراً قال : ثقّلتَ كاهلى بالأيادى
قلت : طوَّلتُ قال : لا بل تطوَّلْـ ـتَ ، وأبرمتُ قال : حَبْلَ الودادِ

وتتداول البيتين كتب البلاغة ، إذ يصوران لوناً من ألوان البديع وهو القول بالموجب ، وهو توجيه الكلام فى الحوار وجهة طريفة ، تنفى ظاهره المراد . ويترجم العماد عقبه لشاعر يسمى أبابكر[1] محمد بن عتيق السُّوَارقىّ الذى توفى بطوس سنة ٥٣٨ وأنشد له العماد أشعاراً منها قوله :

أيا ساكنى نَجْدٍ سلامٌ عليكُم وإن كنت لا أرجو إيابا إليكمُ
وإن كان جسمى فى خُراسانَ ثاوياً فقلبى بِنَجْدٍ لا يزال لديكمُ

ويترجم العماد بعده لشاعر من خُدَّام سُدَّة المصطفى ﷺ يسمى كافوراً النبوى ، ويقول إنه رحل أيضاً عن المدينة ، وأوغل فى رحلته حتى بُخارى ، وينشد له العماد بعض شعره ، ثم يترجم لشريف سليمانى هو عَلَىّ[2] بن عيسى كان أبوه عيسى أميراً على المخلاف السليمانى وقتله أخوه أبو غانم يحيى ، ففرَّ ابنه على إلى مكة ، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول العماد : «وله تصانيف مفيدة وقريحته فى النظم والنثر مجيدة» ويقول القفطى : «لما نزل الزمخشرى مكة وجد بها الشريف على بن عيسى بن حمزة الحسنى فعرف قدره ، ورفع أمره وتتلمذ عليه ، ونشَّطه لتصنيف ما صنَّف» وقد ألف له تفسيره الكشاف المشهور ، وفيه يقول على مادحاً ومنوِّهاً :

جميعُ قُرَى الدنيا سوى القرية التى تبوَّأها داراً فِداءٌ زَمَخْشَرَا
وأحْرِ بأن تُزْهَى زمخشرُ بامرئٍ إذا عُدَّ فى أُسْدِ الشَّرَى زَمَخ الشَّرَا[3]

وينشد له العماد طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة ويعرف أساليبها السويَّة المونقة ، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإباءه الضيم ومروءته ، ومن قوله فى رثاء بعض آبائه :

غاضَ النَّميرُ العَذْبُ يا وارداً وحَالَ عن عهدِكَ ذاكَ الزُّلالْ

ويترجم العماد عقبه لابن عم له يسمى دَهْمش[4] بن وَهَّامس ، يظهر أنه فارق المخلاف السليمانى مثله وأقام بمكة ، فترجم له العماد بين أبنائها ، ويقول إنه وفد على صلاح الدين فى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٦ .
(٢) راجع ترجمته فى الخريدة (قسم الشام ٣/ ٣٢ والعقد الثمين ٦ / ٢١٧ . ومادة زمخشر فى معجم البلدان لياقوت .
(٣) الشرى : مأسدة . زمخ : ترفع عليها وتكبر .
(٤) راجعه فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٣٥ والعقد الثمين ٤/ ٣٦١ .

ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وهو على باب حلب ، لم يتلوه بابن الريحانى [١] على بن الحسن المكى الذى وفد على صلاح الدين فى سنة سبعين ، ويذكر له قطعة فى مدح أمير المدينة قاسم الحسينى ، وفيه يقول :

سمَا بكرامٍ من ذؤابةِ هاشمٍ غطاريفَ صِيدٍ ماجدين جَحَاجِحِ

ويلقانا بعد ذلك فى مكة القائد سالم بن أبى سليمان ، وهو مَغربىُّ الأصل ، وينشد له العماد قصيدة فى المديح لعيسى بن فُلَيْتة أمير مكة ، تزخر بالعقيدة الزيدية ، وسنعرض لها فى موضع آخر ، حين نتحدث فى الفصل التالى عن شعر العقيدة الزيدية . ويتنقل العماد من شعراء الحجاز إلى شعراء اليمن ، ويترجم لأكثر من أربعين شاعراً منهم ، وهم يصورون ما بَثَّتْ دويلات اليمن من نهضة شعرية فى بلدانها ، وكان كثير من أمراء هذه الدويلات شاعراً ، وترجم العماد لأربعة منهم ، هم على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة الصليحية ، وجياش أمير آل نجاح حكام زَبيد وحاتم بن أحمد الهمدانى أمير صنعاء والمهدى بن على بن مهدى أمير زَبيد الذى قضى على دولة آل نجاح . ومر بنا حديث عن الصليحى عند الباخرزى ، وكان جياش شاعراً مجيداً ، ويروى أن ابن القِمِّ شاعر اليمن فى عصره أرسل إليه عاتباً [٢] .

يأيها الملكُ الذى خَرَّتْ له غُلْبُ الملوك نواكسَ الأذقان
أترى الذى وَسِع الخلائقَ كلَّها يابنَ النصير يضيقُ عن إنسانِ

فأجابه جياش :

لا ، والذى أرْسَى الجبال قَواعداً ذى القوَّة الباقى ، وكلُّ فانِ
ما إن يضيق برَحْبنا لك منزلٌ ولو انَّه فى باطن الأجفانِ

ويشيد الشعراء طويلاً بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بنى زُريع والامراء الزيديين وأئمتهم . وممن ترجم له العماد من شعراء الصُّلَيْحيين ابن القِمِّ وعمارة اليمنى وسنخص كلا منهما بكلمة فى حديثنا عن شعراء الإسماعيلية . وبالمثل ترجم لشاعر إسماعيلى ثالث من شعراء الصليحيين هو عمرو بن يحيى الهيثمى شاعر الداعى على بن محمد الصليحى . ومعروف أن آل زُرَيْع حكام عدن خلفوا الصليحيين حين انتهت دولتهم بموت الملكة الحرة أروى سنة ٥٣٢ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلهم وأموالهم . كما صاروا هم القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية . ويترجم العماد لشاعرهم أبى بكر العَيْدِىّ وسنخصه بكلمة بين شعراء المديح . وشعراء زَبيد ودولة آل نجاح كثيرون . وعلى رأسهم جياش كما

---

(١) انظره فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٣٢ والعقد الثمين ٦/ ١٤٩ .
(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٢٤ .

أسلفنا ، وله فضل تخليد أسمائهم فى كتابه «المفيد فى أخبار زبيد» والكتاب مفقود ، غير أن عمارة اليمنى كتب له مختصراً كما مرَّ بنا وهو الذى رجع إليه العماد فى الترجمة لجمهور شعراء اليمن ، وأول شاعر بارع يلقانا منهم زَكَرِيّ[١] بن شَكِيل وله مدائح بديعة فى جياش ، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة ، وفيه يقول :

اسْقِنِى الرَّاحَ إنها تجلبُ الرَّوْ ... حَ وريحانَها إلى الأرواحِ
بَزَلوها فامتَدَّ منها لجوِّ اللَّـ ... ـيْل نُورٌ أغنى عن المصباح[٢]
ما يُزِيل الهمومَ مثلُ اصطباحٍ ... فى صباحٍ لدى وجوهٍ صِباحِ
إذ ترى الدِّيك كالبَعير ، وكالأرْ ... ضِ السمواتِ ، أو فإنك صاحِ
وَارْعَ عينيك فى عيونٍ من الزَّهـ ... ـرِ جلاها نَوْرٌ كنَوْرِ الأقاحى
شفتاها نُقْلى وماءُ ثنايا ... ها عُقارى وخَدُّها تُفَّاحى[٣]
هذه الجنَّةُ التى وعد اللَّـ ... ـهُ وما عَنْ نعيمها من بَراحِ

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة وخفة وتكاد تطير عن الأفواه طيراناً ، والألفاظ تتداخل فيما بينها تداخل أفراد الأسرة المتشابكين فى الرحم ، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرها أى الوجوه المشرقة المضيئة . وصور خدر الخمر فى البيت الرابع تصويراً جيداً ، وأحكم مراعاة النظير فى البيتين الخامس والسادس ، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأقاحى ، كما قرن الشفاه والرضاب والخدود إلى النُّقل من الفستق وغيره والخمر والتفاح ، وسمى ذلك كله الجنة ، مبعداً فى الخيال . ويلقانا بعده من شعراء آل نجاح القاضى العثمانى[٤] ، وله فى الصليحى حين فتك به سعيد بن نجاح هجاء مرير ، وساق له العماد خمريتين ، يتماجن فيهما ، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أرنبا ، وأما الثانية فيستوفى فيها ما سبقه إليه أبو نواس من فكرة العفو الإلهى عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة ، يقول متماجناً :

قم فاسْقِنِى بالكأس من تلك التى ... أهلُ النُّهَى فى وَصْفها قد حاروا
واشربْ ولا يلحقْك خَوْفُ عقوبةٍ ... فيها فربُّ حِسابِها غفَّارُ

ويترجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جياش ، وأهم من ترجمته ترجماته لبنى أبى عَقامةَ قضاة زبيد فى عهد آل نجاح ، وفى مقدمتهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أبى عَقامة

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢١٨ .
(٢) يزل الدن : ثقبه .
(٣) العقار : الخمر . النقل : مايرافق الشراب من المشهيات .
(٤) انظر الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣١ ولعله الشريف العثمانى المذكور فى طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٧

الحفائلى [١] الذى قتله على بن مهدى حين دانت له زبيد سنة ٥٥٤ وينشد له العماد أشعاراً رائعة ، منها قوله فى مديح قوم راحلين :

للمجدِ عنكم رواياتٌ وأخبارُ ... وللعُلا نحوكم حَاجٌ وأوطارُ
تشتاقكم . كلُّ أرْضٍ تَنزلون بها ... كأنكم لبقاع الأرض أمطارُ
فحيث كنتم فثَغْر الرَّوضْ مبتسمٌ ... وأين سِرْتم فدَمْع المُزْن مِدْرارُ
لله قومٌ إذا حَلُّوا بِمَنْزلةٍ ... حَلَّ النَّدَى ويسير الجود إن ساروا
لا يَعْجب الناسُ منكم فى مسيركمُ ... كذلك الفَلَكُ العُلْوِىُّ دَوَّارُ
والبَدْرُ مذ صِيغَ لا يَرْضَى بمنزلةٍ ... فيها يخيِّم فَهْو الدَّهْرَ سَيَّار

وهو مديح رائع ، فالمجد لا يزال يروى أخبارهم ، ولا يزال للعلا منهم أمانىٌ موصولة ، وكل أرض تشتاقهم وتتلهف عليهم ، كأنهم غيث جَدْبها المُمْحل ، وكل مكان ينزلون يصبح روضاً مشرقاً ، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون ، بكوا شمائلهم وكرمهم الذى يتبعهم أينما حلوا وساروا . وتصويره فى البيتين الأخيرين لهم فى رحيلهم بالفلك الدوار والبدر السيار تصوير دقيق بارع . ومن شعره فى الحداثة قوله يصف روضة :

وروضةٍ مارأى الراءون مُشْبِهَها ... كأنما سُرِقَتْ سِرًّا من الزمَنِ
غَيْمٌ وظِلٌّ وروضٌ مونقٌ وهَوًى ... يجرى من الروح مَجْرَى الروح فى البدنِ
غَنَّتْ بها الطَّيْرُ ألحاناً وساعدها ... رَقْصُ الغصون على إيقاعها الحسنِ
لقد سكرتُ وما الصهباءُ دائرةٌ ... فيها ولا نغمات العود فى أذنى

وتصوير فتنته بالروضة تصوير جيد ، فقد تصور كأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدرى لما يرى فيها من اجتماع جمال الطبيعة وجمال صاحبته التى تأسر لبه ، ويتخيل الروض كله من حوله يتغنى ويرقص ، تتغنى فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانقة مرة ومنفرجة مرة ، وهو مسلوب الحس فتنة وجمالاً ، حتى لكأنما هو فى مشهد غناء ورقص حقيقى . وكل شىء من حوله يأخذ بعقله . ويترجم العماد لابن مكرمان ، وهو شاعر زيدى ، سنعرض له فى حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها ، كما يترجم لشاعر خارجى من شعراء على بن مهدى هو ابن الهُبَيْنىّ ، وسنلم به فى حديثنا عن شعراء الخوارج ، ويترجم أيضاً لنشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عنيف بأصوله اليمنية ، وسنتحدث عنه بين شعراء الفخر والهجاء . ووراء من سميناهم من شعراء اليمن فى الخريدة كثيرون لم نعرض لهم ، لأن شعرهم متوسط

---

(١) راجع فى ترجمة محمد بن أبى عقامة الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٤٠ . وطبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٠ .

أو دون المتوسط . ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالخريدة عن عرض المختصر فى أخبار زبيد لعمارة اليمنى الذى أشرنا إليه آنفاً ، لأن الخريدة تستغرقه .

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائهما حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منتصف هذا القرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى وبه شعراء ممن جاوروا بمكة كثيرون ، وبه مكيُّون ، ولدوا فى مكة ونشئوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها ، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية فى حكام مكة وأمرائها الزيديين . وتكثر المدائح النبوية فى هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو فى المدينة ، ولهم غزل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفى . ويلى هذا المصدر فى الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم فى مكة لأكثر من ثلاثين شاعرا من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، وأكثر أشعارهم مدائح لأمراء مكة ، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السالفين النابهين ويلاحظ ذلك ابن معصوم فى غير موضع من كتابه ، كما يلاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع وللتعبير عن التواريخ . وتكثر فى أشعارهم المدائح النبوية (والمناجيات) الإلهية . ومثلهم شعراء المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم ، وهم أربعة عشر شاعراً وتجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوبيت . ويلقانا بعض شعراء الحجاز فى كتاب ريحانة الألبا للخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة ، وألف ذيلا له المحبى سماه نفحة الريحانة ، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبى أيضاً كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى وكتاب تاريخ الجبرتى ، ففيهما بعض تراجم لمكيين ومدنيين .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بَعْد من ترجم لهم العماد فى خريدته وجدنا توران شاه الأيوبى يفتتحها سنة ٥٦٩ ويزيل منها الدويلات التى تحدثنا عنها آنفاً ، ويتحول شعراء اليمن إلى مديحه وفى مقدمتهم أبو بكر العيْدى شاعر دولة الزُّرَيْعيين . ويتولاها بعده أمراء من أسرته ، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر ، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفى مقدمتهم أبو الغنائم الشيزرى ، ولخزانته وباسمه ألف فى اليمن كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب ، وختم كل كتاب ببعض أشعاره فى مديح المسعود . وكان قد حج الأمير المسعود فى سنة ٦٢٥ وأناب عنه عمر بن على بن رسول ، وتوفى بمكة ، فانتهز الفرصة عمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بنى رسول التى ظل

لواؤها مرفوعاً على اليمن من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أرخ على بن الحسن الخزرجي تاريخاً بديعاً لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهى السنة التى توفى فيها السلطان الأشرف ، وتاريخه فى مجلدين ، وهو كما قلنا فى غير هذا الموضع تاريخ حضارى وسياسى وأدبى ، إذ عُنى بوصف احتفالات الرسوليين وبأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نُظم فيها من أشعار ، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدائه ، فعمر بن على بن رسول الذى تلقب بالملك المنصور معه شاعره محمد بن حمير الذى لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائحه ، ومع ابنه المظفر شعراؤه : ابن حمير وابن هُتَيْمل وأضرابهما ، وبالمثل من خلفهما من السلاطين . ويلقانا بعد الخزرجى وكتابه العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ابن الدَّيبع وكتابه قرة العيون ، وفيه حديث مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم ، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغورى ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الأول ، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامراً وقتلوه وقتلوا أخاه ، وفى رثائهما يقول عبد الرحمن الدَّيبع :

أخلاَّى ضاع الدِّينُ من بعد عامرٍ وبعد أخيه أعدلِ الناسِ بالناسِ

وينزلها العثمانيون سنة ٩٤٥ ويظلون بها نحو قرن . وتتحول اليمن إلى الرَّسِّيين أصحاب صَعْدة ، وينزلها العثمانيون ثانية سنة ١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م ويظلون بها حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م . وكل المصادر العامة التى ذكرناها للشعراء فى الحجاز تفرد فصولاً طويلة لشعراء اليمن ، ومرَّ بنا ذكر كتاب «نسمة السحر فيمن تشيع وشعر» وهو كتاب نفيس غير أنه لم يطبع . ومن الكتب التى تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء فى اليمن كتاب سلافة العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الريحانة للمحبى وكتاب البدر الطالع للشوكانى وكتاب نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف حتى سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م لابن زبارة الصنعانى وكتاب المخلاف السليمانى لمحمد بن أحمد العقيلى ، وشعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ، غير الدواوين المطبوعة مثل ديوان ابن هُتَيْمَل وديوان البرعى وديوان مدائح إلهية لمحمد بن إبراهيم الوزير وديوان الأمير الصنعانى محمد بن إسماعيل .

ولحضرموت نشاط شعرى غزير . وقد استطاع السيد عبد الله السقاف أن يؤلف كتاباً من ثلاثة أجزاء فى تاريخ الشعراء الحضرميين ، وهو يشتمل من شعراء هذا العصر الذى نؤرخ له على نحو مائة وعشرين شاعراً ، ويقول فى مقدمته : «لا أكتم أن شعراء حضرموت ليسوا فى رتبة المجيدين من الشعراء ولا المفلقين . . ولما كانت حضرموت تسودها الروح الصوفية والنزعة الفقهية فإنك ترى على شعرهم طلاء صوفيا ومسحة فقهية ، ومع هذا

الطلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء ، وإن لم يكونوا من المجيدين غالباً» . ولعل السيد السقاف بالغ فى حكمه حين جعله عاما ، ومما لا ريب فيه أن بين من ترجم لهم شعراء نابهين يمكن أن يُعَدّوا فى رتبة المجيدين ، مثل أبى بكر العيدروس وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتصوفين ، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من الشعراء الممتازين فى الجزيرة العربية لهذا العصر بعامة وسنترجم له بين شعراء المديح . ولم يترجم السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضى الخارجى فى حضرموت ، ومن أهمهم أبواسحق الهمدانى وسنترجم له فى الحديث عن شعراء الإباضية .

ولم يكن للشعر فى عمان هذا النشاط جميعه الذى رأيناه فى حضرموت ، ولكن لا ريب فى أن الشعراء كانوا كثيرين فى هذا الإقليم كثرتهم فى الأقاليم الأخرى ، وممن يلقانا منهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى أبو على أبزون المجوسى الملقب بالكافى العمانى ، وقد ترجم له الباخرزى فى دمية القصر [١] ، وأنشد طائفة جيدة من شعره ، ويذكر من ترجمته عن الفارسية قوله :

وصَحْراء ردَّتْها الظِّباءُ حَفائراً ... بأظلافها أَحْبِبْ بها من حَفائِرِ
فهبَّتْ رياحٌ للصَّبا فملأْنها ... بمسكٍ فعادتْ نُزْهةً للنواظِرِ

وقد عُنى نور الدين السالمى فى كتابه تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان بعرض نماذج من أشعارهم على مر الحقب ، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر . وكان للخوارج فى نزوى شعراؤهم وأيضاً للدول السُّنِّيَّة حين كانت قائمة فى عمان ومسقط شعراؤهم ، فقد شجع بنو مكرم وبنو نبهان الذين خلفوهم الشعراء ، واشتهر للأخيرين شاعر عُنى بمدحهم هو أحمد بن سعيد الخروصى الستالى وسنترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأخرة من زمنها شاعر هو سليمان النبهانى ، وسنترجم له بين شعراء الفخر ، ومن شعراء الخوارج الحبسى شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضى (١١٠٤ – ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذى خلف الإمام السابق ، ومن شعره [٢] :

ولما بلوتُ النامَ لم أر صاحباً ... أخا ثقةٍ فى النائبات العظائمِ

وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيديين إذ خلَّصوها من أيدى اليعاربة سنة ١١٥٤هـ وظلوا فى دست الحكم إلى اليوم ، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان ، وكان شاعراً مجيداً ، وله يتغزل [٣] :

---

(١) دمية القصر ١/٩٨ . إطفيش الجزائرى ٢/٩٣ .
(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بعناية إبراهيم (٣) التحفة ٢/١٦٦ .

يا من هواه أعزَّه وأذلَّنى كيف السبيلُ إلى وصالك ذُلَّنى
وتركتَنى حيرانَ صَبًّا هائماً أَرْعَى النجوم وأنت فى نومٍ هَنِى
عاهدتَنى أن لا تميل عن الهَوَى وحلفتَ لى يا غُصْنُ أن لا تثنِى
جادَ الزمانُ وأنت ما واصَلْتنى يا باخلاً بالوصل أنت قتلتنى
واصلتنى حتى ملكتَ حُشَاشتى ورجعتَ من بعد الوصال هجرتنى
لما ملكتَ قِياد سِرِّىَ بالهوى وعلمت أنى عاشق لك خُنْتَنِى

والأبيات جيدة والألفاظ فيها تتعانق فى خفة والمقابلات بارعة ، والصور دقيقة ، وقد أكمل صورة الغُصْنِ بانثنائه كناية عن جفاء صاحبته وإقبالها على غيره . وهو يأسى لنفسه أنها هجرته بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه ، وإنه ليتعثَّر فى شباك حبِّها ، بينما انصرفت عنه إلى غير مآب ، وعلى هذا النحو كان الشعر ناشطاً فى عهد البوسعيديين ويلقانا من شعرائهم بأخرة من العصر أبو الصوفى سعيد بن مسلم .

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشعراء طوال حقب هذا العصر ، ومن أوائل من نلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذى ولى أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومرَّ بنا حديث عنه وكيف أنه حارب الفاطميين تحت ألوية الخلافة العباسية ، وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره قوله :

إنى امرؤ ليس من شأنى ولا أدبى طَبْلٌ يَرِنُّ ولا نايٌ ولا عودُ
ولا اعتكافٌ على خَمْرٍ ومَخْمَرةٍ وذات دَلٍّ لها بالدَّلِّ تأويدُ[1]

وتوفى بالرملة فى فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر [2] بن أبى الفتح كشاجم كاتباً بين يديه ، وكان شاعراً محسناً ، وأنشد له الثعالبى فى اليتيمة طائفة من أشعاره فى الأطعمة وألوانها المختلفة لعصره ، ومن قوله فى وصف كتاب :

وصاحبٍ مؤنسٍ إذا حَضَرا جالسَنى بالملوك والكُبَرا
جسمٌ مَوَاتٌ تَحْيَا النفوسُ بهِ يَجِلُّ معنى وإن دَنَا خَطرا
أظلُّ منه فى مجلسٍ حَفِلٍ بالناس طُرًّا ولا أرى بشرَا

وسرعان ما انتهى عصر القرامطة وخلفهم بنو الأصفر ، ولا يظلون طويلاً ، ويعقبهم بنو العيونى منذ سنة ٤٦٦ ويعملون على النهوض بالبحرين علميا وأدبيا ، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو على بن مقرَّب العيونى ، وسنترجم له بين شعراء المديح . ويخلف

(١) تأويد : انعطاف . وانظر فى الأعصم وشعره ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٨/ ٦١٤ وما بعدها .
(٢) انظر ترجمته فى اليتيمة ١/ ٢٨٥ .

العيونيين – كما مرّ بنا – بنو عصفور وبنو جبر العقيليون ، وتظل النهضة الشعرية مستمرة ويستولى البرتغاليون بأخرة على البلاد فى سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون فى سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر فى كتب التراجم الأدبية التى ذكرناها فى حديثنا عن شعراء الحجاز ، وخاصة فى «سلافة العصر» و «نفحة الريحانة» . ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظلون يحكمون الأحساء حتى يستولى عليها السعوديون فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، ومن الكتب التى تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو ، وقد أنشد شعراً كثيراً من منظومات لهم نحوية وفقهية . ومن الشعراء فى أواخر العصر على نقى الأحسائى وهو شيعى إمامى وله ديوان مطبوع ومؤلفات مختلفة فى العقيدة الإمامية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة فى جميع أقاليم الجزيرة ، وقد عرض الباخرزى فى دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد فى الوزير نظام الملك السلجوقى ، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلباً للنوال ، وخاصة من هذا الوزير الذى غمر الشعراء بجوائزه وعطاياه ، ولهُذَّاب بن دَهْثَم الشيبانى من قصيدة فى مديحه[1] :

ما خلق الله تعالى وجَلّْ مثلَ وزير الوزراء الأجَلّْ
أروعُ كـالنَّصْـل ولكنَّـهُ أمضى من النَّصْل إذا ما سُلّْ

وقد بعث بنو عُقَيْل فى الموصل وبواديها حركة أدبية ظلت مزدهرة طوال حكمهم ، مما جعل شعراء إقليمهم يدبجون القصائد فى مديحهم ، وقصدهم الشعراء من العراق والشام ، وفى مقدمتهم أبو على بن الشِّبْل البغدادى مادح قِرْواش والمشيد بنصره على الغُزّ بمثل قوله[2] :

نَزَّهْتَ أَرْضَك عن قبور جُسومهم فغدتْ قبورهمُ بطونَ الأَنْسُرِ

ومن شعراء قِرواش الطاهر[3] الجزرى . وكان مسلم بن قريش – ابن أخيه – ينثر الأموال نثراً على الشعراء فجاءوه من كل فَجٍّ وفى مقدمتهم ابن حَيُّوس شاعر الشام ، وبلغ من إعجابه بمدائحه فيه أن أقطعه – فيما قيل – الموصل على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع . وله يقول من قصيدة طويلة[4] :

---

(١) دمية القصر ١/ ٦٠ .
(٢) ابن خلكان ٥/ ٢٦٣ – ٢٦٤
(٣) انظره فى دمية القصر ١/ ١٢٦ .
(٤) خريدة القصر للعماد (قسم الشام) ٢/ ٢٥٧ .

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استجمعتْ يَفْنَى الزمانُ وذكرُها لم يَهْرَمِ
كرماً يُبيح حِمَى الغِنَى ومآثِرًا وُضُحاً تُبيحُ بلاغةً للمُفْحَم

ولم يكن بنو مَزْيد الأسديون فى الحِلَّة وبواديها أقل اهتماماً بالأدب والأدباء من بنى عُقَيْل فى الموصل وباديه ، وكانوا قريبين من بغداد ، فكثر إلمام الشعراء بديارهم لأخذ جوائزهم ، غير من كانوا يَنْشئون بينهم وفى مقدمتهم على [١] بن أفلح العَبْسى الشاعر ، ويقال إنه كتب بين يدى دُبيس بن مَزْيد فى شبيبته . وكان ابنه منصور ممدَّحا ، ومن مدَّاحه البندنيجى [٢] الشاعر البغدادى ، ومحمد [٣] بن خليفة أبو عبد الله السِّنْبسى ، وكان ابنه سيف الدولة صدقة مفزعاً للشعراء ، وكان السنبسى شاعره الأثير وله فيه مدائح مختلفة ، ومن مدَّاحه أيضاً المطاميرى [٤] وأبو طاهر [٥] البغدادى وابن أبى الجبر [٦] وممن زار الحِلَّة عاصمة المزيديين ومدح أمراءها الأبيوردى الشاعر الإيرانى المشهور . ويغمر نجدا وراء دولتى المزيديين والعقيليين الظل ، فلا نكاد نتبيَّن شيئاً من أخبار شعرائها ، حتى تلقانا دعوة محمد بن عبد الوهاب وأصداؤها فى الشعر والشعراء .

ومن يرجع إلى كتاب العقد الثمين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح فى سلافة العصر لابن معصوم و « نفحة الريحانة » وفى كتب التراجم المتأخرة ، وكانت الإمارة فى مكة زيدية شيعية وفى المدينة إسماعيلية على الأقل فى الحقب الأولى وسنفرد لشعراء هاتين النحلتين فى الجزيرة دراسة خاصة فى الفصل التالى :

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر ، وكان لتنافس الإمارات والدويلات الكثيرة فى أوائله أثر بعيد فى ذلك ، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء ليكونوا دعاة لها ، وفى سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم فى العطاء ، وتلقانا فيه إمارة الزيديين فى صَعْدة ، وسنتحدث عن شعرائها فى الفصل التالى . وبالمثل إمارة الصُّلَيْحيين الإسماعيلية كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم فى الفصل التالى أيضاً . وقل ذلك نفسه فى إمارة بنى مهدى الحوارج فستتحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم . وربما كانت أهم إمارة عُنيت بالشعر فى القرن الخامس إمارة آل نجاح فى زبيد ، وكان جياش (٤٨٢ – ٤٩٨ هـ) أهم أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنف فيهم كتابه « المفيد » الذى مرَّ بنا

(١) انظره فى الخريدة القسم العراق ٢/ ٥٢ .
(٢) الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٩ .
(٤) الخريدة ، القسم العراق ٢/ ١٩٥ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠ .
(٦) نفس المصدر ٤/ ٢/ ٥٢٥ .

ذكره ، ويذكر عمارة فى المختصر الذى صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخم وعدة مجلدات تجمع نثراً ونظماً ، ومن أهم شعرائه زَكرِى بن شكيل المارّ ذكره ، وفيه يقول من مدحة طويلة[١] :

المُشْتَرِى حُلَلَ الثناء بما حوتْ كفَّاه والحامى لها أن تُشْتَرى
والموقدُ النارين : ناراً للوَغى لا تَنطفى أبداً وناراً لِلْقِرَا

وكان بنو زُرَيْع فى عدن مورداً عذباً للشعراء ، وكانوا إسماعيلية ، وكان كل من تولى منهم يسمى نفسه الداعى أى للمذهب الفاطمى ، ولذلك سنؤخر شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء المذهب الإسماعيلى فى اليمن . وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ على اليمن إلى أن تخلوا عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن على بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية ، ومن طريف ما تقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبى بكر العَيْذِى يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول[٢] .

أعساكراً سَيَّرْتَها وجنوداً أم أَنْجُماً أَطْلَعْتَهُنَّ سُعودا
أم تلك ماضيةُ العزائم أُرْهِفَتْ بالرأى منك وجُرِّدَتْ تجريداً
أم تلك أقدارُ الإله ونصره رفعتْ عليك لواءَها المعقودا

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود ، وهو آخر من حكمها منهم ، وكان يصحبه أمين الدولة أبو الغنائم الشيرزى وصنف له كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» كما مرَّ ، وهو منتخبات شعرية ونثرية ، وكان شاعراً . ويؤسس نور الدين عمر بن على بن رسول منذ سنة ٦٢٦ دولة أسرته الرسولية ، ويبعث هو وأسرته فى اليمن نهضة شعرية ، بجانب ما بعثوا من النهضة العلمية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ويكثر مادحوه من الشعراء فى الأعياد وفى المناسبات المختلفة حين ينتصر فى بعض المعارك ، وحين يفضى إلى بعض مجالس أنسه وشرابه ، ولأبى الغنائم الشيزرى فيه مديح[٣] يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير عنده محمد[٤] بن حمير ، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين يديه بعض مدائحه من مثل قوله[٥] :

قد قيل جاورْ- لتَغْنَى - البَحْرَ أوملكا أنتَ المليكُ وأنت البحرُ ياعمرُ
ماحاز ما حُزْتَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمٌ ماشاد ماشِدْتَ لاجِنٌّ ولا بشَرُ

(١) الخريدة قسم الشام ٣ / ٢١٩ .
(٢) تاريخ ثغر عدن لباعزمة ٢ / ٣٧ .
(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ٣٦ .
(٤) الخزرجى ١ / ١١٠ وفى مواضع متفرقة .
(٥) الخزرجى ١ / ٨٧ .

إذا الجدودُ بهم أبناؤهم شَرُفوا أو فاخروا فبك الأجداد تفتخر
عَزُّوا بعِزِّك أولاهم وآخرُهم كما بأحمدَ عزَّت كلها مُضَرُ

ويقول الخزرجي : كان ابن حمير أوحد شعراء عصره وقد توفى سنة ٦٥١ وبذلك لحق عصر المظفر الرسولى (٦٤٧ – ٦٩٤ هـ) . وشاعره غير مدافع القاسم بن هُتَيْمل ، وسنخصه بكلمة ، وتكثر تهنئات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم بعد أبيه ، وكان كلما أهلَّ عليه عيد أو انتصر فى موقعة حربية أكثروا من مديحه وتهنئاته ، ومن المحقق أن كثيرين منهم كانوا يرددون معانى الشعراء العباسيين النابهين من أمثال أبى تمام والبحترى والمتنبى ، ومن الطريف فى هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين – وهو ابن دَعَّاس – كان معاصروه من أهل زبيد يرمونه بسرقة الشعر ، ويقولون – متندرين عليه – إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى بابن دعاس للحساب ، فيعترف بسرقاته من سابقيه ، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر لفلان وهذا العجز لفلان ، وبذلك يخرج بريئاً . ويذكر له الخزرجى مدحة فى المظفر يصفها بأنها باهرة ، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه افتتحها بقوله :

ليس فى قدرةٍ ولا إمكانِ نَيْلُ ما نلتَ يا مليكَ الزمانِ

ويقول إنه لابن الحجاج البغدادى [١] ، ويعرض الخزرجى فى أثناء حديثه عن السلطان المؤيد (٦٩٦ – ٧٢١ هـ.) أسماء جماعة من شعرائه ومداحهم فيه ، وفى مقدمتهم العَنْسى والعفيف عبد الله بن جعفر من مثل قول الأخير [٢] :

ساد الملوكَ فلا تكون مثالَهُ أبدَ الزمان ولا يكونُ مثالَها
وحَوى الخلافَة لم تكُنْ إلا له طولَ الزمان ولم يكنْ إلا لها

ومن الرسوليين الممدَّحين الأشرف إسماعيل (٧٧٨ – ٨٠٣ هـ.) ومن مُدَّاحه الخزرجى صاحب العقود اللؤلؤية ، وله فيه مدحتان أولاهما فى بيان [٣] ازدهار الدراسات الدينية التى أقامها السلطان الأشرف فى الجامع المبارك الأشرفى ، وقد مضى الخزرجى يسمى القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القُرَّاء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب والجبر ، والثانية [٤] فى وصف الاحتفال بختان أبناء الأشرف وتهنئته والإشادة بملكه وفتوحاته وأمجاده . ونمضى إلى عصر بنى طاهر غير أنهم لا يُعْنونَ بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعنى الرسوليون ، وبانتهاء دولتهم ، يُظِلُّ اليمن حكم الزيديين أصحاب صَعْدة ، وسنخصهم بحديث مستقل .

---

(١) الخزرجى ١/٢٨٣ .
(٢) الخزرجى ١/٣٣٤ .
(٣) الخزرجى ٢/٢٠٢ .
(٤) الخزرجى ٢/٢٣٦ .

وتكثر فى حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبيعى لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء ، ويمتلئ كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوى فى شيخه محمد بن عبدالرحمن الأسقع[١] :

فقيهٌ شريفٌ حاز فَضْلاً ورفعةً له نِسْبَةٌ تَعْلُو على كل نسبةِ

وأكبر الشعراء المدَّاحين فى حضرموت عبد الصمد بن عبد الله باكثير ، وسنخصه بكلمة . ويكثر شعراء المديح أيضاً فى عمان ودائماً يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين ، وسنقف قليلاً عند شاعرهم السِّتالى . وبالمثل كان الشعراء فى البحرين لا يزالون يمدحون أمراءها من العيونيين وغيرهم وفى مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع على بن مقرب العيونى :

وواضح مما سبق أننا سنقف قليلاً عند أربعة من شعراء المديح فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين يصورون لنا ازدهار هذا الفن فى بلدانهم فى حقب مختلفة ، وهم القاسم بن هُتَيْمل اليمنى وأحمد بن سعيد الخروصى السِّتالى العُمانى وعلى بن مقرَّب العيونى البَحْرانى وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمى .

القاسم بن هُتَيْمل[٢]

هو القاسم بن على بن هتيمل أكبر شعراء اليمن فى القرن السابع الهجرى ، وهو من نَجْران بوادى ضِمْد فى المخلاف السليمانى وهى غير نجران المشهورة وبها نشأ . وقد تيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجَّه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء المخلاف السليمانى وكانوا يتبعون الدولة الرَّسُولية ، كما وجهه إلى الرسوليين وأمرائهم وولاتهم وإلى الأمراء الزيديين فى جهة صَنْعاء وصَعْدة . ولا تُعْرَف سنة ميلاده ، والمظنون أنه ولد فى العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع ، وإن كان هناك من يظن أنه ولد فى أوائل هذا القرن ، غير أننا لا نجد له شعراً فى السلطان عمر بن على بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ بينما يُعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) . ويبدو أنه توفى لزمنه إذ لا نجد له مديحاً فى أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢١ هـ) الذى استولى على صولجان الحكم بعده . وكان يتخذ شعره

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ٤٤ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن هتيمل مقدمة تحقيق ديوانه لمحمد بن أحمد عيسى العقيلى . وانظر العقود اللؤلؤية للخزرجى فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) والديوان مطبوع بدار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

متجراً ، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعماله ، كما يمدح أمراء المخلاف السليمانى وأعيانه ، والأئمة الزيديين وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين ، وأمراء ظَفار ، وأمراء قبائل حلى بن يعقوب ، ويروى أنه قال فى أميرهم أحمد بن على الحرامى الكنانى من مدحة طويلة :

إن الملوك بنو يعقوبَ قاطبةً قطعاً وكلُّ ملوكٍ بعدهم سُوَقُ

والسوق جمع سوقة وهى الرعيَّة وبلغت المدحة سَمْعَ المظفر الرسولى ، فاستشاط غضباً حين سمع هذا البيت وطلب ابن هتيمل ليطير به طيرة بطيئاً سقوطها حتى إذا مثل بين يديه وأنشده البيت حَنِقاً ، تخلَّص تخلصاً لطيفاً ، قائلاً : أطال الله عمر السلطان ! إنما قلت : « وكل ملوك عيرهم سُبق » فاستحسن تخلصه [١] ، وله فيه كثير من المدائح البديعة من مثل قوله

أغرُّ رسولىٌّ يَزُرُّ قميصَهُ على القمر التَّمِّ الخِضَمِّ الغَضَنْفَرِ
أعمّ سماحاً من سماحةِ حاتمٍ وأعظم بأساً من بَسَالةِ عَنْتَرِ

وقوله [٢] :

هَدْىٌ كَهَدْىِ رسولِ الله متَّبَعٌ ما سار آلُ رسول الله فى السِّيَر
وعزمةٌ كلُّ حدٍّ من صَرامتها أمضى من الموت أو أمضى من القدَر
لو أن هَيْبته أو بعضَ هيبتِهِ تُلْقَى على الفلك الدوَّار لم يَدُر

ونسيجه اللفظى متين قوى ، وكلماته تروق السمع بجرسها وبحسن انتقائها ، إذ كان يعرف كيف يصطفى لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها وتلذ اللسان حين ينطق بها وهو بحق صائغ ماهر . وممدوحه الثانى بعد المظفر فى ديوانه الإمام الزيدى أحمد بن الحسين ، وفيه يقول فى إحدى مدائحه [٣]

حفظ الله أحمداً حيثما كا نَ وجادتْه دِيمةٌ مِـدْرارُ
الشريفُ الشريفُ والجوهرُ الجو هر والخالص النُّضَارِ النُّضارُ
سيِّدٌ أمُّه البَتولُ وجَدَّا هُ المُثَنَّى وأحمد المختارُ

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، والمثنى : الحسن بن الحسن بن على جد الممدوح وأحمد المختار الرسول ﷺ . وواضح ما فى لفظ ابن هتيمل من سهولة وعذوبة ، وهو عادة يقدم لمدائحه بغزليات تسيل رقة وخفة . كقوله فى مقدمة هذه القصيدة :

---

(١) انظر فى هذا الخبر مقدمة الديوان .
(٢) الخزرجى ١/١٥٩ .
(٣) الديوان ص ١٥٥ وشعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم ص ١٧٩ .

ياقَضيباً من فِضَّةٍ يُقْطَفُ النَّرْ جِسُ من وَجْنَتَيْهِ والجُلَّنارُ
قمرٌ طَوْقُه الهلالُ ومن شمـ ـسِ الدياجى فى ساعديه سِوارُ
عجباً منكِ تحت بُرْقعك النا رُ وفيه الجنَّات والأزهارُ
والليالى الطوالُ تنحتُ من جسـ ـمىَ ما أبقت الليالى القصارُ

وبيِّنٌ ما يتضمن هذا الغزل من روعة التصاوير، فالقد الرشيق لصاحبته قضيب أو غصن من فضة يقطف منه النرجس والجلنار إشارة إلى جمال عينيها وخدودها، وقلادة الفضة تطوِّق جيدها، بينما نور الشمس يلتف حول ساعديها سواراً، ويعجب أن تتوهج النار نار وجنتيها تحت برقعها بينما بجانبها الجنات من النرجس والجلنار والأزهار. وتطول به الليالى سهراً وسهاداً، حتى لتُضنيه، بل حتى كأنما تنحت جسمه، مخلِّفة له الألم والشحوب. ودائماً يلقانا هذا الغزل والنسيب الرائع فى مقدماته لمدائحه على شاكلة قوله فى استهلال مدحة ثانية لأحمد بن الحسين:

إذا جئتَ الغَضَا- ولك السلامَهْ فصارِحْ بالتحية رِيمَ رامَهْ (١)
وقل للوائليّة هل لروحى وما أتلفتِ من جسدى غَرامه
حَلَلتِ تهامةً وحللتُ نجداً فأينَ وأين نَجْدٌ من تِهامَهْ

وسارت القصيدة مسيرة أختها السابقة وعارضها كثير من الشعراء، ولا ريب فى أنه كان يغنَّى بها كما كان يغنى بأختها الرائية السالفة. ومن طريف نسيبه:

أراك تروحُ ما ودَّعتَ نَجْدا ولا أحدثتَ بالعَلَمَيْن عَهْدا
ولا صافحتَ أهل الرَّمْل كَفًّا فكفًّا فيه أو خَدًّا فخدًّا
ضلالٌ ما أتيتَ من التجافى ألا بُعْدًا لما أضمرتَ بُعْدا
وكيف سلوتَ عن أرضٍ بأرضٍ يَفُوحُ تُرابُها مِسْكاً ونَدًّا (٢)

والأبيات تسيل رقة وعذوبة، ويُرْوَى أن بعض الوجهاء فى اليمن جاءه طلب عاجل من أحد الأمراء بأن يفد عليه لأمر مهم، وكانت زوجته اتخذت زينتها له أوشيئاً من زينتها، فلما رأته يهم بالخروج تعرضت له منشدة قول ابن هتيمل.

أراك تروح ماودَّعتَ نَجْدَا ولا جَدَّدتَ بالعَلَمَيْن عَهْدا

فابتسم الزوج وأجَّل زيارة الأمير (٣). وفى هذا الخبر ما يشير بوضوح إلى أن أهل اليمن رجالاً ونساء كانوا يتداولون شعر ابن هُتَيمل فى حياته وبعد مماته. وكان المغنون يتغنون فى بعض

(١) الغضا: من شجر نجد وبواديها. الريم: الظباء. ورامة: موضع بنجد.
(٢) الند: عود يتطيب به، طيب الرائحة.
(٣) مقدمة الديوان ص ٨.

أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسيب وما تذيع من ثناء ومديح . وله مراثٍ لزوجته وبعض أهله تفيض بالأسى واللوعة الممضة كقوله فى أخ وأخت له ماتا فى أسبوع واحد :

مضتْ ما ابيضَّت الضَّفِراتُ منها ... ومات وما بدا شَعَرُ العِذارِ
فأيُّهما على الخلوات أَبْكى ... أبدرُ التَّمِّ أم شمسُ النهارِ

وفى الحق أن ابن هتيمل كان شاعراً مجيداً سواء فى مراثيه أو فى غزله ونسيبه أو فى مدائحه ، وهو فى المدائح يسجل أحداث عصره وما كان فيه من وقائع حربية ، وخاصة حروب السلطان المظفر ، مما جعل الخزرجى ينشد كثيراً من أشعاره فى العقود اللؤلؤية .

أحمد بن سعيد الخروصىّ الستالىّ [1]

عُمانى من وادى خَروص ، ومن قرية منه تسمى ستال ، وفيها ولد سنة ٥٨٤ وبها نشأ وتلقن الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفى هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كانت منتشرة فى كل ركن من أركان الجزيرة ، بل فى كل قرية ، ومثلها الثقافة الإسلامية ، فقد كان الناشئة يبدءون بحفظ القرآن ، ويقعدون فى حلقات بعض الشيوخ لسماع العظات وشىء من التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية . ولما شب الستالى عن الطوق غادر قريته إلى عُمان ، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء فى عصره . وحين أنس من نفسه تدبيج المدائح قصد بها حكام عمان السنيين من بنى نبهان ، ويسجل شعره كثيراً من أحداث زمنه ، وخاصة ما كان بين بنى نبهان وبين الفرس من حروب ، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم ، غير أنهم كانوا يعودون دائماً مدحورين على نحو ما يصور ذلك الستالى فى مديحه للأمير النبهانى كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك فى مديحه للأمير النبهانى عُمر بن نبهان بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه نبهان وعمه أبو القاسم على وكذلك عمه محمد تتردد أسماؤهم فى مدائحه ومراثيه فى الديوان ، من ذلك قوله فى أبى القاسم على مادحاً ومهنئاً بالعيد :

أبا القاسم الميمونَ أوتيتَ فى الدُّنَى ... من الفضل ما لم يُؤتَ عُجْمٌ ولا عُرْبُ [2]
لك الشِّيَمُ الغَرَّاءُ والهمم العُلا ... وأنت السِّنانُ الصَّدْقُ والمُرْهَفُ العَضْبُ [3]
أبا القاسم اسْلَمْ وَابْقَ للمجد وادعاً ... وحَلَّ بشانيك المخافةُ والرُّعْبُ

---

(١) انظره فى تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمى ١ / ٣٠٣ وراجع مقدمة ديوانه .

(٢) الدُّنَى : جمع دنيا .

(٣) المرهف : السيف . العضب : القاطع .

وعَيِّدْ سعيداً فى علاءٍ ورفعةٍ وطول يدٍ مالاحتِ السَّبْعَة الشُّهْبُ (١)

وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة ، وفيه استواء وتناسق وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكم كلمه ويصوغها صياغة جيدة دون أى نبوٍّ والتواء ، وله يمدح نبهان بن عمر من قصيدة طويلة :

أنبهانُ إنك من عصبةٍ نَماها إلى المجد قَحْطَانُها
همُ العين فى يَعْرُبٍ كلِّها وأنت من العَيْن إنْسانُها
إذا طُلِبَتْ مكرُمات العلا بدا فى جَبينك عُنْوانُها
فعشتَ وبُلِّغْتَ من سَيِّدٍ مُنـــاكَ وسرَّك لُقْيانُها
ولازال يغدوك فى نعمةٍ شبابُ الحياة ورَيْعانُها

والأبيات تصافح الآذان فى خفة ، وهى تموج بالحركة ، وكأنما أعدَّها لكى تغنَّى وتملأ الحلوق بحلاوة رنانها ، وانظر إلى تكملة البيت الرابع : «وسرَّك لقيانها» فإنك تحس القدرة على تكملة البيت بقافية تروعك ، إذ لم تكن تتوقعها ، وكنت تحار كيف يأتى بها .

ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق ، ففى أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل تكريت وهيت والجزيرة ، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرقى تنزانيا ، ونراه يمدح سَبَّخْت وغيره من أعيانها ، وفيه يقول :

إذا أنت أبصرتَ فى الدَّسْتِ سَبَّخْـ ـتَ كالشمس أنكرتَ خلقَ العبادِ
سما بمعالٍ وفضلٍ كمالٍ وحُسْنِ فعالٍ وصَفْوِ اعتقادِ
جرىءُ القتال غداةَ النِّزالِ ببيض النِّصال وسُمْرِ الصِّعادِ (٢)

ويكثر من تقديمه لمدائحه بالنسيب ، وهو – كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من التغزل بالأعرابيات ووصف جمالهن وسحرهن وكيف يشغفن القلوب ، وخاصة حين يرحلن ، فتتبعهن الأفئدة ، من مثل قوله :

لمن الظعائنُ ظُلَّعُ الأحْدَاجِ وقفتْ لشأنٍ وانثنتْ لمعاجِ (٣)
رفعوا هوادجَ كالسَّفين وكِنَّهُ محفوفةً بالوشْيِ والدِّيباجِ (٤)
فيهن كلُّ معيدةٍ عُلَّقَ الهوى بجمالها ودلالها الخَلَّاجِ (٥)

وهو يبدئ ويعيد فى وصف هذا الترحال الذى يقف أسباب المودة والحب ، والذى

---

(١) السبعة الشهب : الكواكب السبعة السيارة .
(٢) الصعاد : جمع صعدة وهى القناة .
(٣) الأحداج : الهوادج . معاج : انعطاف .
(٤) الكنة : منارة الهودج .
(٥) علق : جمع علقة وهى التعلق . الخلاج : الخلاب .

يملأ قلوبَ العشاق فى البوادى فتنة وإغراء وصبابة ، ويذيبها أسى وحسرة ، فتذكر العهود والأطلال والربوع وأكناف الحمى ، وقد غابت الأقمار وأظلمت الدنيا ، وعم المحبين اليأس وتعمقهم الحزن . وقد يجعل الستالى المقدمة لقاء بهيجاً على شاكلة قوله :

قَصَرْنَ الخُطا وهَزَزْنَ الغُصونا ... وَرَقْرَقْنَ تحت النِّقاب العُيونا
ووشَّيْنَ بالتِّبْرِ بِيضَ التراقى ... وغَشَّيْنَ سودَ الفروع المتونا
وأقبلن يَخْطِرْنَ مَشْىَ الهَوَيْنَى ... ويُبْدين من كل حسنٍ فنونا
فلما عَرَضْنَ لنا سافراتٍ ... أَعَدْنَ الهوى وبَعَثْنَ الشُّجونا

والأبيات تصور فرحة الستالى باللقاء وبرؤية صاحبته تسير وسط صواحبها ، وقد ترقرقت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن ليبدين زينتهن ، ويخطرن دلالاً ، ويسفرن عن وجوههن ، فتتلألأ الدنيا بجمالهن من حول الستالى ، ويعود الحب كما كان فتنة لا يستطيع إفلاتاً منه ولا خلاصاً . وللستالى خمريات ، يجمع فيها بين وصف الرياض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله :

هاتِ اسقنى الرَّاحَ فى راووقِها عَلَلا ... وعاطِنى فى الحديث اللَّهوَ والغزلا
أما ترى نفحاتِ الصيف قد نشرتْ ... من النبات على وَجْه الثَّرى حُلَلا
والروضُ يختال فى زَهْرِ البهاء وقد ... غدا الثَّرى بفنون الوَشْى مشتملا
وشادنٍ يتهادى فى الصِّبا غَيَداً ... مَيْسَ القضيب تثنَّى ثُمَّت اعتدلا (١)
يَسْعَى علينا بنورٍ فى زجاجته ... لولا حدوثُ مزاجِ الماء لاشتعلا
وقينةٍ أنطقتْ صوتَ الكِران وقد ... غنَّتْ بَسيطاً على الأوتار أو رمَلاَ (٢)
والشَّرْبُ قد مزجوا صَفْواً خلائقهَم ... كما مزجتَ بماء المُزْنة العَسلا

ونحس بروح أبى نواس تطلّ علينا من خلال هذه الخمرية التى تصور مجلس أنس فى بستان وساقية تتثنى جمالاً ، تسعى على الشَّرْب بِدَنِّ الخمر أو دنانها ، وقينة تشدُّ أوتار العود وتغنى عليه ألواناً من الغناء ، وكأننا فى مجلس من مجالس أبى نواس التى كانت تزخر باللهو والقصف . وهذا الجانب فى ديوان الشاعر يلتقى بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة . ويتضح ذلك فى مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء ، وله ميمية كلها ثناء على الله وآلائه ، وقد ختمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل .

---

(١) عيدا : لينا وتثنيا . ميس : تميل . والصنج . والبسيط والرمل من أوزان الشعر .
(٢) الكران : من آلات الطرب ويسمى به العود

وتكثر فى أشعاره الحكم وربما كان يأتسى فيها وفى غزله بالأعرابيات البدويات بالمتنبى . وربما كان يأتسى به أيضاً فى شكواه الكثيرة من الدهر وما يصبُّه عليه وعلى الناس من فواجع وكوارث . وفى ديوانه بعض مخمسات طريفة ، وله لامية كلامية كثيرٌ يلتزم فى نهايتها أو قافيتها اللام قبل التاء . ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعاً فى أشعاره ولا متكلفاً ، وكأن ما وُهبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعاً إلى أن تكون أشعاره سلسة سائغة .

علىّ بن المقرَّب العُيونى[1]

شاعر من أسرة العُيونيِّين حكام الأَحْساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عاماً إذ توفى سنة ٦٣١ وديوانه يصور ثقافة لغوية وأدبية وإسلامية ، وهو يمتلئ بإشارات تاريخية ، إذ كثيراً ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم وملوكهم وملوك الفرس الأولين . ومما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته لقصائد المتنبى والشريف الرضى ومهيار ، مما يؤكِّد أنه أكبَّ على دواوين الشعراء النابهين وخاصة هؤلاء الثلاثة يتزود منها ويتخلَّق فيها . ويبدو أن الشعر جرى على لسانه فى باكورة حياته ، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبى الحسين (٥٨٤ – ٦٠٣) وهو أهم أمراء الأسرة العيونية جميعاً ، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء وجزرها مثل أُوال التى يطلق عليها الآن اسم البحرين . ودانت له قبائل نجد الشرقية ، ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بحفارة الحجاج من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مع رسم سَنِىٍّ فَرَضَه له . وفيه يقول على بن المقرب :

رِماحُ الأعادى عن حِماك قصارُ ... وفى حَدِّها عما تروم عِثارُ
وكلُّ امرئٍ ليستْ له منك ذِمَّةٌ ... يُضامُ على رَغْمٍ له ويُضَارُ
فَعِشْ فى عظيم الملك ما لاح كوكبٌ ... وأظلم ليلٌ أو أضاء نهارُ

ويحدث أن تفكر طيئ فى قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً شديداً ، ويشيد ابن المقرب ببسالته فى الحرب وانتصاره . وتضع بعض قبائل الشام يدها فى يد طيئ وتحاول الإغارة على الحجاج ، فيمزقهم محمد بن أبى الحسين شر ممزق . ويعم الأمن ربوع البحرين ونجد الشرقية جميعاً ، غير أن يداً آثمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع ،

(١) انظر ترجمته فى ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد ومقدمات طبعات ديوانه وقد طبع فى الهند ودمشق والقاهرة . وراجع مقالاتنا عنه فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء الثامن والثلاثين .

فتغتاله ، ويبكيه شاعره ويندبه ندباً حاراً بمثل قوله :

لِيَبْكِ العُلا والمجد والبأسُ والنَّدَى ... لقد صَلَّ واديها وَجَفَّتْ مسايلُه[1]
وتَنْدُبه البِيض الصوارمُ والقَنا ... لما أنهلتْها كفُّه وأناملُهْ
لقد مُنِيَتْ منه الأعادى بثائرٍ ... هُمامٍ أَبَى أن يَحْمل الضَّيْمَ كاهلُه

وطبيعى أن لا تفتح أبواب قاتليه الذين خلفوه فى دست الحكم لابن المقرَّب ، بل لقد زَجُّوا به فى السجن وصادروا أمواله ، ورُدَّت إليه حريته وخرج من السجن فرحل إلى العراق ، ونزل البصرة ومدح حاكمها باتكين بن عبد الله الرومى فى سنة ٦٠٥ ودخل بغداد ومدح الخليفة الناصر ، وتعرَّف على بعض علمائها وأدبائها . ورأى العودة إلى موطنه وأن يحمل معه طائفة من أعمدة الحديد للاتجار فيها . وألمَّ بواسط فى طريقه فطالبه ابن الدبيثى ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته ، فصبَّ عليه جام هجائه بمثل قوله :

يابن الدَّبيثىِّ اللعين لقد ... رمتَ المحال فغُصتَ فى بَحْرِ
خُنْتَ الخليفةَ فى رعيَّته ... وعَصَيْته فى السرِّ والجَهْرِ

ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب ، أو بالضريبة المقررة ، فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة ، وينشده مدحة طويلة يقول فيها :

يا شمسَ دينِ الله كم لك من يدٍ ... يُثْنِى بها بادٍ ويشهد حاضرُ
ادْفَعْ بجاهك أو بمالك مُنْعماً ... عَنِّى فـإنَّك للعُفَاةِ ذَخائر

ويعود إلى موطنه ويقدم مدائحه إلى أمير الأحساء محمد بن على بن عبد الله الذى ردَّ إليه حريته ، ويأمل أن يرد عليه أمواله وبساتينه ، ولكنه لا يرد عليه شيئاً . ويحدث أن ينهض الفضل بن الأمير محمد بن أبى الحسين بأخذ الثأر لأبيه من قتلته ، ويصبح الحاكم العام للبحرين ، ويقدِّم إليه على بن المقرب مدائح كثيرة ، ولا يَحْظَى منه بشىء أو بما كان يأمله . وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه على بن ماجد ، وتثور معه البحرين لتوقيعه معاهدة بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين ، مع تقديم خمسمائة دينار له سنوياً ، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويدبج فى على بن ماجد مدائح كثيرة من مثل قوله :

أضحتْ بِك الأحساءُ ساكنةً وقد ... رجفتْ بمن فيها وكادتْ تُقْلَبُ
وملأتَها عَدْلاً وكانت عُمِّمَتْ ... جَوْراً تغورُ به الدِّيار وتَخْرَبُ

(١) صل : أجدب .

ويثور مقدم بن غَرير العيونى ، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية . ويئس ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم ، فأبناء الأسرة يتحاربون ، والحكم يفسد ويضعف . ويولّى وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين والى البصرة والخليفة ببغداد فى سنتى ٦١٣ و ٦١٤ . ويعود إلى موطنه ، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود ، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذى تحولت إليه مقاليد الأمور بعده ، بمثل قوله :

رفعتَ عمادَ المجد من بعد ما وَهَى ... ورَثَّ وأضحى رُكْنُهُ وهْوَ مائلُ
وقمتَ بأحكام الشريعة فاستوتْ ... لديك ذوو الأجبال : طَيٌّ ووائلُ

ويترك البحرين إلى العراق فى سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين فى طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر ، ويوغل فى رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤ مدبِّر الحكم فيها لسلطانها القاهر بن نور الدين أرسلان شاه ، وفيه يقول :

أرسى قواعدَ ملكٍ لو يدبِّرُهُ ... كسرى وإسكندرٌ أعيتْهما الحِيَلُ

ويمد رحلاته إلى الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبى صاحب حرّان وديار الجزيرة ، ويشيد ببلائه مع أخيه سلطان مصر الكامل فى قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم سحقاً ذريعاً حين أغاروا عليها فى السنوات ٦١٥ – ٦١٨ وفيه يقول من مدحة طويلة :

سل الكُفْرَ من أوْهَى بدمياطَ كفرُه ... وقصَّر أعْلَى فرعه وهْو باسقُ
وقد جاءت الإفرنجُ من كلِّ وِجْهةٍ ... كأنَّ تَداعيها السيولُ الدوافق
فولَّوا فكبوبٌ على أمِّ رأسِهِ ... لَدُنْ ذاكَ لم يَنْفُقْ وآخر نافق [1]

ويعود ابن المقرب إلى موطنه ، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده ، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بنى عُقَيل ، فأفسدوا زروعها وثمارها ، حتى أصبح البستان الذى تبلغ قيمته مائتى دينار يباع بدينار واحد أو بثوب أو بشاة ، ويأسى لذلك فى شعره أسى عميقاً . وشعر ابن المقرّب يعدُّ بحق سجلاً تاريخيًّا لأسرته وحكمها البحرين ، فكل من عاصرهم صوَّر حكمهم وأحوال البلاد فى أيامهم ، وله قصيدة ميمية سجَّل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه ، مفاخراً مباهياً ، وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن على قضى على القرامطة وما أذاعوا فى البلاد من عقيدتهم الفاسدة ، يقول :

سَلِ القرامطَ من شَظَّى جَماجمهم ... فَلْقاً وغادرهم بعد العُلا خَدَما [2]

(١) ينفق : يهلك .
(٢) شظى : حطم .

ويسترسل مبيناً أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد ، فطهر البلاد منهم ، ويمضى فى القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان . والديوان يمتلىء بفخر عنيف . وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأعمالهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضاً جوانب من أعمال الخليفة الناصر ، وكذلك واليه باتكين حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله :

بنى بالبصرة الفَيْحاءِ سُوراً ... يُضاهى السَّدَّ سَبْكاً وانعقادا
وزيّنها بأسواقٍ أرانا ... بها كلَّ البلاد لها سوادا [1]
وكم من مشهدٍ ورباط زُهدٍ ... ومدرسةٍ بَنَى وهُدًى أفادا

ويردد فى مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة ، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة فى تاريخ عصره ، ولا نبعد إذا قلنا إنها هى الوثائق الوحيدة فى تاريخ الدولة العيونية ، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون .

عبد الصمد بن عبد الله باكثير [2]

الشعراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجرى ، أما عبد الصمد بن عبد الله باكثير فمن شعراء القرن الحادى عشر وهو حضرمى ، ولد فى تَرِيس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفى بحَضْرَموت فى سنة ١٠٢٥ . تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم فى مسقط رأسه ، واختلف إلى العلماء فى المدن الحضرمية . وحين سال الشعر على لسانه اتجه به أولا اتجاهاً صوفيًّا على عادة أهل إقليمه ، وأخذ يستغله فى مديح بعض الحكام والأعيان ، حتى إذا تحول صولجان الحكم فى حضرموت إلى عمر بن بدر أبى طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل ، وليس ذلك فقط ؛ بل أصبح أيضاً منشئ الرسائل فى عهده ، وكذلك فى عهد ابنه عبد الله (١٠٢١ – ١٠٢٤) . حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاءه من العمل بديوان الرسائل ، ولم يكد يدور العام حتى لبى نداء ربه . وجمهور مدائحه فى عمر بن بدر من مثل قوله :

---

(١) السواد : الريف بزروعة وقراه .

(٢) انظر فى ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبى ٢ / ٤١٨ وكتابه نفحة الريحانة ٣ / ٥٤٦ وملحق البدر الطالع ص ١٢١ وسلافة العصر ص ٤٦١ وتاريخ حضرموت السياسى ١ / ١٣٣ ، و٢ / ١٧١ وتاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٩٠ وله ديوان كبير لما يطبع .

عُمَرُ الذى أَحْيا المكارمَ وابْتَنَى للمجد بيتاً دونه الجوزاءُ
فيه الزمانُ تفاخرتْ أيامُه وتعطَّرتْ بوجوده الأحياء
ملكٌ تفجَّر من منابع مجدهِ كرمٌ وحلمٌ واسعٌ ووَفاء

وكان لا يزال يروح ويغدو عليه بمدائحه وخاصة فى أعياده وفى الاحتفال بانتصاراته ، مردداً دائماً الثناء على خصاله وشجاعته وكرمه ، ومن مدحة له فيه :

إذا نابنى خَطْبُ الزمان فإننى إلى عُمر الخيرات بى ينتهى السَّيْرُ
مواهبُه موصولةٌ بمواهبٍ إذا ضنَّتِ الأنواءُ واحتبَس القَطْرُ (١)
له فى النَّدا أيدٍ تَسُحُّ بَنَانُها لُجَيْناً وإبْريزاً ونائلُه غَمْرُ (٢)

ومن مدحه الرصين فى عمر بن بدر تهنئة له بانتصاره على بعض أعدائه من رجال القبائل الثائرين عليه وعلى حكمه ، وفيها يقول مهنئاً :

نصرٌ عزيزٌ من الرحمن قارنَه فَتْحٌ وطالِعُه بالسَّعْد يَبْتَدرُ
من كان معتصماً بالله كان له عَوْناً وسار بما يختاره القَدَرُ
لما تألَّبتِ الأعداءُ واعتصموا بِحَبْل غدرهمُ باءوا بما غدروا
فأمكن الله منهم فانثَنَوْا هَرَباً كمثل مانفرتْ من قَسْوَرٍ حُمُرُ (٣)

وكان يخلص للسلطان عمر بن بدر إخلاصاً مصفى ، ولذلك أكثر من مديحه ، حتى إذا توفى أحس بحزن بالغ ولوعة ممضَّة ، مما جعله يرثيه مراثى حارة يبكى فيها خصاله الكريمة وما فقدته رعيته فيه ومحبوه من جود وعون وعفو عند المقدرة من مثل قوله :

هَوَى من سماء المجد كوكبُها القُطْبُ فأظلمَ فى أقطارنا الشَّرْقُ والغربُ
تضعضَع طَوْدُ المجد وانهدَّ ركنُه فيالك رُكْناً قد تضمَّنه التُّرْبُ
ثَوى عُمَرُ الخيرات أكرمُ من سعى إلى ساحِهِ تَطْوى سَبَاسِبها النُّجْب (٤)
لقد كان للعافين ظِلاً وملجأً وللجاهل الإغضاءُ والصَّفْحُ والعَتْب (٥)

وله مرثية ثانية فيه تكتظ بزفراته ولوعاته . وله غزل رقيق يزخر بمشاعر فياضة ، تدل على أنه كان يحب أحياناً وجداً شديداً ، حتى ليقع فى شباك بعض النساء ،

---

(١) الأنواء : الأمطار .
(٢) تسح : تهطل . اللجين : الفضة ويريد الدراهم . الإبريز : الذهب ، ويريد الدنانير . والنائل : العطاء . غمر : كثير .
(٣) قسور : أسد . الحمر : حمر الوحش .
(٤) ساح : جمع ساحة . السباسب : المفاوز . النجب : الإبل الكريمة .
(٥) العافون : طلاب المعروف .

ويطول تعثره فيها ، وقد انقطعت به الحيل فى الخلاص فيفزع إلى دموعه ، على شاكلة قوله :

يا ظَبْيَ وادى الأَجْرَعِ رِفْقاً بصبٍّ مولَعِ
يبكى أسًى وصَبابةً بكـــــآبةٍ وتوجُّــعِ
ودموعُه فوق المحَا جرِ كالغيوث الهُمَّع [١]
ويقول من وجدٍ ومن كمَدٍ بقلبٍ موجَعِ
حيَّا المرابعَ والرُّبَا غيثٌ كفائض أدمعى
يَهْمى على تلك الذُّرَا بِ بوابلٍ لا يُقْلِعِ

فهو يبكى بدموع غزار لا تزال تنهمر كأنها أمطار ، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة ، كلها أوجاع وأوصاب وآلام . ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله :

ولى من العُرْبِ ظَبْيٌ مارأى بصَرِى شِبْهًا له فى الورى بَدْواً ولاحَضَرا
الوردُ فى خَدِّه المحمرِّ من خَجَلٍ يدعو إلى حُسْنه الفتَّانِ مَنْ نظَرا
كم ليلةٍ زارنى فيها على وَجَلٍ مستعجلاً خائفاً مستوفزاً حَذِرا [٢]

وتصويره لخوف المحبوبة فى البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع ، فهى عجلة حذرة لا تكاد تطمئن ، واختار بدقة شاعريته كلمة «مستوفزاً» ليصور فيها هذه الحركة النفسية ، فكأنها دائماً مستوفزة تهيأ لفراقه وتتأهب لوداعه . وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصَّحْب ، مصوراً بذلك بعض مجالس أنسه كقوله :

تلاعبتْ مَرَحاً فى روضها القُضُبُ كشاربى خَنْدَريسٍ هزَّهم طَرَبُ [٣]
قُمْ يا نديمى فقد نادى الهَزارُ إلى صَهْبَا مُشَعْشَعَةٍ تُجْلَى بها الكُرَبُ [٤]
يديرها رَشَأٌ كالشمس طَلْعَتُهُ وكفُّه بِدَمِ الصَّهْباء مختضِبُ
فى روضةٍ أخذتْ بالزَّهْر زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وتَجلَّتْ كلّها عجَبُ

ولم يكن اللهو غالباً على حياته ، فمثل هذه الخمرية ومَيضٌ كان يلمع حيناً فى سمائها وسرعان ما يخبو ، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته بائساً يشكو الفاقة قبل اتصاله بعمر بن بدر أميره ، ولذلك نجد عنده قطعاً يشكو فيها من حظه العاثر ، نذكر منها قوله :

---

(١) الهمع : الهاطلة السائلة .
(٢) مستوفزا : متحفزا للقيام .
(٣) القضب : الأغصان . الخندريس : الخمر .
(٤) الهزار : طائر صغير الحجم حسن الصوت . الصهباء : الخمر . المشعشعة : الممزوجة بالماء .

أرانى إذا ما الليلُ جاشتْ كتائبُهْ أبيتُ وقلبى حائرُ الفكر ذاهبُهْ
تبيتُ أفاعى الهم فى غَيْهب الدُّجَى تُساورُ قلبى بالعَنا وتُوائِبُهْ[1]
ومالىَ فيها قد دهانىَ حيلةٌ أُدارى بها دهرى إذا ازورَّ جانبه[2]
فياربِّ ياذا المَنِّ والفضل والعَطا أغثْنى فموجُ الهمِّ فاضتْ غَواربُهْ[3]

وتصوير عبد الصمد الهم بأفاع لا تزال توائبه طوال الليل تصوير طريف ، وشعره فيه سهولة وعذوبة ويجنح كثيراً إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية . ولعل ذلك ما جعله ينظم بعامية موطنه بعض أشعاره . وكان يستخدم الموشحات أحياناً فيجيد فيها لسلاسة ألفاظه وكلماته .

٤

شعراء المراثى

بجانب مجرى المديح الذى كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفق مجرى الرثاء ، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا وال ولا قاض فى أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأبيناً يفيض بالأسى والحزن ، وكثُر فى هذا العصر تأبين الشيوخ والفقهاء والمعلمين ، يؤبنهم تلاميذهم وزملاؤهم ويبكون فيهم خصالهم وخسارة العلم والعلماء فيهم ، من ذلك تأبين شهاب الدين محمود بن مسكِّن القرشى الفهرى لشيخه نجم الدين الطبرى قاضى مكة ، وفيه يقول[4] :

ما للجفون بها التَّسْهِيدُ قد نزلا وما لطيب الكرَى عن مُقْلتى رَحلا
ما بالُ قلبى بتَذْكار الهموم له شُغْلٌ ودمعىَ إن كَفَفْتُه هَملا
نجمٌ أضاء علينا صُبْحُ طُرَّته حتى إذا ما انجلتْ أيامه أفَلا
مفتاحُ كنزِ علوم الدين كم فُتِحتَ به بصائرُ قومٍ للوَرَى ذُلُلاَ

ووراء مراثى الشيوخ والعلماء فى الحجاز مراث كثيرة فى أمراء مكة الزيديين حين يلبون نداء ربهم ، وبالمثل تلقانا مراثٍ كثيرة للأئمة الزيديين فى اليمن ، كما تلقانا مراث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليحيين وآل زريع ، وسنعرض لها فى حديثنا عن

---

(١) تساور : توائب .
(٢) ازور : مال وانحرف .
(٣) غواربه : أعاليه .
(٤) العقد الثمين ٣ / ٣٢ .

شعراء الدعوة الإسماعيلية .

وفى كل زمن وكل دولة تلقانا مراثى الشعراء ، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مراثى كثيرة على نحو ما نجد فى ديوان ابن هُتَيْمل ففيه باب خاص بالمراثى ، وهى تتردد عنده بين الندب والتأبين ، أما الندب فعلى أبنائه وإخوته ، وزوجته وقد بكاها فى مرثيتين ، يقول فى إحداهما [١] :

يعزّ علىّ أنْ عَظُمَ المصابُ ... ولا صَبْرٌ لدىَّ ولا احتسابُ
بنفسى عَصْرَ يومِ السَّبْت نَعْشٌ ... تداولهُ المناكبُ والرِّقابُ
من الخَفِرات يُخْفِى الليلُ منها ... إذا ما جَنَّ مالا يُسْتَرَابْ
تكفَّنُ فى الثياب فليت جلْدى ... لها كَفَنٌ وليت دمى خِضاب

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة ، مشاعر شخص اكتوى قلبه بالحزن على زوجته ، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعاراً تعبر عن لوعته وما يكتظ به فؤاده لها من وجد وصبابة . وله تأبين لبعض أمراء المخلاف السليمانى وحكام مسقط رأسه « نَجْران » بوادى « ضِمْد » من ذلك تأبينه لحاكمها « سلطان » صاحب ضِمْد جميعها بمثل قوله [٢] :

الرُّزْءُ أكبر أن يقوم بيومه ... جَزَعُ الرجال ورَنَّةُ النسْوَانِ
ويلٌ لأمِّ الأرضِ ماذا ضُمِّنَتْ ... من أَعْظُمٍ أُدْرِجْنَ فى الأكفانِ
ذاك النَّدى والبأْسُ بين حَفِيرةٍ ... أطباقُها طُوِيَتْ على ثَهْلانِ
إن التمسُّك بالسماح وبالوَفا ... من بعده ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرسوليين إلا ويكثر الشعراء من تأبينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به فى دولته ، وربما بالغوا فى بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تبكيه ، على شاكلة افتتاح الخزرجى لرثائه السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول [٣] :

بكتِ الخلافةُ والمقامُ الأعظمُ ... والمُلْك والدِّين الحنيفُ القَيِّمُ
والشمسُ والقمر المنير كلاهما ... والأرضُ تبكى والسَّما والأنجم
والبَيْتُ والحرَمُ الشريف بمكةٍ ... والحِجْرُ والحَجَرُ اليمانى الأَسْحم [٤]

---

(١) الديوان ص ٨٣ .

(٢) الديوان ص ٩٧ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٢ / ١٦٠ .

(٤) الحجر بكسر الحاء : ماحواه الحطيم بالكعبة . الأسحم : الأسود .

ومدارسُ العلم الشريف وأهْلُه والمسلمون فصيحهُم والأعجَمُ

فالعالم كله يبكى الأفضل والحرم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه . ومضى يصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه وانصياع أمراء اليمن له وعدله الذى عمَّ به رعيته . ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة تنوح وتلطم والأرض راجفة تميد وتهتز والجو مغبرًّامظلما وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل بيت مأتم . وكل هذا إسراف فى التأبين ومبالغات مفرطة . ويتولى الحكم بعده ابنه الأشرف ، وله مآثر كثيرة ، وتتوفى زوجه فى سنة ٧٩٦ فيرثيها جماعة من الشعراء ، وهى ظاهرة كانت تشيع فى اليمن منذ عصر الصليحيين ، إذ تؤبَّن سيدات الأمراء ، وتُعْقد لتأبينها الاحتفالات ، ويتبارى الشعراء فى وصف فضائلها وبكائها وندبها ندباً حارًّا ، بمثل قول الخزرجى [١] :

بكتْها السما والأرضُ يومَ وفاتها وأمسى سحابُ الأفْق أدمعُه تَسْرِى
على وجهكِ الميمون حيًّا ومَيِّتا سلامٌ يزيد العِطْرَ عطراً إلى العطرِ
سلامٌ على ذاك الجبينِ ورحمةٌ على شخصك المدفون فى ذلك القبر

ويتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبى بكر المقرئ فيه مرثية بديعة [٢] .

ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة ، وهى تتردد بين الندب والتأبين والعزاء ، أما الندب فإننا نجد فى الكتاب شعراء كثيرين يبكون آباءهم مشيدين بتقواهم وعلمهم الفياض ، كقول محمد بن عبد العليم الخولانى فى رثاء والده [٣] :

تبكى عليه منابرٌ ومَحابرٌ تبكى عليه محاجِرٌ بدماءِ
فالله يُسْكنه الجِنانَ بفضله ويعمُّه بسوابغ النَّعْماء

وقد أطال فى وصف خسارة العلم والعلماء بفقده ، إذ يجعله مفسراً كالواحدى وقتادة وعطاء بن أبى رباح ، ومتصوفاً كمكى والغزالى ، ومحدثاً يدرس لطلابه صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك ، وفقيهاً شافعيا يتقن درس أمهات الفقه الشافعى من مثل الوسيط فى المذهب للغزالى والمهذب للشيرازى والروضة للنووى . ويكثر تأبين التلاميذ لشيوخهم من الفقهاء والمتصوفة ، وقد يخلطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوى فى شيخه عبد الله بن أبى بكر باحسن [٤] :

---

(١) العقود اللؤلؤية ٢ / ٢٥٤ .
(٢) نفس المصدر ٢ / ٣١٨ .
(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ٢ / ١٤٤
(٤) نفس المصدر ٢ / ١١٣ .

خطبٌ ألمَّ وهولٌ هائلٌ وردَا ونازلٌ فتَّتَ الأحشاء والكَبِدَا
وقد شُغفنا بدارٍ لا وفاء لها وشَمْلٌ سكانها أضحى بها بَدَدَا (١)
والمرء فيها كظلٍّ زائلٍ نَسَخَت أفياءه ظلماتُ الليل إذ وفدا (٢)
والطَّرْف باكٍ وإن الأرض تبكى أسًى كلاهما يَنْدُبان السيِّد السَّنَدا
تاجُ الكرام شريفٌ طاب عُنْصره لمطلب المجد فى الآفاق كم وردَا
نَسْلُ الأفاضل ينبوعُ الفضائل بل كنزُ الأماثل خيرُ الأكرمين نَدَا

وللشاعر نفسه مرثية ثانية فى شيخ آخر جعلها عزاء ودعوة إلى الإذعان للقضاء فالدنيا دار زوال وانتقال ، والأيام تمضى بالناس جميعاً إلى وادى الفناء والعدم ، والسعيد من سارع إلى المتاب واعتبر بمن يموتون كل يوم ، واتجه إلى ربه وعمل لآخرته . وهذه الصورة من المراثى كانت تعم فى كل مكان : فى عمان والبحرين ونجد ، فالمراثى دائماً ندب أو تأبين أو عزاء ، وقد تمتزج الصور الثلاثة . ومن طريف ما نقرؤه للستالى شاعر عمان من رثاء قوله فى أبى محمد بن نبهان المتوفى سنة ٦٧٤ للهجرة يؤبنه :

رُزِئْنا هُمَاماً يَعْلم الأزدُ أنه إذا خطرتْ صِيدُ الملوك خَطِيرُها (٣)
تبوَّأ من قحطانَ بَيْتاً تُقِلُّهُ قواعدُ بنيانِ العَتيك وسورُها (٤)
فطال به أَصْلُ المعالى وفَرْعها وطاب له خَيْرُ المساعى وخِيرُها (٥)

ولابن المقرب العيونى مراثٍ مختلفة فى بعض القضاة وبعض أهله ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث شاعرين من شعراء المراثى هما : محمد بن على التهامى وجعفر الخَطِّى البَحْرانى .

التّهامى (٦)

هو أبو الحسن على بن محمد الشاعر المشهور بلقبه التهامى أى المكى ، إذ تسمى مكة باسم تهامة ، ولذلك يقال الرسول ﷺ تهامى ، لأنه من مكة . وتطلق تهامة على الساحل الممتد على طول الجزيرة شرقى الحجاز بين مكة واليمن ، ولكن نسبة الشاعر إنما هى إلى مكة

(١) بددا : متفرقاً .
(٢) أفياءه : ظلاله
(٣) الصيد : السادة .
(٤) العتيك : عشيرة ابن نبهان الأزدية .
(٥) خيرها بكسر الخاء : خيارها .
(٦) انظر ترجمة التهامى فى تتمة اليتيمة ١ / ٣٧ ودمية القصر ١ / ١١٠ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٦٣ وشذرات الذهب ٣ / ٢٠٤ وابن خلكان ٣ / ٣٧٨ وعبر الذهبى ٣ / ١٢٢ وديوانه مطبوع بمطبعة الأهرام بالإسكندرية سنة ١٨٩٣ .

إذ ينسب نفسه إليها فى بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن فى آخر حياته كما سيأتى قائلاً عن نفسه :

وهذا التهامىُّ من مكةٍ برجليه يَسْعَى إلى حَتْفِهِ

ولا يُعْرَفُ زمن مولده ، وتدل مدائحه فى الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق والموصل وديار بكر ، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد وميَّا فارقين وآمِد ونَصيبين ، وأيضاً بينهم قِرْواش (٣٩١ – ٤٤١ هـ) صاحب الموصل وبواديه . ويلاحظ أن ديوانه يخلو من مدائح أمراء مكة ، مما يدل على أنه غادرها مبكراً . ويبدو أنه بارح كل تلك الأنحاء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر ، وبها ألقى عصاه فى الرملة عند آل الجراح أمراء طيئ ، وقد عينوه خطيباً لبلدتهم . وفى ديوانه مدائح مختلفة لأميرهم المفرَّج دَغْفل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين ، وعاش فى رحابه ورحاب ابنه حسان (٤٠٤ – ٤٦٧ هـ) . وكانت نفسه حدثته بالشغب على الفاطميين – على عادة آبائه – فرأى أن يرسل التهامى إلى بنى قُرَّة فى صعيد مصر كى يحدثوا شغباً عليهم ، وأرسل معه كتباً كثيرة إليهم . فقدم القاهرة مستخفياً فى سنة ٤١٦ غير أن الفاطميين ظفروا به ، فاعتقلوه فى سجن خزانة البنود فى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وظل به إلى أن توفى – أو قُتل – فى تاسع جمادى الأولى من نفس السنة .

والتهامى يُعَدّ فى الذروة من شعراء الجزيرة فى هذا العصر ، وفيه يقول صاحب الدمية : «له شعر أدقُّ من دين الفاسق ، وأرقُّ من دمع العاشق ، كأنما رُوِّح بالشَّمال (الريح) أو عُلِّلَ بالشَّمول (الخمر) فجاء كنَيْل البغية ودرك المأمول» وقال ابن تغرى بردى : «كان من الشعراء المجيدين وشعره فى غاية الحسن» ونقل ابن خلكان عن ابن بسام قوله عنه فى كتابه الذخيرة : «كان مشتهر الإحسان ، ذرب اللسان ، مخلًّى بينه وبين ضروب البيان ، يدل شعره على فوز القِدْح ، دلالة بَرْد النسيم على الصبح ، ويُعْرب عن مكانه من العلوم ، إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم» . وقد اشتهر بمرثيات له فى ابنه أبى الفضل الذى هصرت المنون غصنه النضير تحت عينه ، وأهم تلك المراثى رائيته ، وهو يستهلها واعظاً ، بقوله :

حُكْمُ المنيَّة فى البَرِيَّة جارِى ما هذه الدنيا بدارِ قَرارِ
طُبِعَتْ على كدَرٍ وأنت تريدها صَفْواً من الأقْذاء والأكدارِ
ومكلِّفُ الأيام ضِدَّ طباعها متطلِّبٌ فى الماء جِذوة نارِ
والعيشُ نَوْمٌ والمنيَّة يَقْظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ سارى

فاقضوا مآربكم عِجالاً إنما أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفارِ
ليس الزمانُ وإن حَرَصْتَ مسالماً خُلُقُ الزمانِ عداوةُ الأحرار

وبمثل هذه العظات التى تمس دخائل القلوب وأعماق النفوس يفتتح التهامى مرثيته لفلذة كبده ، مصوراً الدنيا وكئوسها المليئة بالأقذاء وأيامها التى تدنى الآجال وتقطع الآمال ، وتجعل الإنسان دائماً بين يومين : يوم مضى بنكده وبؤسه ويوم بقى لا يدرى الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه ستنقطع دون غايته ، فتَخْرُج منه النَّفْس ويحل فى الرَّمْس ويتجه بعد هذا العزاء الذى يذيب فؤاده حسرات إلى بكاء ابنه الذى اختطفه الموت منه وهو لا يزال غَضًّا فى كِمَّه :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمرَه وكذاك عُمْرُ كواكبِ الأسْحارِ
وهلالَ أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ بَدْراً ولم يُمْهَلْ لوقت سِرَارِ[1]
جَاورتُ أعدائى وجاور ربَّه شتَّانَ بين جِواره وجِوارى
أُخْفى من الرُّقباء ناراً مثلما يُخْفى من النار الزِّنادُ الوارى
وتلهُّبُ الأحشاءِ شَيَّبَ مَفْرِقى هذا الضياءُ شعاعُ تلك النارِ

ويمضى فى وصف زفراته وعبراته ونيران الأسى تلذع فؤاده ، وقلبه يمتلئ حسرة وشقاء ونفسه تمتلئ لوعة وعناء ممضًّا ، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته كل ما أمكن من أذى وآلام ، وإن ذكرى ابنه لهى نفس هذه الآلام الثقال ، وإنه ليحس إزاءها بحريق لا يزال يأخذ بسويداء فؤاده . والمرثية تمتد إلى مائة بيت ، ومثلها فى الطول مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتاً وفيها يقول محزوناً :

محاكَ الرَّدَى من رأْيِ عينى وما محا خيالَك من قلبى وذكرَك من ذكرى

وهو من شعراء المديح المبدعين ، ويكاد المديح يستنفد شعره جميعه ، وهو فيه طويل النفس ، ومن خير مدائحه ما قدمه للمفرِّج الطائى وابنه حسان ، وفيه يقول :

فَتًى جُبِلَتْ يداه على العطايا كما جُبِل اللِّسانُ على الكلامِ
ويُسْراهُ لنَيْـــلٍ أو عِنـــانٍ ويُمْناه لرُمْحٍ أو حُسام[2]
لقد أحيا المكارمَ بعد موتٍ وشادَ بناءها بعد انهدام
بصَفْحة خَدِّه للبِشْر ماءٌ كمثل الماء فى صَفْحِ الحُسَامِ[3]

---

(١) السرار : ليالى آخر الشهر التى لا يظهر فيها القمر . (٣) الماء هنا : الرونق .
(٢) النيل : العطاء . والعنان : عنان الفرس .

سواءٌ عنده قولُ المنادى هَلُمَّ إلى الطِّعان أو الطعامِ

وواضح فى مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطْلق نفسه على سجيتها ، فيأتى بكثير من المعانى الطريفة والصور البديعة ، على نحو ما يلاحظ فى صورة البيت الأول ، فهى صورة بسيطة ، فالعطايا فى يد مفرج كالكلام فى لسانه لا يزال يرسلها ، ومثل هذه الصورة فى الطرافة صورة البيت الأخير ، فممدوحه لا يزال فى حشد من جوده وبأسه على طعامه وطعانه . وفيه يقول فى مدحة ثانية :

هو السالبُ الأعداء فى ساحة الوغَى ويَسْلُبه فى ساعة السِّلْم زائرُهْ
يخبِّرنا عن جوده بِشْرُ وجهِهِ وقبلَ انصداع الفَجْرِ تبدو بشائره
ويَصدُق فيه المَدْحُ حتى كأنما يسبِّح مِنْ صِدْق المقالة شاعرُهْ

والبيتان الأخيران تتضح فيهما الفكرة التى أشرنا إليها آنفاً وهى سهولة كلمه مع طرافة صوره ، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر ، ومن قوله فى مديح حسان بن المفرج من مدحة طويلة :

هو المَلْك يُبْلى بُسْطَهُ قبْل وقتها سجودُ ملوكٍ فوقها وقيامُها
بعيدٌ مَداه ليس تُألف كفُّه من المكرمات الغُرِّ إلا جِسامُها
ولو أن للأقمار ضوءَ جَبينه لما زال عنها نُورها وتمامُها
وليس بمشغولِ البَنان عن النَّدَى إذا شَغَلَ الكفَّ اليمينَ حُسامُها

وواضح تخلصه فى البيت الأخير من أن تكون بنان الممدوح مشغولة دائماً بالسيف ، فتُشْغَلَ عن العطايا والكرم ، وتكثر فى أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة . وله نسيب بالديار وغزل رقيقان ، وكثير منهما يقدِّم به مدائحه ، على شاكلة قوله فى إحدى مقدمات مدحة دالية :

أتروم تغطيةَ الهوى بجحودِهِ ونحولُ جسمك من أدلِّ شهودِهِ
كم قلتُ إياك الحجازَ فإنَّه ضَرِيَتْ جآذرُهُ بِصَيْد أسوده
وأردتَ صَيْدَ مَهَا الحجازِ فلم يُسا عدك القضاءُ فصرتَ بعض صُيودِهِ
أُخْفى هواه وهْو نارٌ مثلما يُخْفى الزنادُ ضِرامه فى عوده

والصورة فى البيت الثانى بديعة فظباء الحجاز أو جآذره تصيد أسوده ، ويحاول صيد المها فيصبح من صيودها ، ونار الحب كامنة فى فؤاده كمون نار الزناد فى عوده . ونحس دائما بأن الصور والمعانى طبيعية ، وكذلك الألفاظ فهى سلسة سائغة عذبة . وفى أشعاره حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعبها ، ومن طريف حكمه قوله :

وإذا جفاك الدَّهْرُ وهْو أبو الوَرَى طُرًّا فلا تَعْتِبْ على أولادهِ

فمن جفاه الدهر أو قلب له ظهر المجن ينبغى أن لا ينزل جام غضبه على الناس ، لأن ما أصابه إنما هو من أبيهم الدهر وليس منهم ، وماكان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه . والحق أنه كان شاعراً مبدعاً ، وكان الشعر طوع لسانه ومدَّ خيالاته ومشاعره .

جعفر الخَطِّىّ [١]

من قبيلة عبد القيس التى نزلت فى الأحساء والقَطيف وبواديها منذ العصر الجاهلى ، والخَطِّىّ نسبة إلى الخَطِّ وكان يطلق على مدينة القَطيف وعلى ساحل الإقليم كله ، ولا يُعْرفُ زمن مولده ، ويبدو أنه نشأ فى القطيف ، وفيها حفظ القرآن وتلقَّن على الشيوخ مبادئ الكتابة والقراءة والعربية ، وسال ينبوع الشعر على لسانه ، واتخذه – مثل لداته – حرفة يتكسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجرى ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة أوال التى تسمى فى عصرنا باسم البحرين ، حاملاً مدائحه إلى بعض أمرائها وقضاتها وعلمائها ، واستقبلوه استقبالاً حسناً ، وأسبغوا عليه بعض عطاياهم ، وخاصة وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيها عبد الرءوف البحرانى . ولا توافى سنة ١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلى إيران وينزل شيراز ، ويتردد بينها وبين أصفهان ، ويلتقى فى الأخيرة ببهاء الدين العاملى صاحب كتاب الكشكول ، ويعارض بعض قصائده ويعجب بهاء الدين به وبشعره ، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له فى العطاء مما جعله يفضل الإقامة فى إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة . وقد أشاد به وبشعره ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» قائلاً فى نعته : «البديع الأثر والعيان ، الحكيم الشعر الساحر البيان ، أتى بكل مبتدع مطرب ، ومخترع فى حسنه مغرب . وقد وقفت على فرائده التى لمعت ، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت» . ومن محاسن مراثيه مرثيته فى الشيخ أبى محمد حسين البحرانى سنة إحدى وألف ، وفيها يقول :

جَدَّ الرَّدَى سببَ الإسلام فانْجذما وهدَّ شامخَ دين الله فانهدما
نبكى فَتًى لم يحلَّ الضَّيْمُ ساحته ولا أباحَ له غَيْرُ الحِمام حِمَى
ذا منظرٍ يُبْصر الأعمى برؤيتهِ هُدًى وذا منطقٍ يستنطق البُكَما

(١) انظر فى ترجمة جعفر الخطى سلافة العصر لابن معصوم ص ٥٣٢ وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ١ / ٤٨٣ ونفحة الريحانة ٣ / ٢٠٤ وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٥ وديوانه طبع فى إيران سنة ١٣٧٣ هـ .

لو علَّم الوحشَ ما يُنْشيه من حكمٍ لراحتِ الوحشُ من تعليمه عُلَما
لما راح حتى حَشا أسْماعنا دُرَراً من لفظه وسَقى أذهاننا حِكَمَا

والتكلف فى هذا الرثاء واضح ، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى فى البيت الأول والثالث والرابع . وكان يكفى الشاعر أن يعلِّم صاحبه الناس فيصبحوا علماء ، أما أن يعلم الوحش فتتحول علماء على يديه ، فهذه مبالغة مفرطة . ويتوفَّى فى نفس السنة الشيخ أبو على عبد الله بن ناصر الخطى ، فيشيِّعه بمرثية ، يقول فى تضاعيفها :

فتًى كرمتْ آباؤه وجُدودهُ وطابتْ مساعيه فتمَّ له الفَخْرُ
جوادٌ له فى كلِّ أُنْمُلةٍ مجدٌ بصيرٌ له فى كلِّ جارحةٍ فكرُ
ويا بلدَ الخَطِّ اعتراك لفقده مدى الدهر كَسْرٌ لا يُرامُ له جَبْرُ
من الآن بَدْءُ الشرِّ فيك وإنه لمتصلٌ باقٍ وآخره الحَشْرُ
ولو خلَّد المعروفُ فى الناس واحدا لخلَّد عبدَ الله نائلُه الغَمْرُ

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من معان وصور ، فهنا طواعية ومرونة فى التعبير ، فالألفاظ يشيع فيها التناسق كما يشيع فى الأفكار والأخيلة . وقد يكون السبب فى ذلك أن الشاعر لم يصدر فى المرثية الأولى عن تأثر حقيقى بخلاف الثانية التى رثى فيها مواطنه الخطى . وطبيعى أن تكون أكثر أشعاره مدائح ، مثله فى ذلك مثل معاصريه ومن سلفوا قبلهم ، من ذلك قوله فى وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها فى سنة إحدى وألف للهجرة .

ملكٌ رَقَى دَرَجَ الفخار فلم يَدَعْ فيها لُراقٍ بعده من مَطْمَعِ
وتناولتْ كفَّاه أشرفَ رتبةٍ لو قام يلمِسُها السُّهَا لَم يَسْطَعِ (١)
أندى من الغيث الملثِّ إذا اجْتُدِى أحمَى من اللَّيْث الهِزبْرِ إذا دُعِى (٢)
حُيِّيتَ ياكسْرى الملوك تحيَّةً تُرْبِى على كسرى الملوك وتُتْبِعِ

والتكلف واضح فى هذا المديح ، وتبدو فى الأسلوب رقع غير ملائمة ، ككلمة «قام يلمسها» وكلمة «اجْتُدى» أى طُلبت جداوه وفائدته ، بالإضافة إلى كلمة «كسرى» المكررة فى البيت الأخير . وهو يستهل هذا المديح بنغمة أبى نواس المعروفة من الدعوة إلى الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الخمر ، وله بعض خمريات . لعل أطرفها خمرية حائية يقول فيها :

---

(١) السها : كوكب صغير من بنات نعش الصغرى . القوى .
(٢) الملث : الدائم الملح . الهزبر : الأسد الضخم

عاطنِيها قبل ابتسام الصباحِ فَهْى تُغْنيكَ عن سَنَا المصباحِ
أنت تدرى أن المُدامةَ نارٌ فاقتدحْها بالصبِّ فى الأقداح
فَهْى تمحو بضوئها صِبْغَةَ الليـ ـل فيغدو وَجْهُ الدُّجى وهْو ضاحِ
أرْسِلَنْها وَرديَّةً كدمِ الكَبْـ ـشِ أسالتْه مُدْيَةُ الذَّباحِ

وواضح أن التكلف يسرى فى هذه الأبيات ، وأن كلمة : «أنت تدرى» فى البيت الثانى أفسدت النَّسقَ فيه . والشطر الثانى فى البيت الثالث تكرار للشطر الأول ، وكان يكفيه أن يشبه الخمر بدم الكبش ولا يضيف كلمة «أسالته مدية الذباح» . ومع ذلك كله يعد جعفر الخَطِّى أهم شاعر ظهر فى زمنه بالقطيف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين ، وهو بلا ريب أشعر من ترجم له ابن معصوم فى سلافة العصر والمحبى فى نفحة الريحانة بالقياس إلى مواطنيه .

٥

شعراء الفخر والهجاء

ظل الفخر والهجاء نشطين فى هذا العصر نشاطهما فى العصور السابقة ، ولكن يلاحظ أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر الهجاء ، ومرَّ بنا أن الطاهر الجزرى كان من شعراء قِرْواش صاحب الموصل وبواديه ، وله ثلاث أبيات يصف فى أولها وثانيها الليل وظلماته وفى الثالث فرسه ، واستطرد من وصفه فى كل بيت إلى هجاء شخص يقول [١] :

وليلٍ كوجه البَرْقَعِيدىِّ ظُلْمَةً وبَرْدٍ أغانيه وطولِ قُرونهِ [٢]
قطعتُ دَياجيهِ بنومٍ مشَّردٍ كعقل سليمانَ بنِ فَهْدٍ ودِينه
على أَوْلَقٍ فِيهِ التفاتٌ كأنه أبو جابرٍ فى خَبْطه وجُنُونهِ [٣]

ويبدو أن البرقعيدى كان مغنياً ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذ كان قواداً ، والهجاء فى البيتين التاليين مقذع كما هو واضح . ومن الهجَّائين المقذعين القاضى العثمانى اليمنى وله مدائح فى أمراء زَبيد آل نجاح وفى غيرهم من أمراء الدول اليمنية ، ومن أقذع هجائه قصيدته فى الداعى على بن محمد الصليحى حين قتله سعيد بن نجاح أمير زَبيد ، وفيها

(١) الدمية ١ / ١٢٨ .
(٢) البرقعيدى : نسبة إلى برقعيد قرية بالموصل .
(٣) الفرس الأولق : شديد السرعة إلى درجة الجنون .

يصف مظلته التى كان يحتمى بها من حرارة الشمس ، وكيف أن سعيداً رفع على عمودها رأسه ، يقول [١] :

بكرتْ مِظلَّتُهُ عليه فلم تَرُحْ ... إلا على الملك الأجلِّ سعيدِها
ما كان أقبحَ شخصَه فى ظلِّها ... ما كان أحسنَ رأسَه فى عودها
وأرادَ مُلْك الأرض قاطبةً فلم ... يَظفَرْ بغير الباع من مَلْحودها
سودُ الأراقم قاتلتْ أُسْدَ الشَّرَى ... يا رحمةً لأسُودها من سُودها

وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا ، ولذلك كنى عنهم بسود الأراقم أى الأفاعى ، والقصيدة مليئة بالتشفى من الصليحى وبهجاء مرير . وللشيخ محمد بن سعيد المكى فى هجاء بعض أهل عصره [٢] :

اترُكِ العُجْبَ فما أنت سوى ... رجلٍ إما لضحْكٍ أو لغمْ
كغُراب السوء يَمْشِى مَرِحاً ... مُعْجَباً وهْو أخو الشُّؤْمِ الأذَمّْ
يَغْسِلُ الثَّوْبَ وفى أكتافهِ ... وسَخُ العِرْض وآلاتُ التُّهَمْ

ويلقانا الفخر فى كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء ، ومر بنا فخر عارم لِقَرْواش أمير الموصل وبواديه . ولبهاء الدولة منصور بن دبيس المزيدى (٤٧٤ -- ٤٧٩ هـ) أمير بوادى الحِلَّة قصيدة يفتخر فيها بمثل قوله [٣] :

أولئك قومى إن أعُدَّ الذى لهم ... أُكرَّمْ وإنْ أفخرْ بهم لا أُكَذَّبِ
همُ ملجأ الجانى إذا كان خائفا ... ومأوى الضَّريك والفقير المعصَّبِ [٤]
بطاءٌ عن الفحشاء لا يحضرونها ... سِراعٌ إلى داعى الصَّباح المثوَّبِ [٥]
مناعيشُ للمولى مَساميحُ بالقِرَى ... مَصاليتُ تحت العارض المتلهِّبِ [٦]

وهو يفتخر بقومه ، ويقول إنهم ملجأ الجانى يلوذ بجاههم ، فلا تمتد إليه يد ، ومأوى الفقراء والبؤساء ، مع اجتناب للمحرمات لا يقترفونها ، ومع مسارعة إلى الصلاة فى الفجر وطوال النهار ، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ فى الشدائد . ومن طريف ما للرسوليين من فخرٍ موشحٌ للسلطان المجاهد الرسولى يستهله بقوله [٧] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣٣ ، ٣٧٧ .
(٢) سلافة العصر ص ٢٢٥ .
(٣) الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٥٨ .
(٤) الضريك : البائس . المعصب : الذى لا يجد قوته .
(٥) داعى الصباح : المؤذن . المثوب : الداعى إلى الفرائض والنوافل .
(٦) مناعيش : يمنعون من الهلاك . القرى : الضيافة . مصاليت : نافذون فى الأمور .
(٧) الخزرجى ٢ /١٢٤ .

نلت أنا العزَّ بأطراف القَنا
ليس بالعجز المعالى تُجتَنى
نحن بالسيف ملكنا اليَمنا

كلُّ فخر تَدّعى الناسُ لنا أعرق العالم فى المِلْك أنا

وهو يفاخر بأسرته فخراً شديداً ، ويمضى فيسمى آباءه متحدثاً أو مفاخراً بشجاعته وجوده وبذله للمال وانتجاع العُفاة السائلين له وصَفْحه الجميل وعفوه . والفخر كثير فى اليمن ، غير أننا نتركها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره يموج بالفخر من مثل قوله [١] :

إنى امرؤٌ عَفَّ الإزار عن الخَنَا لم أَغْشَ مُنْذ نشأتُ بابَ المنكَرِ
إنى على كَسْب العلوم مخَيَّمٌ وبُكايَ فى طلب العُلا وتحسُّرى
إنى من العَرب الذين نِجارُهم من خالصِ العِقْيان لبَّ الجَوْهَرِ
وتخذتُ أصحاباً إذا نادمتهم لم أَخْشَ منهم من يَنُمُّ ويَفْتَرِى
عِلْمى وحِلْمىَ والحصانُ وصارمى ونَدَى يمينى والعفافُ ودفترى

وابن عقبة يفتخر بسجاياه الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلى بالعلم فهو حِلْيُه الذى يقف نفسه عليه ويبكيه بكاء المحبين لصواحبهم ، ويفاخر بأصله العربى ، ويحدثنا عن صحابه وندمائه من العلم والحلم والفروسية والبأس والجود والعفاف ودفاتر الدراسة ، ويطيل فى الفخر بقومه من خَوْلان وكَهْلان وكندة وملوكها الأقدمين . ويكتظ ديوان ابن مقرب العيونى بالفخر بآبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من أمجاد ومآثر ، ويفخر كثيراً بنفسه وبشعره ، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر ، على شاكلة قوله :

تجاهلَ هذا الدهرُ بى فتكتَّبتْ علىَّ بأنواع البَلايا كتائبُهْ
وإنى وإن أبْدَى اصْعِراراً بخدِّهِ وأَوْجَفَ بى وازورَّ للبغض جانبه [٢]
لأُغضِى على بغضائِه وازْورارِهِ وأعجبُ من حُرٍّ كريمٍ يعاتبه
وأستقبل الخطبَ الجليل بثاقبٍ من العزم يعلو لاهبَ النار لاهبُهْ

وكأنه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مهما ألح عليه ببلاياه أن ينال منه شيئاً ، مهما أبْدَى من تكبر واستعلاء ومهما عدا عليه بكوارثه ، ومهما انحرف عنه وأظهر من

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ٦٧ وتاريخ حضرموت السياسى ٢ / ١٦٩ .
(٢) اصعرارا بخده : ميلا ، كناية عن الكبر . أوجف بالخيل : عدا بها للقتال . ازور : مال وانحرف .

بغضائه . وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تعلو ناره على نيرانه وتخمدها فلا تشتعل ضده أبداً . ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والهجاء ، هما نَشْوان بن سعيد الحميرى وسليمان النَّبْهانى العُمانى .

نشوان بن سعيد الحِمْيَرِىّ[1]

من أهل جبلٍ شامخٍ مطلٍّ على «تعِز» اسمه صَبِر ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها ، وكان ملوكها يسمون بالأقيال والأذواء ، ونراه ينسب نفسه فى قصيدته الحميرية إلى قَيْل يُدْعَى ذا سَحر ، يقول :

أو ذو مراشدَ جَدُّنا القَيْل ابن ذى سَحَرٍ أبوالأذواء رَحْبُ الساحِ

ويبدو أنه أكبَّ منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها ، حتى أصبح علماً فى اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام ، وينص من ترجموا له على أنه كان معتزليا . وذكروا أنه اشتغل بالقضاء فى بعض مخاليف اليمن وأنه كانت له فى الفرائض (المواريث) وقسمتها يد . وله مصنفات مختلفة ، أشهرها «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» فى نحو ثمانية مجلدات ، وذكرنا فى الفصل الثانى أنه معجم لغوى ، وهو فيه لا يكتفى بالحديث عن اللغة بل يتسع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة . وبذلك حوَّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف الثاء فى ليدن ، ثم طبع منه جزآن فى القاهرة إلى آخر حرف الشين ، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين . وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة . وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمى «خلاصة» السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة ، وهى فى أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، استهلها بقوله :

الأمرُ جِدٌّ وهْو غيرُ مزاحِ فاعْمَلْ لنفسك صالحاً ياصاحِ

ومضى قليلاً فى الوعظ ثم خرجَ إلى تعداد ملوك التبابعة والأقيال والأذواء ، والقصيدة بذلك من الشعر التعليمى التاريخى . وقد نال شهرة مدوية فى وطنه

(١) انظر فى ترجمة نشوان معجم الأدباء ١٩ / ٢١٧ وإنباه الرواة للقفطى ٣ / ٣٤٢ والخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٨ و ٣٨٥ وبغية الوعاة للسيوطى ومقدمات محقق كتبه ومقالة المستشرق ستر ستين عنه فى الجزء الأول من كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع القاهرة) ص ٧٥ .

لعصره ، لمعارفه الواسعة ، ويبدو أنه لم يكتف بالمجد العلمى فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان ، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صَبِر موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل ممسكاً بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة . وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعتزازه اعتزازاً لا حدَّ له بقحطانيته . وهو يسوق أشعاره جميعها فى هذه العصبية المغرقة لقحطان من مثل قوله :

منا التَّبابعةُ اليمانون الأُلَى ... ملكوا البَسِيطَة ، مَلْ بذلك تُخْبِرِ
من كلِّ مرهوبِ اللقاء مُعَصَّبٍ ... بالتاج غازٍ بالجيوش مظفَّرِ
تَعْنُو الوجوهُ لسيفه ولرمحِهِ ... بعد السجود لتاجه والمِغْفَرِ[1]
فافخَرْ بقحطانٍ على كل الوَرَى ... فالناس من صَدَفٍ وهم من جَوْهَرِ
وإذا غَضِبنا غضبةً يمنيَّةً ... قطرتْ صَوارِمُنا بموتٍ أحمرِ
فغَدَتْ وِهادُ الأَرْض مُتْرَعةً دماً ... وغدتْ شِباعاً جائعاتُ الأَنْسُرِ

والأبيات تحمل عصبية عنيفة ، وهى عصبية لا يشيد فيها بالملوك والتبابعة الأولين من قومه ، بل أيضاً لا تزال الحماسة تشتد به وتتأجج فى صدره ، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعاً ، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم ، فهم من جوهر والناس من صدف ، ولاكغضبهم ، فغضبهم يملأ الوهاد دماً وأشلاء ما تزال تحط عليها النسور والصقور ، تملأ بطونها الجائعة . ولم يكتف بهذه العصبية الجامحة لقومه ضد مضر والعالم جميعه ، فقد اندفع فى نقائض مع الأشراف الرسيين أصحاب صَعْدة ، وشاع أنه قال :

أما الحسينُ فقد حواه المُلحَدُ ... واغتاله الزمنُ الخئونُ الأنْكَدُ
فتبصَّروا يا غافلين فإنه ... فى ذى عَرارٍ وَيْحَكم مُسْتُشْهَدُ[2]

وحين وصل البيتان إلى أسماع الرَّسِّيين غضبوا غضباً شديداً ، وعظم هياجهم ، وردوا عليه بعنف ، مهددين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدى :

أما الصحيحُ فإن أصلك فاسدٌ ... وجزَاك منا ذابِلٌ ومهَّندُ[3]

فى قصيدة طويلة . ووصلت أسماع نشوان ، فلم يخلد إلى الصمت والسكوت ، بل مضى يردُّ بقصيدة دالية يقول فيها :

من أين يأْتينى الفسادُ وليس لى ... نسبٌ خبيثٌ فى الأعاجم يوجَدُ
لا فى علوج الروم جَدٌّ أزرقٌ ... أبداً ولا فى السُّود خالٌ أسود

(١) تعنو : تنقاد . المغفر : زرديضعه المحارب تحت القلنسوة.
(٢) العرار : زهر بدوى ويقصد بذى العرار أن الحسين استشهد بالفلاة قرب الكوفة مكان النجف الحالية .
(٣) ذابل : رمح . مهندا : سيف .

ومضى يتنصَّل من البيتين السالفين . غير أنه ساق تنصله فى تهكم وسخرية لاذعة من تهديده بسفك دمه ، قائلاً :

فدَعِ التهدُّدَ بالحسام جهالةً فحُسامُك القَطَّاع ليس له يَدُ
من قد تركتَ به قتيلاً ؟ ! أنّى، ممن توعَّدُه ومن تتهدَّدُ
إن لم أمتْ إلا بسيفك إننى لقَرِيرُ عينٍ بالبقاء مخلَّدُ

وكل هذا يمكن أن يحتمل من نشوان فى سبيل دفاعه عن نفسه ، ولكنه لم يلبث أن وصم جبينه وصمة لا تمحى بالأبيات التالية :

مُوتِى قريشُ فكلُّ حَىٍّ ميِّتٌ للموت منا كلُّ حَىٍّ يولَدُ
قلتم لكم إرْثُ النُّبوَّة دوننا أزعمتمُ أن النبوةَ سَرْمَدُ
منكم نبىٌّ قد مَضَى لسبيلِهِ قِدْما فهل منكم نبىٌّ يُعْبَدُ

وهذه سفاهة وخُرْق وحماقة ، ويقول العماد الأصبهانى تعليقاً على هذه الأبيات : « قاتله الله ولعنه وأخزاه ، ما أشد افتراه على الله وأجراه ، وأية فضيحةٍ فوق هذا ولولا النبى المصطفى الذى اختاره الله واجتباه ، وجعله الوسيلة إلى نَيْل رضاه ، صلوات الله عليه وسلامه ، ما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا » وحقاً إنها كلمات خبيثة كلها نكد وخزى وبوار ، ولو أن الشاعر وجَّه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصبية الحرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى .

سليمان النبهانى [1]

آخر سلاطين بنى نبهان العُمانيين ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وقد عاش حتى سنة ٩١٥ للهجرة وكانت حياته فى الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبينه وبين خوارج نَزْوَى ، منها وقعة « حَمِمت » بينه وبين خوارج نزوى لعهد إمامهم عمربن الخطاب ، وفيها انهزم عمر ، ودارت الأيام وانتصر عمر عليه ، وسرعان ما توفى فتنفَّس سليمان الصعداء وعاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخوارج المقيمين بها . وحاربه الخوارج فى « واقعة أزكى » ودارت الدوائر عليه . ومازال به أبو الحسن بن عبد السلام الذى ولى أمر الخوارج بعد عمر بن الخطاب ، حتى غادر الديار إلى هُرْمُز فى أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد واسترد سلطانه ، غير أن العمانيين بايعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصى سنة ٩٠٦

(١) انظر فى ترجمة سليمان النبهانى تحفة الأعيان ديوانه عز الدين التنوخى ، وهى مقدمة بديعة . والديوان لنور الدين السالمى ١/٣٢١ وما بعدها ومقدمة محقق مطبوع بدمشق .

ونشبت بينهما موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة . وبذلك ضعفت دولة النبهانيين وكاد يقضى عليها قضاء نهائيا . وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة ، وهى ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء ، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين من أمثال امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والنابغة والأعشى وأشعار الإسلاميين من أمثال جرير والفرزدق وذى الرمة وكثيِّر وقَطرىَ بن الفُجاءة وأشعار العباسيين من أمثال أبى نواس وأبى العتاهية وأبى تمام والبحترى وابن دريد والمتنبى وأبى العلاء . وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التنوخى ذكره للمواطن والأماكن التى نثرها امرؤ القيس فى أشعاره ، كما تتبع أخذه من عنترة ومعارضته لطرفة فى معلقته وعمرو بن معد يكرب فى داليته وابن دريد فى مقصورته وأبى نواس فى خمرياته وما تطوى من معان وصور وأوزان وقوافٍ ، ولاحظ معارضته لأبى العلاء فى قصيدته (ألا فى سبيل المجد) وأنه استعار منه المعانى وكثيراً من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية ، على شاكلة قوله :

ألا فى سبيل المجْدِ ما أنا صانعُ ... نَفُوعٌ وضَرَّارٌ ومُعْطٍ ومانعُ
وإنى لذو طَعْمين شَهْدٌ يشوبه ... رحيقٌ وسمٌّ دونه السُّمُّ ناقع

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة فى ديوانه وإغاراته على معانى الأسلاف وأخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رَصْف الكلم . والموضوع الأساسى فى ديوانه هو الفخر ، وهو شىء طبيعى ، لأنه كان سلطاناً وصاحب دولة ومن فخره الذى يصور فيه بسالته وشجاعته :

يميناً بالصَّوارم والحِرابِ ... وبالخيل المسوَّمةِ العِرابِ [١]
وكُلِّ مُفاضةٍ كالنَّهْىِ سَرْدٍ ... تَرُدُّ العَضْبَ مفلولَ الذُّباب [٢]
أنا ابنُ السابقين إلى المعالى ... ورغمُ الصِّيد والشُّوسِ الغِضابِ [٣]
أنا الملكُ الذى ساد البَرايا ... مَقَرُّ الفخر والحسب اللُّبابِ
ولى يومان من نُعْمَى وبُؤْسَى ... ولى طعمان من أَرْىٍ وصابِ [٤]

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته فى الفخر ، فهو يُقْسم بأدوات الحرب والبأس أنه

---

(١) المسوَّمة : المعلمة . العراب : الجيدة .
(٢) المفاضة : الدرع . النهى : الغدير . والشعراء يشبهون الدروع وغضونها بمياه الآبار حين تمر بها الريح فتحدث فيها حركات وغضونا . سرد . منسوجة . الغضب : السيف . الذباب : حده .
(٣) الصيد : السادة . الشوس : جمع أشوس وهو المتعاظم الذى يتيه بنفسه زهواً .
(٤) الأرى : عسل النحل . الصاب : المر .

سليل السابقين إلى الشرف : شرف النسب وشرف الفعال ، ويتمدح بأنه كالمنذر بن ماء السماء الذى كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعمى ويوم بؤسى وأن له طعمين حلواً ومرًّا . وهو يلتقى مع نشوان بن سعيد فى الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقيالها بمثل قوله :

ونحن ملكنا الجنَّتينِ بمأربٍ ودُسْنا برغمٍ أَنْفَ كِسْرَى وقَيْصَرِ

ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقيال والملوك ، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان ، وإن كنا نحس عنده أيضاً نغمة الفخر على نزار حين يردِّد ما قدمه الأنصار للرسول ﷺ وما أدوه من جهاد فى سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والأموال ، على نحو ما نرى فى قوله :

ولولا الملوك الصِّيدُ قومىَ لم يُقِمْ لعمرىَ قومٌ قِبْلَةَ الصَّلواتِ
ضَرَبْنا على الإسلام أبناءَ هاجرٍ فدانوا وأدّوا واجبَ الزَّكوات

ويقصد بأبناء هاجر قريشاً ، وهى أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف . وكثيراً ما يبالغ مبالغات مفرطة فى فخره تتجاوز الحدود كقوله :

وهبَ الإلهُ لىَ الفضائلَ مثلما أعطى الكليمَ الصُّحْفَ والأَلْواحا

والكليم هو موسى عليه السلام ، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة . ويُكثر فى ديوانه من ذكر الأطلال والغزل ، وهو فيهما مقلد يحتذى على معانى الأسلاف وصورهم . ويتعرض كثيراً لوصف الناقة . وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحروبه ، غير أنه لا يأتى فى الوصفين بجديد ، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبيعى لأمير يجد فراغاً كثيراً . وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتنه ومسيرته معها فى الصحراء بحثاً عن ماء حتى إذا ألمَّ به أرسل عليه وعلى الأتن صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه ، فأخطأت الصيد ومضى الحمار وأتنه عبر الصحراء . ويتلو هذا المشهد بمشهد ثان لمعركة بين ثور وكلاب صائد ، ويذكر لنا لون الثور ومبيته بين أشجار تقيه صوب الغمام ، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كِناسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب ، فقتل منها اثنين ، ومضى يشق طريقه فى الفلوات مثيراً للغبار من حوله . والمشهدان منقولان حرفيًّا من بائية ذى الرمة المشهورة التى عرضنا لها فى كتابنا «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» ولم يلتمس الشاعر منه المشهدين فحسب ، بل التمس أيضاً بعض عباراته ومعانيه ، حتى وصف ذى الرمة لثوره بأنفته من الفرار من المعركة نجده عند النبهانى إذ يقول :

واعتاده أَنَفُ الكريـ ـمِ فكرَّ كالبطل المحامى

وللخمر حيِّز كبير فى الديوان ، ويستظهر الأستاذ عز الدين التنوخى أنه كان يطلق لنفسه العنان فى مطالع حياته ، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرية لأبى نواس ، ويبين مدى إغارته على معانيها وصورها وعلى الوزن والقافية ، ومن شعره فى الخمر قوله :

وكم جَنَّةٍ فى الأرض دانٍ قطُوفُها بها غُرُفاتٌ أيّا غُرْفاتِ
قضينا بها أيامنا بمُدامةٍ لدى قاصرات الطَّرْفِ بين سُقاةِ
وحُورٍ كأمثال الدُّمَى وبَراغزٍ يُطَرِّبْنَنَا بالنَّايِ والنَّغماتِ

وواضح أنه لكى يجمِّل صورة الجنة جاء بقاصرات الطرف اللائى يقصرن عيونهن على صواحبهن ولا يلتفتن إلى غيرهم ، كما جاء بالحور العين وأضاف إليهن أولادهن من البراغز وهن يطرِّبنهم بالضرب والعزف والغناء على الآلات الموسيقية . ويبدو أنه كثيراً ما كان يفكر فى الدنيا ونوائبها إذ نرى له بعض مواعظ فى ديوانه – وله رثاء حار لأخ ثار عليه وقتله – ولعل من الطريف أن نجده يختم بعض قصائده بالصلاة على الرسول ﷺ ، على شاكلة قوله فى خاتمة إحدى قصائده :

وأختمُ شعرى بذكر الرسولِ نبىِّ البريَّة نورِ الظلامِ

وفى الحق أنه كان شاعراً مجيداً ، وتكثر معارضاته واقتباساته من الشعراء السابقين ، غير أن ملكته الشعرية كانت ملكة خصبة .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية فى الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذى ينسب إليه القرامطة ، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة فى سواد الكوفة والبصرة . وأرسل أحد دعاته المسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنّابى إلى البحرين ، فنشر الدعوة فيها واستطاع فى سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك ، على نحو مامرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائيا – ودخلوا فى طاعة الخليفة العباسى وخطبوا له على المنابر ، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين – كما مرَّ بنا – تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠ . وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعاته إلى اليمن أحدهما يمنى هو على بن الفضل والثانى كوفى هو منصور بن حوشب ، واستطاع علىّ أن يستولى على صنعاء ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر المجن ، فأخذ يدعو لنفسه ، وزعم لأتباعه أنه نبى وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحلّ لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج ، ويروى أنه صعد يوماً المنبر وأنشد له أو لبعض شعرائه[1] .

خُذى العودَ يا هذِه واضْرِبِى ... نُقيمُ شرائعَ هذا النَّبِى
تولَّى نبىٌّ بنى هاشمٍ ... وجاءِ نبىٌّ بنى يَعْرُب
أحلَّ البناتِ مع الأمهاتِ ... ومن فضله زادَ حِلَّ الصَّبِى
وقد حطَّ عنا فروضَ الصلاةِ ... وحَطَّ الصيامَ فلم تتعب

(١) المخلاف السليمانى ١ / ١٤٢ .

ولاتطلب السَّعْيَ عند الصَّفا ولا زورةَ القَبْرَ فى يَثْرِبِ

فهو نبىٌّ يَعْرُب أو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا . ولم يلبث عدو الله والإسلام أن لقى حتفه -- كما مرَّ بنا — فى سنة ٣٠٣ بمشرط حَسَنىّ متطبب ظل يترصده حتى وجد الفرصة سانحة . أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة بالفاطميين حين كانوا لا يزالون فى المهدية بالقرب من تونس ، واتخذوه داعية لهم فى اليمن فاستولى على بعض الحصون ، وتوفى سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة . وتوفى وظلت الدعوة قائمة وظل لها دعاة مختلفون ، وتولاها الداعى الكبير على بن محمد الصُّلَيْحى (٤٣٩ — ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مر بنا ، وكان قد تتلمذ على داع فاطمى يمنى يسمى سليمان بن عبد الله الزواحى ، حتى إذا مات خلفه عليها ، وكان يستغل الحج إلى بيت الله الحرام وسيلة لنشر دعوته فى اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء مختلفة . وبايعه رؤساء قبيلة هَمْدان على نصرته ، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم على صنعاء وعدن وزَبيد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت ، وكان شاعرا ، وتنسب إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين فى مستهل حديثنا عن كثرة الشعراء فى الفصل الماضى ، ويشك بعض القدماء فيما ينسب إليه من شعر أحيانا ، ويقولون إنه كان ينظمه بعض الشعراء على لسانه [١] . ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر الفاطمى من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديداً ووعيداً ، وكان مما أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذره فيها بحرب مُبيرة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيثمى أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضاً ، فردَّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه [٢] :

دَمُ الأبطال فى اليوم العَبوسِ مُدامى لاشرابُ الخَنْدَرِيسِ
وكم ملكٍ أسرتُ وكم خميسٍ أباد سَراتَهُ قَتْلاً خَمِيسى [٣]

وكان الهيثمى ماينى يشيد بعلى الصليحى وحروبه وماسجَّل فيها من انتصارات . وكان لاينهض بعمل دون أن ينشده بعض مدائحه ، من ذلك أنه لما عزم على الحج فى سنة ٤٥٩ وأناب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيثمى ينشد [٤] :

إنَّ سَيْفَ الإمامِ كالبَحْرِ ذى المو جِ له فى البلاد مَدٌّ وجَزْرُ
ولئن ساءنا فراقُ علىٍّ فبِحَمْدِ ابنه لنا ما يَسُرُّ

ولم تكتب لعلى الصليحى العودة إلى عاصمته ودياره من الحج ، إذ كان قد استولى من

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٦ .
(٢) الحلاف السليمانى ٢ / ٢٧ .
(٣) الخميس : الجيش . السراة : السادة .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٧ .

آل نجاح على زَبيد ، فرصده سعيد بن نجاح – وكان معه أخوه جياش – فى عودته ، وكانت برفقته زوجته أسماء ، فاغتاله ، واقتاد زوجته أسيرة ، وأخذ الشعراء يعزُّون فيه ابنه المكرَّم ويرثونه ، من ذلك قول الهيثمى[١] :

وأنشأَ الحجَّ إلى مكَّةٍ يبغى رضا الله وأجرًا جزيلْ
وارتجَّت الأرضُ له هيبةً بمن بها بين فُراتٍ ونِيلْ
فإن يكن نِيلَ على غِرَّةٍ فالبدرُ لابُدَّ له من أفولْ

وظلت السيدة أسماء فى الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرَّم فى سنة ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها . وفى العام التالى فتك بسعيد وهرب أخوه جيَّاش إلى الهند . وكانت للسيدة أسماء أعمال برٍّ كثيرة ، وكان يُخْطَبُ لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصُّلَيْحى[٢] ، وفيها يقول الهيثمى[٣] :

رسمتْ فى السماح سُنَّةَ جودٍ لم تَدَعْ من معالم البُخْل رَسْمَا
قلتُ إذ عظَّموا لبلقيسَ عَرْشاً دَسْتُ أَسماءَ من ذُرَى النَّجْم أَسْمَى

وكانت السيدة أروى بنت أحمد زوجة السلطان المكرم لاتقلّ عنها فضلا ، وقد نشأت فى حجر السيدة أسماء وعُنيت بتربيتها وأحضرت لها الدعاة كى يعلِّموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية . وتوفِّى زوجها سنة ٤٧٧ فأسند الفاطميون إليها الدعوة وتدبير شئون الدولة الصليحية ، فكان يُخْطَبُ لها على منابر اليمن . واستطاع جياش بن نجاح أن يسترد زبيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانه على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليها الصليحى ووزيره على بن القِمّ ، ويقال ان ابن القِمّ أحسن استقبال جيَّاش حين دخل زبيد ، وتزوجت السيدة أروى بالداعى سبأ بن أحمد الصليحى وأشركته معها فى الحكم وكان شاعرا جواداً ، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة[٤]

ولما مدحتُ الهِبْرزىَّ ابن أحمدٍ أجاز وكافانى على المَدْح بالمدحِ
فعوَّضنى شعرا بشعرٍ وزادنى عطاءً فهذا رأْسُ مالى وذا رِبْحى

وتوفى سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمَّة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ . وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية ، وتزعَّم الدعوة فى اليمن بعدها آل زُرَيْع أصحاب عدن وكانوا يُجْزلون العطايا للشعراء حتى عُدُّوا عند بعض أمرائهم بالعشرات ، وأكبر

---

(١) الهمدانى ص ١٠٣ والمخلاف السليمانى ٢ / ٣٢ .
(٢) الهمدانى ص ٦٧ .
(٣) تاريخ اليمن لعمارة طبعة كاى ١٦ والشاعر يسمى فيه خطأ أسعد بن يحيى . انظر الهمدانى ص ٦٧ .
(٤) ابن خلكان (طبع دار الثقافة ببيروت) ٢ / ٣٣٧ والهبرزى : الأسد .

شعرائهم غير منازع أبوبكر العَيْذى . وله مدائح طنانة فى الداعى الزريعى عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله [١] :

ما إن تَخُطُّ يَدُ العُلَى أَوْصافَهُ ... إلا بِسُمْرِ الخطِّ لا بيَرَاعِ [٢]
لو أن تُبَّعَ كان أدرك عصرَهُ ... أضحى له من جُمْلة الأتباعِ
خضعتْ له غُلْبُ الملوكِ وإنما ... خضعتْ لضَرَّارٍ لها نَفَّاعِ
وعنتْ لعالى القَدْر منه مؤيَّدٍ ... ماضى الأوامر فى الزمان مطاع
والمالُ مقتَسمٌ مُشاعٌ عنده ... بيَدِ النَّدى والمجدُ غيرُ مشاعِ

وروى له العماد فى الخريدة مدائح كثيرة مُعْجَباً بها ، وذكر أنه كان وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها ، وينقل عن عمارة اليمنى إشادة قوية ببيانه وبلاغته . ومع كثرة ما أنشده العماد من مدائحه للداعى الزُّرَيْعى لانجد فيها إشارات للمذهب الإسماعيلى ، وبالمثل ما أنشده لشعراء الصليحيين ، والعماد فى خريدته يتحاشى مثل هذه الإشارات إلا ماجاء عفوا على نحو مايلاحظ فى القسم الخاص بشعراء الدولة الفاطمية فى مصر ، واتخذتْ موقفه أكثر كتب التراجم فى عصره وبعد عصره ، وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الإسماعيليين اليمنيين فى العصر ، وهم ابن القمّ ، والسلطان الخطاب ، وعُمارة اليمنى .

ابن القِمّ [٣] .

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن القم ، وُلد بزَبيد ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، واستيقظت موهبته الأدبية مبكرة على مايظهر ، وكان أبوه على من أنصار على بن محمد الصليحى وشيعته ، فحين ولّى الأسعد بن شهاب على زبيد وتهامة بعد استيلائه عليها سنة ٤٥٢ جعله وزيره . ويبدو أن الأب ألحق ابنه بدواوين على الصليحى فى صنعاء منذ سنة ٤٥٨ على الأقل إذ نجده يهنئ المكرم ابنه بزواجه من السيدة أروى الملقبة بالملكة الحرَّة فى هذه السنة منشداً :

وكريمةِ الحَسَبَيْنِ تَكْنفُ قَصْرَها ... أُسْدٌ تخاف الأُسْدُ مِن صَوْلاتِها
ظفرتْ يداك بها فبَخٌّ إنما ... لك تَدْخَرُ العلياءُ مَضْنوناتِها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٢ .
(٢) سمر الخط : الرماح . اليراع : القلم .
(٣) انظر ترجمته وأشعاره فى الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٧٤ ومعجم الأدباء ١٠ / ١٣٢ وفوات الوفيات (نشر مكتبة النهضة المصرية) ١ / ٢٧٨ ومعجم البلدان : مادة أشيح وكتاب «الصليحيون» للهمدانى فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والمخلاف السليمانى ٢ / ٤١ . وراجع أيضاً فى ترجمته وشعره المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد لعمارة اليمنى تحقيق محمد بن على الأكوع .

ولما توفى على الصليحى رثاه على لسان أخته السيدة تحفة . وسرعان ما أخذ الشعراء يحرِّضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حُبْشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا . وانبرى الحسين بن على بن القم يحثه هو وقومه على الانتقام لعلى الصليحى بمثل قوله :

أقَحْطانُ هُزِّى البيضَ واعتقلى السُّمْرا ... ورُدِّى العَوالى من دماء العِدَا حُمْرا (١)
ولا تُهْـدرِى ثـأرَ المظفَّر إنَّهُ ... بَنى لكمُ مجداً وشاد لكم فخرا (٢)

وليس فى المصادر التى بين أيدينا مدائح له فى المكرم ، ولكن أُثرت له بعض رسائل وجَّهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمى ، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء فى عهده ، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب فى زَبيد ، كما أسلفنا ، ويبدو أنه استقبل جَيَّاش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زبيد ، وربما كان من أسباب استيلائه على زبيد . وأكبر الظن أن الحسين لم يَشْرك أباه فى خروجه على الصليحيين ، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أرْوَى وزوجها سبأ ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول فى تضاعيفها :

أعلمتَ أن من الرماح قُدُودَا ... ومن الصِّفاح محاجراً ونُهُودا
أعْلى الأنام أباً وأكرمُ طِينةً ... وأتمّ أعراقا وأصلبُ عودا
لو كان يُعْبَدُ للجلالة فى الوَرَى ... بَشرٌ لكانتْ ذلك المعبودا
هى نعمةُ الله التى ما ماؤها ... ثَمْداً ولامعروفُها مجحودا (٣)

والبيت الأول رائع فى تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب ، إنها ذات بأس وجلال وجمال ، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لها بعد وفاة السلطان المكرم (٤) وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفى سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه فى حصن أشْيح حتى وفاته ، وفيه يقول من مدحة بائية :

إن ضامَك الدهرُ فاستعصمْ بأشْيحَ أو ... أزْرَى بك الفقرُ فاستمطرْ بنانَ سَبَا
تَخالُ صارمَه يوم الوَغَى نَهَراً ... تَضرَّمتْ حافَتاهُ من دمٍ لهبا

والصورة فى البيت الثانى طريفة ، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعانى ، مع جزالة الأسلوب ونصاعته ، وفى سبأ يقول من قصيدة ثانية :

---

(١) البيض : السيوف . السمر : الرماح . العوالى : أسنة السيوف والرماح .
(٢) المظفر : لقب على الصليحى .
(٣) ثمداً : قليلاً .
(٤) فى المفيد لعمارة أنه (كان شاعراً ومترسلاً يكتب عن السيدة الحرة إلى الديار المصرية) .

كريمٌ إذا جادتْ فواضلُ كفِّهِ تيقَّنتَ أن البُخْلَ ماتَفْعلُ السُّحْبُ
وما كنت أدرى قبل قَطْعِ هباتهِ إلىَّ الفيافى أنَّ أنْعُمَهُ رَكْبُ

والصورتان طريفتان ، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجى معاصره ابتكر معناه كما يقول العماد-نقلا عن نجم الدين بن مَصَال-وقد أحسن صياغة مغزاه، وهو :

طـويتُ إليك الباخلين كأننى سَرَيْتُ إلى شمس الضُّحَى فى الغَياهبِ

وهو بيت من قصيدة له فى ناصر الدولة أبى على بن ناصر الدولة بن حمدان ، فأعجب به إعجابا شديدا وقال : والله لآخذن هذا البيت منه ، وما هى إلا أن مدح سباً ابن أحمد فقال فيه :

لفظتُ ملوكَ الأرضِ حتى رأيتهُ فكنتُ كمن شَقَّ الظلامَ إلى الصُّبْحِ

يقول العماد : « ولم يقصِّر فى هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه » . وربما لم تعجبه كلمة « لفظت » عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى فى بيت ابن سنان على الصبح فى بيت ابن القم ، ولكن هذا تشريح أكثر مما ينبغى ، ومن المؤكد أن بيت ابن القم بديع . ولاحظ الدكتور شكرى فيصل فى تعليقاته على أبياته فى الخريدة أنه كان يتأثر غير شاعر ، من ذلك أنه ردَّ قوله فى جَيَّاش بن نجاح :

ومأأنت إلا البدرُ أظلم مَنْزلى وكلُّ مكانٍ نورُه فيه ساطعُ

إلى قول البحترى فى مديح الفتح بن خاقان :

وبدرٌ أضاء الأرض شَرْقاً ومغربا وموضعُ رجْلى منه أسودُ مظلمُ

والصلة بين البيتين واضحة ، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا فى الصورة بحيث تُنْسب إليه ، ويدل هذا البيت من قصيدة فى عتاب جياش وقصائد أخرى فى عتابه على أنه حاول الاتصال – أو اتصل – به فعلا مما جعل سباً بن أحمد يسخط عليه ، وكأنما أنضم ذلك إلى صنيع أبيه الذى أسلفناه مما جعله يكتب إلى سباً بن أحمد معتذرا مستعطفا . ويرد الدكتور شكرى فيصل أيضاً أبياتا مختلفة له فى مدحة ميمية إلى المتنبى ، من ذلك قوله فيها :

كأن مَواضيه طُبِعْنَ من الشَّجَا فَهنَّ من الأعداء بين الغَلاصِمِ

فقد ردَّه إلى قول المتنبى فى مديح على بن إبراهيم التنوخى :

وقد صُغْتَ الأسنة من هموم فما يَخْطرن إلا فى الفُؤادِ

وبيت المتنبى أروع إذ أين الشجا والهموم من الغلاصم التى تصل بين الرأس والعنق . بينما موضعها القلب والفؤاد . وردَّ قوله فى نفس القصيدة يصف الإبل التى ركبوها إلى الممدوح :

قصَدْن بنا مَنْ لو تجنَّبنَ قَصْدَهُ سَرَتْ نحونا جَدْواه مَسْرى الغَمَائِمِ

إلى قول أبى تمام :

كالغيث إن جئتَهَ وافاك ريِّقُهُ وإن ترحَّلتَ عنه لَجَّ فى الطَّلَبِ

وأيضا بيت أبى تمام أكثر روعة . وقد ردَّ العماد قديما قوله فى تصوير بأس البطل المحارب الذى يبلغ من شجاعته أن يُشْغف بسيفه شغفَ المحبين فيقبِّله ، ولايزال يعانقه :

يظن هِنْدِيَّه هِنْداً فَيَلْثِمهُ فما يزال بليلٍ مُعْرِس الضَّرَبِ[1]

إلى قول أبى العلاء فى تصويره البطولة :

يقبِّل الرُّمْحَ حُبًّا للطعَان بهِ كأنما هو مجموعٌ من اللَّعَسِ[2]

وبيت أبى العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعا وهو فرق مابين كبار الشعراء وشاعر مثل ابن القمّ : وبدون شك يُشْكر ابن القم لمحاولته منافسة الشعراء السالفين البارعين ونفوذه إلى صور إن لم تكن لها روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة . وله أشعار مختلفة فى الهجاء والرثاء والغزل ، ونسب إليه ياقوت البيتين التاليين فى تحمل مشقات الحب والمتاع بلذاته :

تشكَّى المحبون الصبابة ليتنى تحملتُ مايلقون من بَيْنهم وَحْدِى

فكانتْ لنفسى لذةُ الحب كلُّها فلم يَدْرِها قبلى محبٌّ ولابَعْدى

ولايُعرف تاريخ مولده ولاتاريخ وفاته ، وزعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفى سنة ٥٨١ وهو خطأ واضح ، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجرى لاالقرن السادس ، وقد أنشدنا له أشعارا نظمها فى سنة ٤٥٨ وفيما تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد الصليحى سنة ٤٩١ ، وربما رجع إلى مسقط رأسه زبيد بعد وفاة سبأ ، وقد حاول أن ينال شيئا من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره فى الخريدة . والجزء الأخير من حياته أوقل نهايته أوبعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح ، وربما أدرك أوائل القرن السادس .

---

(١) هنديه : سيفه . الضرب : عسل النحل . (٢) اللعس : سمرة فى الشفة .

السلطان الخطّاب [١] :

هو الخطاب بن الحسن بن أبى الحفاظ الحَجْورىّ الهَمْدانى ، كان أبوه الحسن حاكما لوادى الجُرَيب ومدينته فى إقليم الحجور ، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطاب كان أخا فى الرضاعة للملكة الحرة أروى . وتوفى الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان فى حكم الجريب ، ودان له أخوه الخطاب بالطاعة ، ثم لم يلبث النزاع أن دبَّ بين الأخوين ، ونشبت بينهما حروب انتهت فى سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه ، بفضل مساعدة الملكة أرْوَى له . وظل الخطاب يستدرج أخاه ، حتى أمن جانبه وعاد إليه ، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يمهله القدر طويلا ، فقد عاجلته المنية فى سنة ٥٣٣ . وكان الأخوان شاعرين ، ولكل منهما ديوان ، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثانى وهو الخطاب فاطميا إسماعيليا ، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعى اليمن الفاطمى فى عصره الذُّوَيْب بن إسماعيل ، وكان من مريديه وتلاميذه القريبين من نفسه ، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا فى نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن . وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أوكما يقولون علم الحقائق . وحدث أن قتل الآمر الخليفة الفاطمى فى سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد ، أحد أبناء الأسرة ، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ ، وأحدث ذلك انقساما ، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة فى إمامته وخلافته ابنه الأكبر ، وكانت زوجة الآمر حاملا ، فرأى بعض المنتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الآمر . وأعلنت الملكة الحرة أرْوَى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور ، وبذلك انفصلت الدعوة الفاطمية فى اليمن عن مركزها فى مصر ، وانفصل معها داعيها الذُّوَيب ونائبه السلطان الخطاب حاكم الجريب .

وقد نشر إسماعيل قربان حسين ديوان السلطان الخطاب وألحقه بتعليقات تفسر إشاراته للعقيدة الفاطمية ، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا ، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطاب وابن هانئ شاعر المعز الفاطمى وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية فى أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر . وسنقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية فى الديوان من خلال مديح السلطان

(١) انظر فى ترجمة السلطان الخطاب الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٠٧ وكتاب « الصليحيون » للهمدانى ومقدمة إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية قالمية .

الخطاب للآمر الخليفة الفاطمى ، من ذلك قوله فى قصيدته الأولى التى يمدح بها الآمر :

يامَنْ أسمِّيه بالألفاظ معترفاً أنَّ المعانىَ فيها عنْه تَقْصِيرُ
وما ظهرتَ من النَّاسُوت أنت بِهِ تجلِّياً لهُدانا فهْو مشكورُ
صَفْوٌ من الصَّفْوِ شَفَّافٌ تَقدَّسَ أَنْ يَشُوبَ جوهرَه الشفَّافَ تكديرُ

وهو يصرح فى الأبيات بأن الآمر فوق الحدود المعروفة لعقول البشر ، ويقول إنه فى الظاهر ناسوتٌ أى جسم ويشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، هو شبح يكمن فيه اللاهوت وهو الجانب النورانى . وفكرة الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين فى المسيح . ويقول الخطاب عن الآمر إنه صفو شفاف لاتشوبه الأكدار أى أنه نورانى خالص . ونمضى معه إلى القصيدة الثالثة ، وهى أيضا فى الآمر :

يامَنْ نسمِّيه تعريفا نقرِّرُهُ بشَخْصه فى نفوس القوم تقريرا
ولونشاءُ لقلنا فى النداء له بالصِّدْقِ ياحَيُّ ياقيُّوم مشهورا
ياعالِمَ الغَيب منا والشهادةِ يا بارى البريَّةِ تركيباً وتصويرا
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ صَمَدٌ شهادةً لم تكن مَيْناً ولا زُورا

والخطاب يشير فى الأبيات إلى مازعمه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لايجوز أن يسمى باسم لأنه أسمى من كل اسم ، ومن ثَمَّ يُضْفُون أسماءه الحسنى فى القرآن الكريم على أئمتهم ، غلوا مذموما ، زاعمين أنهم ربانيون لهم ألقاب الله وصفاته ، على نحو مانرى الآن عند الخطاب ، إذ لايجد بأسا من أن ينادى على الآمر بأنه الحى القيوم وأنه الفرد الواحد الصمد ، كبرت كلمات تخرج من فمه وفم أضرابه من دعاة الفاطميين المارقين ، ويزعم أنه عالم الغيب والشهادة ، ويمضى فى هذا الغلو الشنيع قائلاً للآمر :

أنت الذى كلُّ شىءٍ نحن نعلَمُه فانٍ سوى وَجْهه عكساً وتغييرا
أنت الذى فَطَر الأشياء قاطبةً خلْقاً وأمْرا وإيماراً ومأمورا
أنت الذى سَمَكَ السَّبْع الشِّداد على علمٍ أدار بها الأفلاكَ تَدْويرا
أنت الذى سَطح الأرضَ المِهادَ لنا فَرْشا وقدَّر فيها الرزْقَ تقديرا

وهو يزعم أن الآمر سرمدى الحياة ، لايلحقه فناء ، وكأنه إلهى الذات ، ويشير فى البيت الثانى إلى وصف القرآن للذات العلية فى مثل قوله : (فاطر السموات والأرض) وقوله : (ألاله الخلق والأمر) . ويجعله فى البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبرِّ الأفلاك فيها . والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى : (والأرض فَرَشْنَاها فنِعْمَ الماهدون)

وقوله : (قُلْ إن ربى يَبْسُطُ الرزق لِمن يشاء ويقدر) . ويقول أيضا فى مديح الآمر :

يا عِلَّةً لوجود الشيء من عَدَمِ ... وكاشفاً عنه بالأنوار للظُّلَمِ
وعالماً بخفيَّات الأمور غَدَا ... للناس أشهَرَ من نارٍ على عَلَمِ
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ نطقتْ ... بفضلهِ سُوَرُ القرآن عن أمَمِ
وجَّهْتُ وجهىَ فى سِرِّى وفى عَلَنِى ... إليك إذْ أنتَ مَعْنَى البَيْتِ والحَرَمِ

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام ممثول العقل الأول الفعال وأن قدرة الله تحلُّ فيه ، بحيث يصبح العقل الكلى وجوهر الملكوت وعنه تصدر جميع المخلوقات ، فهو العلة الأولى ، علة لوجود كل ماسواه . ويزعم الخطاب أنه : (يعلم السر وأخفى) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضله من أمَم أى قريب ، يشير إلى مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيرا) . وكلمة « البيت والحرم » مصطلحان إسماعيليان ، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله ومستقر التوحيد وحقيقته . وأما الحرم فهو حِمى الإمام وعقيدته الفاطمية . وللخطاب رثاء فى الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدر فيه عن عقيدته الفاطمية منشدا مثل قوله :

أمولاتنا يا مَنْ بباهرِ نورها ... تجلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ
ويا حجَّة المَوْلَى التى ببيانها ... هَدَى الله مَنْ حَيَّرْنَهُ الشبهاتُ
أُجلُّكِ عن موتٍ بروحكِ نازلٍ ... وأنت لأرواح الأنام حَيَاةُ

وهو يصفها فى البيت الثانى بأنها حُجَّة الإمام ، والحجة فى الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مرتبة تلى مرتبة داعى الدعاة فى المركز الأم مصر ، وصاحبها يتولى الدعوة فى إقليمه والنيابة عن الإمام . وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والآمر فى اليمن وزعيمة الدعوة الفاطمية فيها . ويزعم الخطاب فى البيت الأخير أنها لم تمت ، وكأن حياتها سرمدية كحياة الأئمة ، وكل ما قدمنا علو ومروق واضح . ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله ، وفيه كثير من المديح والهجاء والفخر ، وأجود مدائحه فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى . وجعله تعمقه فى العقيدة الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة فى بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكلية ، وعرض إسماعيل قربان حسين لطائفة منها بالتحليل والتعريف .

عمارة اليمنى[1]

هو أبو حمزة عمارة بن أبى الحسن اليمنى ، من أهل الجبال فى تهامة . من قرية يقال لها مُرْطان فى وادى وَساع ، وهو قحطانى مَذْحجى من سلالة الحكم بن سعد العشيرة . ولد فى سنة ٥١٥ فى أسرة تهتم بالعلم والثقافة ، ولم تكد توافى سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زبيد فثقف فيها الفقهَ الشافعى ، وقُرئ عليه مدة ، وله فى الفرائض مصنف مشهور فى اليمن . واتصل بآل نجاح حكام زَبيد ووزرائهم ، كما اتصل بآل زُرَيْع حكام عدن وبعلى بن مهدى الذى خلف آل نجاح على زبيد ، وكان الأولون سُنِّيين والثانون إسماعيليين والثالث كان خارجيا . حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن فُليتة الزيدى ، وكلفه بحمل رسالة إلى الخليفة الفائز الفاطمى ، فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رُزِّيك وزير الفائز فى قاعة الذهب بقصر الخلافة ، وأنشده عمارة ميمية طويلة يقول فى تضاعيفها :

قد رُحْتُ من كَعْبة البَطْحاءِ والحَرَمِ ... وَفْداً إلى كَعْبة المعروف والكرمِ

فهل دَرَى البيت أنى بعد فُرْقتِهِ ... ماسِرْتُ مـن حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة حتى أُفيضت عليه الخلع ، وأُغْدق عليه طلائع خمسمائة دينار . وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ . وتهاداه أمراء الدولة وموظفوها الكبار . وقفل راجعا إلى مكة ، فإلى زَبيد . وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر ، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته . وبالغ طلائع وبنوه فى إكرامه ، وله فيهم مدائح كثيرة . وقُتل طلائع بعد قدومه الثانى بأربع سنوات سنة ٥٥٦ . وحظى بعده بجوائز الوزيرين شاوَر وضرغام ، وله فى شاور وطلائع مراث بديعة ، وكان قريبا من نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه ، فلما وزر أعرض عنه ، فعاتبه عتابا رقيقا . ومازالت العطايا تُسْبغ عليه ، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته ، وخاصة توران شاه الأيوبى ، وله ميمية حرَّضه فيها على أخذ اليمن أولها :

---

(١) انظر فى عمارة وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٠١ وابن خلكان ٣ / ٤٣١ والروضتين ١ / ٢ / ٥٧٢ ومفرج الكروب ١ / ٢١٢ ، ٢٣٨ والسلوك للمقريزى ١ / ١ / ٥٣ والنجوم الزاهرة ٦ / ٧٠ والسلوك فى طبقات العلماء والملوك للجندى وتاريخ ثغر عدن لباعرمة والشذرات ٤ / ٢٣٤ وتاريخ ابن الأثير ١١ / ٣٩٨ وصبح الأعشى ٣ / ٥٢٦ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ص ٩٤ وكتابه النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، وذيل النكت ويه ديوانه .

العِلْمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلَمِ وشَفْرَةُ السيف تَسْتغنى عن القَلَمِ

ويقول ابن خلكان إنه كان فقيها شافعيا شديد التعصب للسنة ، ويبدو أن ذلك إنما يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعى فى زبيد . أما بعد ذلك فإننا نراه يتصل بآل زُرَيْع الإسماعيليين وبأمير مكة الزيدى . ولعل السبب فى أن ابن خلكان أطلق كلامه عليه وعمَّمه أنه وجده فى كتابه « النكت العصرية » يتبرأ من التشيع ويذكر أن طلائع بن رزِّيك عرض عليه أن يدخل فى العقيدة الإسماعيلية ، فأجابه بأن يمنّ عليه بسدّ هذا الباب . ولكن كتاب النكت – فيما يبدو – أُلِّف فى عصر الأيوبيين ، فكان طبيعيا أن يُخْفى إسماعيليته أو تشيعه ، وأن يعلن براءته فى تصانيفه وقصائده من التشيع وآله . ونراه فى قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين وسماها « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » يصف كثرة ماكان يصله من عطايا الفائز والعاضد ووزرائهما بمثل قوله :

مذاهبهم فى الجود مذهبُ سُنَّةٍ وإن خالفونى فى اعتقاد التشيُّعِ

وهذا وأمثاله كان – فى رأينا – سبب ضلال ابن خلكان فى الحكم عليه ، فإن من يرجع إلى ديوانه ومدائحه فى الخليفة الفاطمى العاضد وطلائع وزيره وابنه العادل لايشك فى أنه اعتنق المذهب الفاطمى الإسماعيلى ، من ذلك قوله من قصيدة فى مديح العاضد وطلائع :

لا يبلغ البلغاء وَصْفَ مناقِبٍ أُثْنى على إحسانها التنزيلُ
شِيَمٌ لكم غُرٌّ أتى بمديحها الـ ـفُرْقـان والتَّوراةُ والإنجيل
سِيَرٌ نَسَخْناها من السُّوَرِ التى ما شانها نَسْخٌ ولا تَبْديلُ

وهو يشير إلى ماجاء فى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيهما من ذكر الرسول على لسان موسى وعيسى ، وكأن ذكره يتضمن ذكر ذريته ، وقد جاء فى سورة الصفّ على لسان عيسى : (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) وهذه الفكرة التى تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين فى التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم من مثل قول السلطان الخطاب فى الخليفة الآمر :

هو الذى كَنَتِ التَّوْرَاةُ عَنْهُ وفى الإنْجيل ما ضُمِّنَتْ فيه المزاميرُ

ودائماً يقرِّر عمارة حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول فى نفس اللامية السالفة ، ونراه يقول فى دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلائع بن رزِّيك :

أغنى عن التَّقْليد نَصُّ إمامةٍ والنَّصُّ يَبْطُلُ عنده التَّقْليدُ

لا شيء من حَلٍّ وعَقْدٍ فى الوَرَى إلا إلى تدبيره مردودُ
ملكٌ أغاثَ المسلمين وحَاطَهُمْ منه وُجودٌ فى الزمان وَجودُ

وهو يردِّد ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة فى الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق ، فهى ليست مفوضة للأمة ، بل هى من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف . ويشير عمارة فى البيت الثانى إلى نظرية العقل الفعال التى يمثِّلها الإمام والتى تجعله – كما مر بنا عند السلطان الخطاب – يدبِّر الكون وشئون الورى وكل ما يتصل بها من حَلٍّ وعَقْد . أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة الفَيض الأفلاطونى المعروفة عند الإسماعيليين والتى تجعل الأئمة ماثلين فى كل وجود إنسانى . ويقول فى مديح العاضد من قصيدة طويلة :

كم آيةٍ رُوِيَتْ لكم أسرارُها آلَ الوَصىِّ وللوَرَى إعلانُها
فكأنما تأويلُكم أرواحُها وكأنما تفسيركم أبْدَانُها
وكأنَّ عِلْمَ الكائنات وديعةٌ مخزونةٌ وصدوركم خزَّانُها

وهو هنا يردِّد ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا ، والباطن لايعلمه إلا الأئمة ، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم ، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا . وليس ذلك فحسب ، بل هم يعلمون كل علم ، وما صدورهم إلا خزانات لهذا العلم : علم الحاضر وعلم الغيب . وكل هذه شواهد بينة على أن عمارة تحول فى مصر فاطميا إسماعيليا . وكان حزنه لا يُحَدّ ولا يوصف حين دالتْ دولة الفاطميين ، وبثَّ هذا الحزنَ الغاضب غضبا عنيفا فى لامية له مشهورة استهلّها بقوله :

رميتَ – يا دهرُ – كفَّ المجدِ بالشَّللِ وجِيدَه بعد حُسْن الحَلْىِ بالعَطَلِ
هَدَّمْتَ قاعدةَ المعروف عن عَجَلٍ سُقِيتَ مُهْلاً أما تمشى على مَهَلِ
يا عاذلى فى هوَى أبناءِ فاطمةٍ لك الملامةُ إنْ قصَّرتَ فى عَذَلى

وهو فى هذا الاستهلال ملتاع لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية ، وإنه ليسبُّ الدهر الذى أطاح بها ويدعو عليه أن يُسْقَى المُهْل شراب أهل الجحيم . ويدعو عُذّاله على حب الأئمة الفاطميين أن يظلوا فى عذلهم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لغليل نفسه . ويمضى فيدعو رفيقه أن يبكى معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الجمل ، وكأن النكبة هنا أكثر أسى وفجيعة . ويقول إن الجرح الذى أصاب فؤاده بزوال الدولة الفاطمية لا يندمل ، وما يلبث أن يقول عجبا ينزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوان لهم فى الدين ، ويقول :

لربَّما عادتِ الدُّنيا لمَعْقِلِها منكمْ وأضحت بكم محلولةَ العُقُلِ[١]
والله لا فازَ يومَ الحَشْرِ مُبْغضكم ولا نجا من عذاب النار غَيْرُ وَلِى

وهو فى البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا لمعقلها ، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم فى هذا المعقل كانت قد فسدت فساداً لاحدَّ له ، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على القاهرة . وأراد الله لمصر بل للعرب أن تُرَدّ القَوْسُ إلى باريها ، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه بالقضاء على هذا المعقل الفاطمى إلى الأبد . وكأنما أصابت العقيدة بَصَرَ عُمارة بغشاوة ، فلم ير الحقيقة ، وقد مضى يتوعَّد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير ، وتمادى فى هذا الغىّ والضلال ملوِّحًا بيده فى وجه صلاح الدين زاعما أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن حبهم أصل الدين ، يقول :

أئمةٌ خُلقوا نورا فنورهُمُ من نور خالصِ نور الله لم يَفِلِ[٢]
والله لازُلْتُ عن حُبِّى لهم أبدا ما أخَّر الله لى فى مدَّة الأجَلِ

فالأئمة الفاطميون نور خالص ، نور شفاف ، وهو فيض من نور الله ، لا تشوبه أى مادة ، وهو غلو واضح فى تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم . وكُتب لعمارة أن يظل يردده حتى بعد زوال دولتهم ، بل إنه ليعلن أنه سيظل على حبهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسوَّل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان الفاطميين ، فى مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكاتبوا الفرنج الصليبيين طالبين منهم مددا ، وعُرفت نيتهم ومؤامرتهم ، فأحيط بهم ، وأُعدموا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان سنة ٥٦٩ بالقاهرة . وكان لابد لعمارة أن ينتهى هذه النهاية المفجعة بعد أن كاد لدولة صلاح الدين بلسانه وهمَّ أن يكيد بيده ، وكأنما غطَّى القدر – كما يقول العماد – على بصره . وقد طُبعت له مصنفات مختلفة ، منها أخبار اليمن نشركاى ، ومنها مختصر المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ، ومنها النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

٢

شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا فى الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا ،

---

(١) العقل : جمع عقال .
(٢) يفل : يأفل : يغرب .

وهى تُنْسَبُ إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه ، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده ، ومر بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كانوا زيديين ، إذ لاتعرف نحلتهم التستر والتخفى للإمام فى الدعوة ، وهى لا تشارك نحلتى الإسماعيلية والإمامية فى العلم الباطنى ، ولا تتغلغل فى فكرة العقل الفعال التى مرت بنا عند الإسماعيلية والتى تعطى الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتى تسند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو فيض منه . وهى لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة ، بل يكفى أن يكون الإمام الكفء الداعى لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلا عالما بالشريعة ورعا شجاعا جوادا ، وتجوِّز هذه النحلة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صحَّحت خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على ، ولم تجوِّز القَدْحَ فيهما كما تصنع الإسماعيلية والشيعة الغالية . وارتبطت نحلة الزيدية ارتباطا وثيقا بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وقوى هذا الارتباط مع الزمن . وإذا كانت ثورات الزيديين فى الحجاز والعراق وإيران أخفقت فى القرن الثانى للهجرة فإنها نجحت فى المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التى أسسها إدريس بن عبد الله الحسنى بفاس فى عهد الرشيد ، وظلت نحو مائة وأربعين عاما . ونجحت كذلك فى طبرستان فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة ، فقامت هناك دولة زيدية ظلت نحو سبعين عاما . واستطاعت أسرة بنى سليمان أو بنى موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم فى مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وظلت فيهم حتى اضطرهم الهواشم من أسرتهم أن يغادروا مكة إلى المخلاف السليمانى ، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب فى دولة الرسوليين ، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسنى عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسنية .

وقامت فى صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين ، إذ أسسها هناك الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم فى سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على صنعاء فى حقب كثيرة ، حتى إذا كان القرن العاشر الهجرى انضوى اليمن جميعه تحت لوائها ، وإذن كانت للزيدية فى الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز ، هى مكة والمخلاف السليمانى وصعدة وكان المركز الأخير كثيرا ما يتسع ، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها . وعنى الأمراء والأئمة فى كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه ، لأنهم أقلام

الدعاية للدولة ، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعيا أن يعنوا بالشعر والشعراء . وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتوح وقد أنشدنا له أبياتا طريفة فى غير هذا الموضع ، وكان عيسى بن فُلَيْتة أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ يجزل العطايا لشعرائه وفى مقدمتهم قائده النوبى الأصل سالم بن أبى سليمان ، وفيه يقول من مدحة طويلة [١] :

هو نورُ ربِّ العرش بين عبادهِ ... فليعلموا والحجَّةُ البيضاءُ
للَّه يأمر باطنا أو ظاهراً ... فتصرُّفُ الأقدار كيف يشاءُ
يوماه يومٌ للنَّوال وآخرٌ ... تُرْدَى بسَطْوة بأسهِ الأعداءُ
إن الثناء عليك من ربِّ السَّما ... أغناك عما قالت الشعراءُ

وهو يغلو فى مديحه لهذا الإمام الزيدى ، وكأننا نقرأ عنده ما نقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو فى مديح الآمر الخليفة الفاطمى ، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله ، وهو الحجة القائم على رعيته ، وتجرى الأقدار بما يشاء وكيف يشاء ، أما ثناء الله عليه فيريد به ثناءه على أهل البيت فى القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعرا ، ومن قوله [٢] :

وأذَّنتُ حين تجلَّى الصباحُ ... بحيَّ على خَيْر هذا العمَلْ

وكان الزيدية فى الجزيرة بمكة وفى اليمن والمخلاف السليمانى ينادون فى الأذان : بحيَّ على خير العمل » . ويمتلئ كتاب العقد الثمين بمدائح أمراء مكة ، ويكفى أن نستشهد ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قول موفق الدين على بن محمد الحُنْدِيدى فى حُمَيْضة أمير مكة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة [٣] :

خليفةٌ لا يُخْلف الوَعْدَ ولا ... يَضَنُّ عن سائله بما اقتنَى
إمام حَقٍّ جَدَّ فى الله فما ... فى الله مُذْ جَدَّ وَهَى ولاوَنَى
أخاف فى الله تعالى مَنْ بَغَى ... وأمَّن الخائفَ حتى أمِنَا
هو ابنُ مَنْ أُسْرِى به الله ومَنْ ... مِنْ قابِ قوسين تدلَّى ودَنا

وليس فى مديحه غلو ، بل هو مديح لإمام زيدى بالكرم والتقوى والعدل ورفع البغى والظلم ونشر الأمن ، ويشير فى البيت الأخير إلى الإسراء بالرسول ومعراجه إلى السموات وما جاء فى سورة النجم : (ثم دَنا فتدلَّى فكان قابَ قَوْسَيْن أو أَدْنَى) . وللحَنديدى فى مديح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٤٦ .
(٢) العقد الثمين ٤ / ١٦٢ .
(٣) العقد الثمين ٤ / ٢٤٨ .

أخيه رُميثة أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة[١] :

نَسَبٌ كمشتقِّ الشموس ومفخرٌ ... باعُ الكواكب قاصرٌ عن طولهِ
أما الفروعُ فليس مثلُ فروعهِ ... وكذا الأصولُ فليس مثلُ أصولهِ
يابنَ المظلَّل بالغمامة والذى ... قد أُنزِل القرآن فى تفضيلهِ
ماذا عَسَى مَدْحى وقد نَزل الثَّنا ... فيكم من الرَّحمن فى تنزيلهِ

ووراء الحنديدى كثيرون من الشعراء كانوا يمدحون أمراء مكة الزيديين لا فى زمنه فحسب ، بل فى جميع الأزمنة ، وفى سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبى طائفة كبيرة من مدائح الشعراء لهؤلاء الأمراء فى القرن العاشر الهجرى ، من ذلك قول عبد الرحمن بن وجيه الدين المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة فى حسن بن أبى نُمَىّ أمير مكة من مدحة طويلة ، عارض بها رائية ابن هانئ المشهورة[٢] :

ملكٌ إذا ما جال يومَ كريهةٍ ... لم تَلْقَ غير مُجَدَّلٍ ومُعَفَّر
ملكٌ نَداه البَحْرُ إلا أنه ... عَذْبٌ أهذا البحرُ نهرُ الكوثَرِ
ذو الهمة العَلْيا الذى قد نال ما ... عنه تقصَّر همَّةُ الإسْكندر
أعْظِمْ بها من نِسْبةٍ نبويَّةٍ ... عَلَوِيَّةٍ تَنْمى لأصلٍ أَطْهَرِ

وكثيرون من أمراء المخلاف السليمانى وأشرافه كانوا شعراء مثل ابن وهّاس ودَهْمش وهما شاعران مجيدان ، ومن أمرائهم الممدّحين غانم بن يحيى بن حمزة السليمانى المتوفى سنة ٥٦٠ ويروى أن ابن مَكْرَمان مدحه بقصيدة لامية أعطاه عليها ألف دينار ، وفيها يقول[٣] :

علويٌّ متـــوّجَ هاشِميٌّ ... حسنيٌّ نوالُه مبـــذولُ
يا سليلَ البَطينِ والحرّةِ الزّهْـ ... ـرا هىَ الطُّهْر والحَصَانُ البَتُول[٤]
خمسةٌ خصَّهم بتخصيصه الخا ... لقُ ربِّى وهْو اللطيف الجليلُ
مالهم سادسٌ غداةَ الذى مَـ ... ـدَّ عليهم كساءه جِبْريلُ

وهو يشير فى البيتين الثالث والرابع إلى ما تذكره الشيعة من أن الرسول ﷺ ألقى عليه وعلى علىٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساء وقال : نحن أهل البيت إيماء إلى قوله تعالى : (إنما يريد الله ليُذْهب عنكم الرِّجسَ أهلَ البيت ويطهِّركم تطهيرا) . ومعروف

---

(١) العقد الثمين ٤ / ٤١٩ .
(٢) سلافة العصر ص ٧٩ .
(٣) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٢ وما بعدها .
(٤) الحصان البتول : العفيفة الطاهرة .

أن المخلاف السليمانى أصبح جزءا من أرض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسليمانيين ، وكانوا يصلون الشعراء ، ويقدمون لهم مدائحهم ، على نحو ما نجد عند ابن هُتَيْمل فى مديحه للأمير قاسم بن على صاحب صُبيا ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله[١] :

حسنىٌّ للسائلين وللْمحْـ ـروم فيما حوتْ يداه نَصِيبُ
ساحةٌ لا يزال فيها رئيسٌ مستجيرٌ وسائلٌ لا يَخِيب
عزّ فى ظلّ رمحك القاسميّو نَ ومنهم قبائلٌ وشُعُوبُ
وسِنانُ القناة لولاه فى طَـ ـىِّ العَوالى لم ينفع الأُنْبُوبُ[٢]

والمركز الثالث للزيدية فى الجزيرة أهم مراكزهم ، وكانت صَعْدة نقطة الدائرة فيه ، فمنها انبعثت النحلة ، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها يتسع ، حتى انضوت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجرى تحت رايتها . ومؤسس هذه الإمامة الزيدية — كما أسلفنا — يحيى بن الحسين بن القاسم ، وله مصنفات مختلفة فى الفقه والعقيدة والتفسير ، ويقول فيه ابن حزم : « له رأى فى الفقه وقد رأيته ، ولم يبعد فيه عن الجماعة » وكان شاعرا ، وله وصية شعرية ذكرها فى كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد ، ومن شعره[٣] :

بنى حَسَنٍ إنى نهضتُ بثأركمْ وثأرِ كتابِ الله والحقِّ والسُّنَنْ
وصيَّرتُ نفسى للحوادثِ عُرْضَةً وغبتُ عن الإخوان والأهل والوطنْ

ويتوالى أبناؤه على صَعْدة من بعده ، حتى يقدم أبو الفتح الديلمى الحسنى فى القرن الخامس فينتزعها منهم ، وينسحبون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك ، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة . ومن أهم أئمتهم وأشهرهم فى القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢ — ٥٦٦ هـ) وكان شاعرا مجيدا وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميرى الذى مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء ، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها[٤] :

دعينىَ أُطْفِى عَبْرتى مابدا ليا وأبْكى ذُنوبى اليوم إن كنتُ باكيا

واستطرد فيها يتحدث عن الملوك ومآثرهم ومصيرهم ، ولم يكد يقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردّ عليه بقصيدة وعظية مماثلة مطلعها :

ذكرتَ دياراً دارِساتٍ خَوَاليا رُسُوماً عَفَتْ عن أهلها ومغانيا

---

(١) ديوان ابن هتيمل ص ٣٥ .
(٢) العوالى : جمع عالية وهى النصف الذى يلى السنان من القناة . الأنبوب ما بين الكعبين من القناة .
(٣) صبح الأعشى ٥ / ٤٧ .
(٤) انظر فى هذا البيت والبيتين التاليين الجزء ص ١١٥ .

وهى قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية ، ومما كتبه إلى المتوكل قوله فى أبيات :

وأنت تصلح للرّايات تَعْقِدُها ... وفى المواكب تُحْيِى الدِّينَ والسُّنَنا

ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بنى أيوب فى اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة . أما فى عهد الرسوليين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدى أحمد بن الحسين المكنى بأبى طير (٦٤٦ – ٦٥٦) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولى ، انتهت بمقتله فى معركة الحُصَبات . وكان أحمد بن الحسين جوادا ، مدحه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن هُتَيْمل ، ويقال إنه أجازه على إحدى قصائده خمسين فرسا ، وقد عرضنا فى ترجمته طرفا من مدائحه الرائعة فيه ، ومن أشهر الأئمة الزيدية فى عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين (٩١٢ – ٩٦٥ هـ) ، وهو ممدوح موسى بن يحيى بهران ، وسنترجم له . أما أئمتهم فى عهد الاحتلال العثمانى الأول (٩٤٥ – ١٠٤٥ هـ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩ – ١٠٥٤) وهو الذى قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد ، ولشاعره محمد بن على بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته ، مطلعها[1] :

بلغتْ بنو الزَّهْرا بك المأمولا ... وبطولِ سَيْف عُلاك زادوا طولا

وخلفه المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ – ١٠٨٧ هـ) وقد استولى على عدن وحضرموت وظَفار ودانت له جميع الديار اليمنية ، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهتدى من ميمية طويلة[2] :

إمامٌ عظيمُ السرِّ أمَّا نهارُهُ ... فصومٌ وأمَّا لَيْلُه فقيامُ

رياضُ الأمانى فى حِماه نَضِيرَةٌ ... وسُحْبُ النَّدى من راحَتَيْهِ سِجَامُ[3]

تحمَّل سِرَّ المصطفى بسريرةٍ ... وسيرةِ عَدْلٍ لا تكاد تُرَامُ

تدفقَّ بَحْرُ العلم فى طىِّ صَدْرِه ... أواذىَ لُجٍّ دُرُّهُنَّ تُؤامُ[4]

ويموج كتاب « نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف » وهو فى مجلدين ضخمين بشعر زيدى كثير . واشتهرت قصيدة تاريخية فى نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسنى اليمنى المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمى البسامة ، عرض فيها لأئمة العلويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه ، ومع مر الأزمنة أخذت تضاف

---

(١) الجراف : ص ١٤٨ .

(٢) سلافة العصر ص ٤٧٩ .

(٣) سجام : سائلة كثيرة والانصباب .

(٤) أواذى : أنواح . تؤام : مزدوج .

لها ذيول كثيرة تشير إلى الأئمة التالين فى اليمن[١] . وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية ، أحدهم مكى هو يحيى بن يوسف الملقب بالنشْو ، والآخران يمنيان ، هما موسى ابن يحيى بهران وعلى بن محمد العَنْسى الصنعانى .

يحيى بن يوسف النَّشْو[٢]

مكى مولدا ومنشأ وحياة ، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبى العباس النحوى وأخذ كل ما عنده ، واستمع إلى غير محدِّث ، ونال فى الحديث إجازات مختلفة . وعُنى بالشعر والرسائل ، فكتب الإنشاء لأمراء مكة فى زمنه : عُطَيفة وابنيه مبارك ومحمد وابن عمهما عَجْلان بن رُمَيثة . وكانت ملكته الشعرية خصبة ، ويقول مترجموه : « له شعر كثير سائر مدح وهجا به جماعة من الأعيان » . وتوفى سنة ٧٨٢ . ونجده يكثر من مدائح أمراء مكة الزيديين وفى مقدمتهم من سميناهم آنفا ، وفى عُطَيْفة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول فى بعض مدائحه له :

له هِمَّةٌ تَسْمو إلى كلِّ غايةٍ ... هو الطّاهِرُ الأنْسابِ والعَلَمُ الفَرْدْ
هو الملكُ الماحى لمن كان قبله ... فما فى ملوك الأرض طُرًّا لَهُ نِدُّ
هو المنعم المُولى الجميلَ تفضلاً ... فمن سَيْبه قد أوْرَقَ الحَجَرُ الصَلْدُ[٣]
تَخِرُّ له كلُّ الملوكِ مهابةً ... وتَخْرَسُ من إجْلاله الألْسُنُ اللُّدُّ[٤]

وواضح أنه يبالغ فى مديح عطيفة ، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجرى بما يشاء ، وينعته بالكرم والعدل ، ويشيد بنسبه من الرسول ﷺ ، وهو فخر ما وراءه فخر ، ويمدح ابنه مباركا المتوفَّى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة ، وفيه يقول :

ورثَ الفخرَ عن جدودٍ كرامٍ ... قد بَنَى فوق ما بَنَى أمثالهْ
شَرَفٌ ما استفاده من بعيدٍ ... مَلِكٌ أرْفعُ الملوك جَلاله
نَسَبٌ بين أحمدٍ وعلىٍّ ... فَهُوَ من خير [آلِ] تلك السُّلالَهْ
وهْوَ كالشمس مُدْرِكٌ آمالَهْ ... وجميعُ البلاد تَهْوَى وِصاله

---

(١) انظر فى البسَّلمة وذيولها نشر العرف لزيارة ٢ / ١١٣ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمة يحيى وأشعاره العقد الثمين ٧ / ٤٥٢ وكذلك ترجمة عطيفة فى ٦ / ١٠٢ وابنه مبارك فى ٧/ ١٢٤ وابنه محمد فى ٢/ ١٤٤ وابن أخيه عجلان فى ٦ / ٧٢ .

(٣) السيب : العطاء . الصلد : الصلب .

(٤) اللد : شديدة العدواة .

وواضح أنه سلس اللغة ، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان ، وهى شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا ، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا ، جمالا يلذ الألسنة والآذان والقلوب ، وله من قصيدة فى محمد بن عُطَيفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة :

إمامٌ له فَضْلٌ عظيمٌ على الوَرَى ... كريمُ الأيادى بالسَّماحة أَوْحَدُ
يجودُ بما تَحْوِى يداه تكرُّماً ... ويعلَمُ أن المال ليس يُخَلَّدُ
فتى لم يَرَ الراءون مثلَ صفاتِه ... إذا قيل هذا حاتمٌ فَهْو أجود
أجلُّ الوَرَى جَاهاً وقَدْراً ورفعةً ... وأكرمُ مَنْ يُرْجَى عَطاهُ ويُقْصَدُ

وعلى هذا النحو يشيع الانسجام فى كلماته ، إذ يلائم بينها موسيقيا ملاءمات دقيقة ، بحيث لا تجدفيها قصورا ولا انحرافا ، وإنما تجد صفاء فى الجرس ، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما فى هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما فى الأبيات السالفة .
ومن قوله فى مديح عجلان بن رُميثة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة :

ماذا يقولُ المدحُ فيه وما عسى ... إذ كان يخدم جَدَّهُ جِبْرِيلُهُ
أما الملوك فكلُّهم من دونِهِ ... كالبدر فى أفق السماءِ حُلولُه
سلطانُ مكةَ والمشاعرِ والصَّفَا ... منْ لا يخاف من الزمان نزيلُهُ
لو حاول النَّجْمَ العظيمَ لنالَهُ ... تُنْبيك عنه رِماحُهُ ونُصُولُهُ
سكنتْ محبَّتُه القلوبَ جميعَها ... لما تقارنَ سَعْدُهُ وقَبُولُه

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسنيين من آبائه وأقاربه يحِبُّ أهل السنة وينصرهم على الشيعة ، ويقال إنه كان شافعى المذهب[1] .
وقصيدة النَّشو فيه بديعة ، وقد افتتحها بغزل رائع ، إذ يقول :

لولا الغرامُ ووَجْدُهُ ونُحولُهُ ... ما كنت تَرْحمه وأنت عَذُولُهُ
إن كنتَ تنكره فسَلْ عن حالِهِ ... فالحبُّ داءٌ لا يُفيق عَليلهُ
يامَنْ يلومُ على الهَوَى أهلَ الهَوَى ... دَعْ لَوْمَهُمْ فالصَّبْرُ مات جَميلُهُ

وأنشد صاحب العقد الثمين فى ترجمته للنشو مدائح له جيدة فى الشريف طُفَيْل بن منصور الحسينى أمير المدينة ، استهلها بغزل بديع ، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد بمحبوبته وجدا لا يشبهه وجد ، إذ نزلت مع صواحبها بالمنحنى لا من الأودية والتلال ، ولكن من أضلعه ، ومن غزله الرقيق :

(١) النجوم الزاهرة ١١ / ١٣٩ .

أين المفرُّ لمن هواك طَلِيبُهُ وسِهامُ لَحْظِكَ بالسَّقام تُصِيبُهُ
يشكو ولا أحدٌ يرقُّ لما بِهِ وارحمتاهُ لمن جفاهُ حَبِيبُهُ
وجميعُ ما فى القلب منك عرفتُه أتكون ساكنَه وأنت تُذيبُه
حَنَّ العذولُ عليه حين هَجرْتَه ورَنَا له الواشى ورقَّ رقيبُهُ
يا وَيْحَ من يَرْثِى لـه أعداؤه فشُجونُه لا تنقضى ونحيبُه

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام ، غزل يترقرق فيه الشوق واللهفة والحنان ، حتى ليحنّ على المحب العذولُ والواشى الرقيب ، فكلهم يأسى له ، وهو يلتاع بحبه وشجونه ، ولا يكفُّ عن النحيب ، إذ يحب صاحبته كما لم يحب فتاة قط ، ويحتمل فى ذلك آلاما ثقالا . وله مدائح نبوية كثيرة بديعة ، يستهلها بنسيب رائع ، من مثل قوله :

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ اللِّوى والمُنْحَنَى فعساك تَظْفَرُ مِنْ لِقاهم بالمُنَى
أهواهُمُ وهواهُمُ لا ينقضى أبداً وإن شَطَّ التباعُد بيننا
فلئن ظفِرتُ بزورةٍ أحْيا بهـا فلىَ السعادَةُ والمسرَّة والهَنا
يا أهلَ طَيْبَةَ إنَّ لى فى حَيِّكم قمراً لَـهُ كلُّ المحاسن والسَّنا
أنوارُهُ منهـا الدَّياجى أشرقتْ بَدْرٌ به قد نَوَّرتْ كلُّ الدُّنَا
ولهُ الفضائِل والمآثُر والعُلا ولـه المفاخرُ والمحامد والثَّنا

والنسيب كالمديح النبوى يذوب رقة وخفة ورشاقة ، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهافة الحس بحيث تحسن اختيار القوافى واصطفاء الألفاظ إحسانا بعيدا .

موسى بن يحيى بَهْران[1]

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢ – ٩٦٥هـ .) وليس بَيْنَ أيدينا معلومات واضحة عن زمن مولده ووفاته . وكان شرف الدين مَدَّ يده إلى المصريين مُعينا حين أرسل قانصوه الغورى طائفة من الجراكسة فى سنة ٩٢١ إلى جنوبى البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت فى جزيرة كَمَران ، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بنى طاهر أن يعينها ضدهم ، ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة ، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من

(١) انظر فى ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب شعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ص ١٨٤ – ١٨٧ ، ١٩٩ – ٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة السلفية) ص ٤٩ . وللشاعر ديوان نظمه فى مديح الإمام شرف الدين .

العون والمؤن ، وشكا من السلطان عامر ، فتعاون قائدها معه على حربه ، وقضيا عليه وعلى حكم أسرته سنة ٩٢٢ . ودخل شرف الدين صنعاء ، ودخلت البلاد جميعها فى طاعته وأكثرت الشعراء من تهنئته بهذا النصر المبين ، وفى مقدمتهم موسى بن يحيى بهران إذ هنأه بقصيدة رائعة ، فيها بقول :

خليفةُ الرحمن فى أرضـهِ ... مبارَكُ الوَجْه كريمُ الجدُودْ
بَرٌّ كَريمٌ من بنى المُصْطفى ... إمامُ حَقٍّ ساعدتْه الجُدود
قالتْ له الأيام إذ أقبلتْ ... ما أحسنَ الوَصْلَ عقيبَ الصُّدودْ
وأهلَك الباغين حتى ثَوَوْا ... واستبدلوا بعدَ القصور اللُّحودْ
واستبشرَ العدلُ بأيامهِ ... فامتلأ الغَوْرُ بـهِ والنُّجُودْ
وأصبحتْ صنعاءُ من عُجْبِها ... ترفُل فى مُسْتحسنات البُرودْ

وقد ورَّى الشاعر فى البيت الثانى بكلمة الجدود وهو لا يريد بها الآباء كما فى البيت الأول – وكما قد يتبادر – وإنما يريد بها الحظوظ . وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول ﷺ ، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء . ولا يلبث أن يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله فى كل مكان للعدل الذى لا تصلح حياة الأمم بدونه ، ويشير فى البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا . ويسترسل فى القصيدة منشدا :

يا شرفَ الدين وُقِيتَ الرَّدَى ... ودمتَ تَحْمى بالحِداد الحدودْ
لا غَرْوَ أنْ سُدْتَ جميعَ الوَرَى ... مثلُك يا بَحْرَ النَّدَى مَنْ يسود
علمُك بحرٌ ماله ساحلٌ ... زَنْدُكَ أَوْرَى من جميع الزنودْ[1]
وجودُ كفَّيك إذا ما همَى ... غيثٌ مُغِيثٌ ما له منْ رعُود

وفى البيت الأول جناس واضح بين الحداد أى السيوف والحدود . ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس فى شعر اليمنيين ، وقد مضوا أيضا يكثرون من التورية محاكاة للمصريين . والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشريعة . وفى الأبيات السالفة مدحه بالعدل . وكل هذه مبادئ أساسية فى الإمامة الزيدية كما مر بنا فى صدر هذا الكلام . ومضى فى القصيدة مبالغا فى مديحه خاتما لها بالدعاء له . ولموسى قصيدة بائية بديعة يهنئ فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر ، وفيها يقول :

حَوى شرفُ الهدى والدين مَجداً ... رفيعاً وابْتَنى شَرَفاً عَلِيَّا

(١) أورى : من ورى الزند إذا خرجت ناره .

بَراه إلهُنا بَرًّا صَفِيًّا ولم يخلقه جبَّاراً عَصِيًّا
سَرى سِرُّ النبوَّة فيه حتى حكى عن جدِّه خُلُقاً سَنِيًّا
حَوَى علمَ الذين مضوا جميعاً وأصبح وارثا لهمُ وليًّا
تأزَّرَ وارتدى بالحكْم كَهْلا وأُوتِيَ حُكْمَ خالقِه صَبِيًّا

وواضح أن قوافى الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم ، وأن الشاعر لم يكتف بذلك ، بل حاول أن يسبغ على شرف الدين بعض ما جاء فى السورة من نعوت للنبى يحيى ، وقارن بين البيت الثانى وقوله تعالى فى نعت يحيى بن زكريا : (وبَرًّا بوالديه ولم يكن جبَّارا عَصِيًّا) . ويشير الشاعر فى البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التى جاءت فى السورة على لسان زكريا إذ يدعو ربه أن يهبه غلاما : (فَهَبْ لى من لَدُنْك وَليًّا يرثنى ويرث من آل يعقوبَ واجعلْهُ ربِّ رَضِيًّا) . ويكمل الفكرة فى البيت الرابع . ولا يلبث أن يسلك فى البيت الأخيرة نهاية الآية الكريمة : (يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوة وآتيناه الحكم صَبِياً) . وهو غلو واضح . ويمضى فى القصيدة قائلاً :

وقُلْ يابنَ الأكارمِ من قريشٍ وأَحْسَنَهم - إذا ذُكِرُوا - نَدِيًّا
ومن دَنَتِ الملوك له وذلَّتْ وخرَّتْ من مهابته جثِيًّا
بفضلك تُتَّقَى نُوَبُ الليالى . فكُنْ فى النائبات بنا حَفِيًّا

والشطر الثانى فى البيت الأول مستمد من قوله تعالى فى السورة : (أىُّ الفريقين خير مقاماً وأحسن نَدِيًّا) أى مجلسا وجماعة . والبيت الثانى يستضىء بالفاصلة (جثِيًّا) الواردة فى السورة أى تَخِرُّ الملوك على ركبها ولا تستطيع الحراك هيبة له وإجلالا . وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم فى السورة لأبيه : (سأَسْتَغْفِرُ لك ربى إنه كان بى حفيًّا) أى رءوفاً يرعانى . ويختم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله ﷺ ، يقول :

عليك سلامُ رَبك ما تَغَنَّتْ حَمامُ الأَيْك صُبْحا أو عَشِيًّا
وصلىّ الله خالقُنا على مَنْ تَخَيَّره نَبِيًّا هاشميًا
محمدٍ المشفَّعِ فى البَرايا صلاة تُبْلغ الأمدَ القَصِيًّا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة فى القرون الأخيرة من هذا العصر ، وكثيرا ما يضمنونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعة رسول الله لأمته يوم القيامة . ولهذه القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان ، ومن قوله فى مقدمة القصيدة الأولى :

لمقلتى فى خَدِّهِ جنَّةٌ محفوفةٌ بالنَّار ذات الوَقُودْ

له سيوفٌ طالما سَلَّها من لَحْظه يَحْمى ورودَ الخدودْ
سبحانَ من صوَّره فتنةً لخلقهِ وهْو الرحيمُ الوَدُودْ
لم أدْرِ أين الثَّغْرُ من عِقْدهِ لما تساوى ثَغْرُهُ والعقودْ
وفى المَها ضِدَّان لم يَبْرحا قساوةُ القَلْبِ ولِينُ القُدودْ

والأبيات تكتظ بالصور وبعنصر المفاجأة الذى يجعلها طريفة كل الطرافة ، فالورود فى خَدٍّ صاحبته جنة محفوفة بحمرة شديدة كأنها النار الحامية ، وما لحظها إلا حامٍ بسيوفه لورود الخدود ، وإنها لفتنة لا تُحاكيها فتنة . ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة ، فلا يدرى أين ثغرها ولآلئ أسنانها وأين العقود ولآلئها فقد اختلط عليه الأمر . ويخالها تحمل من المهَا قساوة قلبه ولين قدِّه وقامته . أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حوارا بينه وبين محبوبته نقطتف منه هذه الأبيات :

فقلتُ له ونحن بخير حالٍ أتفقدُ من جِنان الخُلْد شَيًّا
فقال وقد تعجَّب من مقالى جِنانُ الخُلْد قد جُمِعَتْ لديَّا
فقلت : فسِحْرٌ بابلَ أين أَضْحَى فقال : أما تَراه بِمُقْلتيَّا
فقلتُ : الوِرْد أين يكون ؟ قل لى فقال : أما تراه بوَجْنَتيَّا
فقلت الشَّهْد أين ؟ فقال : هَذِى شِفاهى قد حوتْ شَهْداً جَنِيًّا

ويستمر فى حواره مع صاحبته سائلا عن البرق ، فتذكر له أنه يطلّ من مبسمها الوضىء ويسألها عن المرآة وجيد الغزال والثريا فتبدى له خدّها الباهى وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة . ولولا خوف الإطالة لنقلنا الحوار جميعه ، وفى الحق أن شعره يحفل بما يملأ النفس إعجابا بتصاويره وأخيلته ولفظه العذب السائغ ونغمه الموسيقى المصفَّى ، ولعل ذلك ما دفع المغنين فى اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين ، وخاصة بمقدمتيهما الغزليتين البديعتين .

على بن محمد العَنْسى[1]

يمنى صنعانى ، نشأ بمدينة صنعاء فى بيت علم وفضل ، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق ، حتى إذا تزود من كل ذلك

(١) انظر فى ترجمة العنسى وأشعاره البدر الطالع للشوكانى ١ / ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزيارة ٢ / ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم والمتوكل القاسم بن الحسين والسيد عبد الله بن على الوزير ومصطفى الحموى وأحمد بن عبد الله الجرفى وصلاح بن الحسين .

زادا كافيا قُلّد القضاء ببلاد العدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدى محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧ – ١١٢٨ هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدى التالى المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨ – ١١٣٩ هـ) بالقضاء فى بلاده وفى وصاب غربى زَبيد. وفى سنة ١١٣٦ وُشى إلى القاسم أنه يسعى ضده مع بعض الثائرين وأنه صاحب القصيدة : «سماعا عبادَ الله أهلَ البصائرِ» وهى قصيدة تصور ظلمه وتدعو للثورة عليه. فقبض عليه القاسم وألقى به فى غياهب السجون، وأخذ العَنْسىّ يرسل إليه قصائد مستعطفا بمثل قوله :

إمامَ الوَرَى عَطْفاً على خائفٍ عَطْفا ... بحق الذى أبقاك فى خَلْقِه كَهْفا
فو الله مالى قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتُه ... وهذا الذى أُبْدِى ولله ما يخفى
إمامَ الهدى هَبْنى جنيتُ جنايةً ... فهبنى لأطفالٍ كطير القَطَا ضَعْفا

وتحقق القاسم من براءته، فردَّ إليه حريته، وعينه حاكما بالحَيْمَة من بلاد صنعاء، وظل بها إلى أن لبىَّ نداء ربه سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م. ويكتظ كتاب نشر العرف بأشعار إخوانية متبادلة بينه وبين بعض الأمراء والأدباء فى ترجمته وتراجمهم. وله قصائد مختلفة تتصل بالأحداث فى عهد المتوكل القاسم بن الحسين، من ذلك أنه لما أكمل بناء السور على بستان باب السبحة فى صنعاء سنة ١١٣٤ مدحه بنونية يقول فيها :

أما قيل فى البستانِ وهْو بأهلِهِ ... وبالمُلْكِ سامٍ لا يدانيه غُمْدانُ[1]
ويَعْمُره من يَعْمُرُ الدينَ عدلُه ... ويَحْيى بِهِ معنى الفخار ويزدانُ

ومن ذلك إيقاع المتوكل القاسم فى صنعاء بقبائل أرحب سنة ١١٣٨ حين اعتدوا على بعض فرسانه، ففتك بهم فتكا ذريعا. وصوَّر ذلك العنسى فى ميمية عارض بها ميمية المتنبى فى سيف الدولة التى وصف فيها واقعة الحَدَث وهزيمته للروم هزيمة ساحقة. وقد استعار منها كثيرا من قوافيه ومعانيه وصوره وألفاظه، من مثل قوله :

نثرتَ دنانيرَ الوجوهِ على الثَّرى ... كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدراهمُ
هنيئاً لضَرْب الهام والمجد والنَّدى ... وراجيك والإسلام أنك سالم
وقوفُك ما بين الخميسين باسماً ... وموجُ المنايا حولك المتلاطم
ولستَ مليكا هازما لنظيره ... ولكنك الإسلامُ للشرك هازم

والأبيات شديدة الصلة بقصيدة المتنبى : «على قدر أهل العزم تأتى العزائم». وهى ظاهرة تلاحظ فى شعراء اليمن المتأخرين إذ يكثرون من معارضة الشعراء النابهين لا فى المديح

(١) غمدان : قصر عتيق باليمن.

فحسب ، بل فى كل الأغراض الشعرية . ونرى العنسى يقول فى افتتاح قصيدة روضية :

يا سَمِيرى وللفتوة قومٌ خُلقوا من سُلالة الإنسجامِ
بطراز الرقَّا بتشبيب مِهْيا رٍ بِلُطْف البَها بطبع السَّلامى

وهو يصرح فى البيتين بأنه من قوم يعنون فى شعرهم بالانسجام الموسيقى على شاكلة السَّرِىِّ الرَّفاء المشهور بعذوبة ألفاظه ومهيار الذى يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالرقة والسلامى المعروف بجمال نغمه . وطبعا هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العَنْسى وحاكاهم وعارضهم فى شعره . وله قصيدة تاريخية شيعية فى نحو سبعين بيتا استعرض فيها نحو أربعين إماما بادئا بعلى بن أبى طالب الذى اقتلع باب الحصن فى خَيْبر ، فاستؤصلت شأفة الكفر ، ويذكر قتله لعمرو بن ودّ فارس قريش يوم الخندق ويُشيد بفاطمة الزهراء وبابنيها الحسن والحسين ريحانتى أهل الجنة وبعلى زين العابدين ، ثم بإمامهم زيد منشدا :

ويا خير من سَلَّ الحُسامَ وقد طغَى لئيمُ بنى مَرْوانَ أشْقى بنى الدَّهْرِ
فأصبح مِنْه الجِذْع قد عانق العُلا ولكنها فى الدين قاصِمَةُ الظَّهْرِ

وهو يشير إلى ثورة زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك فى الكوفة ومقتله هناك وصلبه ، ويذكر أخاه محمدًا الباقر وابنه جعفراً الصادق . ويذكر ثورات الحسنيين مبتدئا بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه ، ويذكر ثورة الحسين بن على الحسنى على الخليفة العباسى الهادى فى الحجاز ومقتله بفَخّ بالقرب من مكة ، كما يذكر وقوع يحيى أخى النفس الزكية فى يد الرشيد وإلقائه به فى غياهب السجون حتى مات . ويذكر الزيدية فى طبرستان وآمل . ثم يتحدث عن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن ، ويستعرض الأئمة التالين له منوها بهم ومشيدا بأمجادهم . حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذى تغلب على العثمانيين وردَّهم عن البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول :

ويا حُجَّة اللهِ الذى قام داعياً إلى الله فرداً لا بزيدٍ ولا عَمْرو
وبشَّرتِ الناسَ الهواتفُ باسمهِ كما بَشَّرتْ بالمصطفى مبدأَ الأمر
فأخلا عُلوجَ الترك عن يَمن الهُدَى بِضَرْبٍ كما هاج الوَهِيجُ من الجَمْر

ويلاحظ أن العنسى لا يقف عند مبادئ الزيدية فى مديحه . إذ يضيف إليها بعض اعتقاداتَ الشيعة الغالية فى أئمتهم . وقد ساق فى أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الخفىِّ من علم الجفر . وهو كتابات تكشف طلاسمها عن أنباء المستقبل وأحداثه . ويقولون إن الرسول أودعها عليا وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل .

والزيدية لا يؤمنون فى إمامهم بمعرفته لهـــــذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة ، ومع ذلك نرى العنسى يشيد بمعرفة جعفر الصادق له ، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به . وقد يكون فى هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا تعرفها نحلتهم ، ومن ذلك وصفه لمحمد بن القاسم بأنه حجة الله . ومرَّ بنا أنه اصطلاح إسماعيلى وأن المراد به أنه الداعى للمذهب فى بلاده . ويزعم أن الهواتف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفى ، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدى الشيعى المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ فى تصوُّر الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم ، كما يفعل الإسماعيلية . وَربما كتب العنسى هذه القصيدة فى سجنه تقربا إلى القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله ، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة . وقبل أن نختم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن على الوزير الذى التزم فى جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر . ودفع ذلك العنسى إلى التماس التورية بدوره فى كثير من أبيات قصيدته . وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثيرا من أشعارهم . والقصيدتان من وزن الطويل ، وقد ضمن العنسى قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلى مثل : (قضاها لغيرى وابتلانى بحبها) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبى فى كافور مثل : (كفى بك داء أن ترى الموت شافيا) وكان هذا التضمين فى الحقب المتأخرة من ذلك العصر يُعَدّ من الطُّرَف البديعة .

٣

شعراء الخوارج

مرَّ بنا فى الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والنَّجَدات والصُّفْرية ، وكان نشاط الأزارقة فى فارس وكرمان والصفرية فى الموصل والنجدات فى اليمامة ، وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموى . أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التميمى فقد ظلت حية طوال عصر بنى أمية والعصور التالية ، واتخذت مركز نشاطها فى مدينة نَزْوَى داخل إقليم عُمان جنوبى الجبل الأخضر ، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى أظلت البلاد جميعها

راية الإباضية إلى اليوم . وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان ، وكانت تقع أحيانا فى أيديهم ، واستطاعوا فى حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت ، ومن أهم أئمتهم القدامى الخليل بن شاذان ، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجى الإباضى على حضر موت ، واتخذ عاملا له عليها أبا إسحق الحضرمى ، وكان شاعرا ، وله فى الخليل إمامه أشعار كثيرة يصور فيها عونه المالى والحربى ضد خصومه ، وفيه يقول[١] .

هذا الخليلُ إمامُ المسْلمين حَكَتْ أنوارُ سيرته فى العَدْل نيرانا

ويكتظُّ ديوانه بمدائحه ، ولا تكاد تمر حادثة أو يمر له انتصار حربى إلا ويرسل إليه القصائد مهنئا . وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبقى على أبى إسحق عاملا له على حضر موت ، ويُعَدُّ راشد أهم إمام خارجى فى الحقب الأولى لهذا العصر ، إذ استولى على عُمان ، وأصبحت البلاد جميعها يُظِلُّها لواء الإباضية إلى أن استطاع بنونبهان فى القرن السادس أن يستخلصوا منهم عمان . وتستمر الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج سلطانهم على البلاد جميعها ، وتعود عمان إلى النبهانيين فترة فى القرن العاشر ، ثم يستولى عليها نهائيا ناصر بن مرشد اليعربى (١٠٢٤ – ١٠٥٠ هـ) وتظل منذ هذا التاريخ فى أيدى الخوارج ، وكان البرتغاليون قد نزلوا فى شواطئها ، فأخذ ينازلهم وظلت مدينتا صُحار ومسقط فى أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربى (١٠٥٠ – ١٠٩١ هـ) أن يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطوله ينكِّل بهم وبأسطولهم فى شرق إفريقية وغربى الهند . وفى ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافرى ممجداً[٢] .

ثُمَّ أَوْرَى لمَسْقَطٍ سِقْطَ عَزْمٍ أسقط الظالمين منه ضِرامُ[٣]
وغدَتْ من عُمانَ كفُّ بنى الأصْـ ـفَرِ صِفْرًا قد هزَّها الانهزامُ[٤]
وبِـمِـمْباسَـةٍ أذاقـهـمُ بَـأْ سًا بَئِيسًا سِيئَتْ بهِ الأَصْنام
ولدى زَنْجبارَ زَمْجَرَ فيهم وَعْدُ زَجْرٍ لم يُنْجِ منه اعتصام
وبِبُمْبايَ نابهم منه نابٌ لم يَشُبْهُ عن المَضىِّ انهتامُ[٥]

وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان على الأسطول البرتغالى فى ممباسه وزنجبار وفى بمبى بالهند . وهى انتصارات جديرة بكل تمجيد وإشادة . وخلفه ابنه

---

(١) تحفة الأعيان ١ / ٢٥٨ وما بعدها .
(٢) التحفة ٢ / ٦٠ .
(٣) أورى : أوقد . سقط النار : شرارة أو شعلة منه .
(٤) يريد بنى الأصفر البرتغاليين .
(٥) انهتام : تكسر ثنايا الأسنان من أصولها .

بِلْعُرْب ، وكان شاعرا . وقد تربى فى كنفه شاعر خارجى مهم يسمى الحُبْسى ، وله ديوان استهله بمدائح نبوية على عدد حروف المعجم ، وفيه مدائح كثيرة فى بلعرب بن سلطان ، وفيه يقول [١] :

يا مَنْ إذا ثارَ فى الهَيجْاء يفعل فى ... أعدائه فِعْلَةَ الجزَّار فى البُدُنِ [٢]
ومَن إذا فاخر الأشراف فى مَلأٍ ... شاعتْ مفاخرُه فى الشام واليمن
هذا الكريم الذى تَشْفيك رؤيتهُ ... من كل داءٍ ومن هَمٍّ ومن حزَنِ
بِلْعُرْب نَجْلٌ لسلطانَ الذى حَسُنَتْ ... أخلاقهُ وهْو ربُّ المنظر الحسنِ

وواضح أن شعره متوسط . وأجود شعراء عُمان فى أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرَّواحىّ العُمانى ، وهو شاعر بارع ، توفى سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠م ولذلك نرى أن نؤخرُه إلى العصر الحديث فى عمان .

ولابد أن نعرض لدولة بنى مهدى الخارجية التى استولت على زَبيد من يد بنى نجاح ، وقد ظلت نحو خمسة عشر عاما ، وكان مؤسسها على بن مهدى الحميرى يعتنق مذهب الأزارقة من الخوارج ، وهو أكثر مذاهبهم تشددا ، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفيه ، ويسترقّ ذراريهم . ولم يقف عند مبادئ الأزارقة ، فقد استباح نساء المسلمين . وخلط آراءه بشىء من مبادئ الإسماعيلية ، فادَّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدى . واستطاع الاستيلاء على زبيد سنة ٥٥٤ ، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر ، وتولى بعده ابنه المهدى ، وسار سيرة أبيه فى سفك الدماء وسَبْى المسلمين ، واستولى على تعزّ والجنَد ، ويقول العماد الأصبهانى إنه ادعى الإمامة وأقبل على شرب الخمر . توفى سنة ٥٥٩ ، وخلفه أخوه عبد النبى ، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء ، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩ . ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسبح [٣] وعبد الله [٤] بن أبى الفتوح الحرازى ومحمد بن عمر العمرانى وله من قصيدة يمدح بها عبد النبى [٥] :

وضحتْ شموسُ الحق بعد أُفُولهِ ... ورَسَتْ هنالك قاعداتُ أُصولهِ

ونقف قليلا عند شاعر من شعراء الإباضية ، هو أبو إسحق الحضرمى ، وشاعر من شعراء دولة بنى مهدى الخارجية ، هو ابن الهُبَيْبى .

---

(١) التحفة ٢ / ٨٧ .
(٢) البدن : النوق والبقر المهيأ للذبح .
(٣) الخريدة قسم الشام ٣ / ٢٧٢ .
(٤) نفس المصدر ٣ / ٢٧٣ .
(٥) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ص ١٩٣ .

أبو إسحق الحضرمى[1]

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهَمْدانى الحَضْرمى ، وُلد بحضر موت ولا يُعْرَفُ بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد فى مستهل القرن الخامس الهجرى أو فى أواخر القرن الرابع . وهو من بيت علم وفضل . كان أبوه - كما يقول مقدم ديوانه - عالما ورعا زاهدا متقشفا . ويبدو أنه كان يعتنق عقيدة الإباضية مثله ، ومثل كثيرين من أهل حضر موت . ونشأ ابنه على عقيدته ، حتى إذا شبَّ أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها فى الناس من حوله ، وفى نسبه وإباضيته يقول :

فإنْ تَسْألى عنِّى وعن أهل مذهبى ... ومن أين دارى أنت يا أمَّ حازمِ
فإنِّىَ من هَمْدانَ أصلى وقُدْوتى ... فمرداسٌ والأوطان أرضُ الحضارمِ
أنا الرجلُ الدَّاعى إلى الحقِّ والذى ... أبتْ نفسُه شَتْمَ الطُّغاة الأشائمِ
أنا الرجلُ الشارى الذى باع نفسَهُ ... وأصبح يرجو الموتَ عند التصادم

وهو فى الأبيات يصرح بأنه حَضرمى من همدان . وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية ، ويصف نفسه بأنه من الشُّراة ، وقد سمى الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى : (ومن الناس من يَشْرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته ، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد فى سبيلها حتى يفوز برضوان الله ، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكرا ، مما جعله يخلف ديوانا ، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويرا تاما ، وهى حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية فى نَزْوى إذ نراه على رأس حملة للخليل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضر موت إلى سلطانه وقد ظل واليا له عليها إلى وفاته ثم لخلفه راشد بن سعيد الذى مَدَّ جناح سلطانه إلى عُمان ، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان فى قصائد كثيرة ، بمثل قوله :

يا أيها العَلَمُ العَدْلُ الذى كملتْ ... له الخصالُ مُروءاتٍ وإيمانا
إنى أحبُّك والرَّحمن يعلمُه ... حبَّ احتسابٍ إلى ذى الطَّوْل قُرْبانا

ويطلب فى القصيدة منه معونة ليحطم العواة الضالين . وكانت لاتزال تأتيه المعونات ولايزال يحارب أعداء عقيدته فى حضر موت . ويبدو أن كثيرين كانوا ينقضون طاعته بين

---

(١) انظر فى ترجمة أبى إسحق الحضرمى وأشعاره كتاب صفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير ص ٦٦ وتحفة الأعيان ١ / ٢٥١ وفى مواضع متفرقة . وقد طبع ديوانه مع مقدمة لسليمان الباروني .

البدو وفى المدن الحضرمية ، فكان لايزال يرسل إليهم الحملات ، ولا يزال بهم حتى يُلْقوا له عن يدٍ وهم صاغرون ، وصوَّر ذلك فى قصائد كثيرة ذاكرا نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه فى كل مكان بحضر موت ، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مذعنة مستسلمة ، يقول للخليل فى إحدى قصائده :

سلِ الخُطَبَا لما دَعَوْا لك جهرةً ... على رَغْم أهل الجَوْر بعد التصادمِ
وسَلْ عَرَب البَيْداء لما أذقتهم ... عشيَّة خانوا العهد سُمَّ الأراقم
وأمَّا نواحى حَضْرموتَ فإنها ... بحَوْل إلهى طوعُ أمرى كخاتمى
ولم يَبْق لى إلا الصُّلَيْحىُّ قائما ... وها هو أيضاً سَعْدُه غيرُ قائم
ونحن إليه واردون بجيشنا ... فما هُوَ أدهَى من ملوك الدَّيَالِم

وهو فى البيتين الأخيرين يشير إلى أنه عازم على حرب الصليحى مؤسس الدولة الصليحية فى اليمن وكان قد أخذ يدعو لنفسه ويبدو أن كلا منهما كان يتحرَّش بصاحبه ، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه ، وكان الصليحى يهدده بالخليفة الفاطمى وجنوده ، وإلى ذلك يشير أبو إسحق بقوله :

يخوِّفنى أنَّ المعزَّ مَلاذُهُ ... بمصرٍ وما خوفى لأهل المظالمِ
إذا وَفْده ولَّى إلى مصْرَ رائداً ... مَضَى وَفْدُنا قَصْداً لخير المعالم
ليعلَم أىُّ الحزب أسبقُ نُصْرةً ... وأيُّهما أولَى بفعل المكارمِ

وواضح أنه سمى المستنصر خَليفة مصر حينئذ المعز كأنه لا يعرف لقبه الحقيق . وخرج هُو وخصمه الصليحى من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب ، ونرى أبا إسحق يوجه قصيدة أشبه بنداء إلى إمامه الخليل بن شاذان كى يغيثه وينصره ضد الصليحى ، قبل أن تتفاقم المعارك وتقع الكارثة ، يقول له من قصيدته نونية :

انصُرْ أخاك فإن الحرب قائمةٌ ... والحق يطْلبُ من أهليه أرْكانا
اجْعَلْه أوَّل ما تَحْيا البلادُ بهِ ... إنا نؤمِّل جيشاً منك يَغْشانا
واعلمْ بأنك قد أثَّرْت مأثُرةً ... فارْفَعْ لها شَرَفاً فالأمرُ قد هانا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية ، وهو يريد معونة حربية . واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحى وأن ينزل بها خسائر فادحة ، ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد ، ويبقيه والياً له على حضر موت ، ويظل يرسل له بقصائد المديح . وكان قد استولى على عُمان كما أسلفنا ، وله يقول :

أيا راشدٌ إنا لعمرُك نَزْدَهى ... بذكراكمُ فى حَضْرموتَ تعاظما

إذا ما عُمانيٌّ ألمَّ بأرضنا أَحَطْنا به نسأَله عنكم تراحما

وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية ، وأخلاقهم الفاضلة ، ومناقبهم الكريمة ، وكيف أنه أصبح إماما لهم وقيِّما عليهم ، يصلح أمرهم ، ويدفع عنهم الخطوب ، يقول :

إباضيَّةٌ زُهْرٌ كرامٌ أفاضلٌ مناقبهم فى كل سامى عُلاً تَبْدُو

وأنت لنا من بعدهم صِرْتَ قَيِّماً حَمولا لِثقْل الخطْب يُورِى بك الزَّند[1]

ونراه فى نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يبعث إليه بنجدة تعينه فى حربه مع قبيلتى نَهْد وعُقَيل إن هما لم تستكينا نهائيا ، ولم تُلْقيا السلاح وهما صاغرتان ، يقول :

وإن عدلوا عـن بَغْيهم وتراجعوا إلى عَسْكر الإسلام والحقّ وارتَدُّوا

فأهلاً وسَهْلاً بالعشيرة إنهم إليكم بإخلاصٍ لربِّ السَّما أدُّوا

وإن هم أَبَوْا فاستَصْرِخونا فإننا قريبٌ وما للقوم من صَحْبهم بُدُّ

وما بين وادى حضرموت وبينكم إذا سرَّكم إتيانُنا نحوكم بُعْدُ

وهو يسمى عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق ، ومن قديم كانوا يقولون إن معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده ، ويَصفون خصومهم بالبغى والجور وأنهم خرجوا على حدود الدين . ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل توحيد ، على نحو ما صورنا ذلك فى غير هذا الموضع . وليس فى الديوان ما يدل على أنه ظل عاملا لأئمة نَزْوى بعد راشد ، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه بالإمامة ونستبعد ذلك ، ونظن أنه ظل على ولائه لأئمة الإباضية فى نزوى ، وحقا نراه فى بعض شعره يصرِّح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه فى كل مكان ، على شاكلة قوله :

عَلِقَ الفؤادُ بأن أكون أنا الذى يُحْيِى الهُدَى بقواضبٍ ورماحِ

وعلى السيوف يموت كلُّ مكرَّمٍ وعَلَى السيوف قِيادُ كلِّ فلاحِ

وعلى السيوف ينال من طلب العلا غُرَفَ الجِنان وَقصْدُهنَّ كفاحى

وهو يقصد بالهدى نحلته الإباضية ، ويقول إنه يشعر فى أعماقه أن عليه نشر دعوتها وإشاعتها فى كل بقعة ، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديما من محبتهم للاستشهاد فى سبيل الله ، وكأنه أصبح شعارا لهم ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم ونعيمه . ولسنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى .

---

(١) يورى هنا : يتقد .

ابن الهُبَيْنى [1]

من شعراء تهامة فى القرن السادس الهجرى ، تَبِعَ على بن مهدى حين استولى على زَبيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده . وكان يجعل شعره شركة بينه وبين على بن مهدى وولديه المهدى وعبد النبى ، فتارة ينظمه مستقلا ، وتارة ينظمه بلسانهم ، ونصَّ على ذلك القدماء . وقد وصفه عمارة اليمنى فقال : « هو أمتن كلاما ، وأقوى نظاما من كثير ممن سمعت به من شعراء اليمن » . وشعره على لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون ، من ذلك قوله على لسان ابن مهدى يهدِّد قبائل خَوْلان وجَنْب وسِنْحان وهَمْدان :

ما بالُ خَوْلانَ لا توفى بما تَعِدُ ... يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ
وما لِجَنْبٍ وسِنْحانٍ وأختهما ... هَمْدان تلك الأعاريبُ التى حشدوا

وتسميته لهم بالأعاريب كأنه يشير إلى شطر فى خمرية لأبى نواس يهزأ فيها بالأعراب قائلاً : « ليس الأعاريب عند الله من أحد » . وابن الهبينى يحمِّل الكلمة نفس المعنى . وله قصيدة ميمية طويلة على لسان علىّ بن مهدى وجَّه بها إلى أهل حصن تَعْكُر وقبيلة خَوْلان منذرا لها نذيرا شديدا ، وهو يفتتحها بقوله :

أبلغْ قُرَى تَعْكُرٍ ولا جَرَما ... أن الذى تكرهون قد دَهَمَا
وقُلْ لجنَّاتها سأبدلُها ... سَيْلاً كأيام مَأْرِبٍ عَرِما
ظَنَّتْ خُوَيْلانُ أنْ ستشغلنى ... عَمَّى لما ظَنَّتِ اللئامْ عَمَى
هل تَنْقُصُ البحر كفُّ غارفِهِ ... أو يُخْمِدُ النارَ قابِسٌ ضَرَما
تَعْساً لخولانَ لا أباً لهمُ ... أمْسَوا وُجوداً وأصبحوا عدما
إذ نفخوا من صَوارمى ضَرَماً ... واستَسْمنوا من ظنونهم وَرَما
وشمَّرتْ ساقَهَا الحروبُ وما ... ألفَّها الليلُ سائقاً حُطَمَا

وهو يهدِّد فى أول قصيدته قرى تَعكُر بأنه سينزل بها ما أنزله الله بقرى سبأ ومدنها من سَيْل عَرِم ، يقول جلَّ شأنه : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيةٌ جنَّتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبة وربٌّ غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبَدَّلْنَاهم بجنَّتيهم جنَّتين ذَواتى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىْءٍ من سِدْرٍ قليل) والأبيات تدل على براعة شعرية حقيقية فى الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب . وهو يتأثر فى البيت الأخير

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبينى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٦٥ وما بعدها و٣ / ٢٨٤ وما بعدها .

بشطرين وردا فى خطبة الحجاج المشهورة التى خطبها فى الكوفة أول قدومه واليا على العراق ، وقد حمّلها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا : « إنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللّحَى » ثم أنشد هذا الشطر فى وصف الحرب وشدتها : « قد شَمَّرَتْ عن ساقها فَشمِّروا » وتلاه ببيت عاصف من الشعر :

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدّى زِيَمْ قد لفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ

والشد : العدو . وزيم : اسم فرس أو ناقة . واللف : الجمع . والحطم : الظالم للماشية . وواضح أن ابن الهُبَيْرى كوّن بيته من الشطر السالف ، ثم من الشطر الثانى فى البيت ، ليصور ما سينزله بخولان من معارك مدمرة ساحقة . ويستمر فى وصف جنوده ووعيده .

إنَّ نسورَ الوَغَى إذا وقعتْ بأرضِ قومٍ أطارت الرَّخَما (١)
ترمى بنيرانها قُرَى عَـدَنٍ صُبْحاً فيُمْسى شرارُها الحرَما
أيَشْرَبُ الخَمْرُ فى ذُرَى عَدَنٍ والمَشْرفِيَّاتُ بالحُصَيْبِ ظِما
ويُلْجَم الدينُ فى محافلها والخيل من حَولى تعُلُكُ اللُّجُما

وما جنوده إلا نسور أما جنود خصومه فرخم وطير مأكول ، ويضيف إلى تهديد خولان تهديد عدن وأمرائها من آل زُرَيْع ، وكانت تعزّ والحَنَد وَتَعْكُر فى حوزتهم . فكان طبيعيا أن يصطدم بهم . والشاعر يزعم على لسان ابن مهدى أن أهل عدن غارقون فى الخمر إلى آذانهم ، ويقول إن السيوف فى الحصيب وادى زَبيد ظامئة إلى دمائهم وأن الخيل من حوله تَعْلُكُ اللجم . تريد أن تهمّ بالمسير إليهم وقتالهم . وكان طبيعيا والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدى وولديه من جهة وعدن وأمرائها بنى زُرَيْع من جهة ثانية أن يصطدم ابن الهبيرى شاعر بنى مهدى بأبى بكر العَيْدَى شاعر الزريعيين ، وأن يأخذا فى التهاجى وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر ، وقد احتفظ العماد فى خريدته للشاعرين بقيضتين من هذا الطِّراز ، أولاهما لابن الهُبَيْرى ونراه يستهلها بالإشادة بجنود على بن مهدى إمامه ، يقول :

أُسْدٌ إذا ما أبصرتْ أُسْدَ الشَّرَى ورأتْ حياضَ الموت لم تَتَجهْجَهِ (٢)
تعدو أمام متوَّجٍ مُتَبَتِّلٍ متيقِّظٍ متوقِّدٍ متنبِّهِ
متفقِّهٍ فى الدين لكنْ لم يكن من عند غير الله بالمتفقِّهِ
ملكٌ إذا اشتبه الملوكُ فما لـه فى ملكه وصلاحه من مُشْبِهِ

(١) الرخم : طائر غزير الريش كبير الجناح طويل الذنب . (٢) تتجهجه : ترتد .

ومنزِّهُ الدين الحنيفيِّ الذى لولا الإمامُ القطبُ لم يَتَنزَّه
بصوارمٍ وفهاذمٍ وضراغمٍ وملاحمٍ بلغتْ به ما يشتهى[١]

وواضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام فى رأيه وشدة بأسهم ، ويسبغ عليه صفات التفقه فى الدين وحمايته بسيوف قاطعة وأسود ضارية وملاحم ساحقة . ويمجد انتصارات على بن مهدى على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشى ، ويعود إلى الإشادة به ، قائلا :

أخبارُ أيَّام الإمـام فواكهٌ فأصِخْ بِسَمْعك نحوها وتفكَّهِ
سِيَرُ الإمام قديمُها وحديثها فَرَحُ القلوب وروضةُ المتنزِّه
أشْهى من الماء الزُّلال على الظَّما وألذُّ من عَصْر الشباب الأمْوَهِ[٢]

ولا شك أن ابن الهبيبى يجور جورا فظيعا على الحقيقة ، فقد عرضنا لابن مهدى ومبادئه ، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج ، ويكفى وصمة لا تفارق جبينه أنه استباح نساء المسلمين واسترقَّ الذرارى ، فكان ينبغى على ابن الهبيبى أن لا يسخِّر شعره فى مديحه هذا المدح المفرط فى الثناء . وتُنسب لابن مهدى دالية لا شك أنها من نظم ابن الهُبَيْبى ، وفيها يقول على لسانه :

قسمتُ الرَّدَى والجودَ قسمين فى الورَى فللمعتدى حَدِّى وللمُجْتدِى رفْدى[٣]
ومالىَ من مالى الذى كسبتْ يدى تُراثٌ أبقِّيه سوى الشكر والحمد
تخوَّفنى جَنْبٌ بِكُثْر عديدِها وما لجنود الله حولىَ من عَدّ
تُقعْقِعُ نحوى بالشِّنان وهل ترى عُوَا الكلب يُخْفِى زَأْرَةَ الأسدِ الوَرْدِ[٤]

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهُبَيْبى ، إذ جلب فيه عبارة من عبارات الحجاج فى خطبته التى أشرنا إليها آنفا فقد قال فى تضاعيفها : إننى لا أُغْمَز تغمز التين ولا يُقَعْقع لى بالشنان ، وهى القرب البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل على السير لتفزع فتسرع . وابن الهُبَيْبى مثل أبى إسحق الحضرمى لا يُعْرَفُ زمن مولده ولا زمن وفاته ، ولكن من المؤكد أنه عاش فى زمن دولة بنى مهدى ، وربما لم تمتد به الحياة بعدها أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها فى نهاية العقد السابع من القرن السادس .

---

(١) الصوارم والفهاذم : السيوف . الضراغم : جمع ضرغام .
(٢) الأموه هنا : الناضر .
(٣) رفدى : عطائى .
(٤) الورد : الشجاع الجرىء .

٤

شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مرَّ بنا أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالإسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتخليصه من كل ما دخل عليه من شوائب ، كتقديس الأولياء ، والاعتقاد فيهم أنهم – كما يقولون – ينفعون الناس حتى فى قوتهم ، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا زروعهم وإبلهم وأنعامهم وشاءهم . وينبغى – فى رأى ابن عبد الوهاب – أن يكفَّ المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ، فهما المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه ، والمدار فى الدين إنما هو على النقل ، أما العقل فيتخذ شاهدا ولا يستخدم حكما . وهذه الدعوة – كما قدمنا – تستضىء بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذى كان يقدم المنقول على المعقول ، فالمنقول من الكتاب والسنة أولا . والمعقول يليه ويأتى ثانيا ، ولا يصح التقرب إلى الله بزيارة الولى الصالح ، فضلا عن زيارة جَدَثه ورفاته . وتشدد ابن عبد الوهاب قائلا إن ذلك يعنى الشرك بالله أَنْ يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها ، طالبا جَلْب منفعة أو دَفْع أذى ، إذ يظن أن الولىّ من شأنه أَنْ يُعينه على ذلك ، والله يقول لرسوله ﷺ فى كتابه : (قل لا أملك لنفسى نَفْعا ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله) . وعلى هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب فى أنه لا يجوز إشراك غير الله معه فى الدعاء ، كأن يقول القائل المتوجه إلى ربه : أسألك بحق فلان من الصالحين ، بينما الله عز وجل يقول : (فلا تدعوا مع الله أحدا) . وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولى أو غيره ، لمثل قوله تعالى : (من ذا الذى يَشْفع عنده إلا بإذنه) . وينبغى أن تُلْغى النذور للأولياء جملة ، إذ النذور إنما تكون لله ولا يصح إشراك أحد معه فيها . ومن أكبر صور الشرك – فى رأى محمد بن عبد الوهاب – الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من المنجمين أو أصحاب السحر والشعوذة ، والله يقول : (ولله غيب السموات والأرض) ويقول : (فلا يُظْهر على غَيْبه أحدا) فمن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلا فى صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه . ومدَّ حملته إلى المتصوفة والطرق الصوفية ، فأنكرها ودعا إلى إلغائها إلغاء باتا وإلغاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأوراد ودلائل خيرات ، فكل هذه – فى رأيه – بِدعٌ لم يعرفها الإسلام فى عهد الرسول ﷺ وعهود أصحابه ، وينبغى أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة

وإحيائها والاقتداء بالسلف الصالح . ولذلك يسمى الوهابيون سلفية . ومما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفزع أحد إلى التأويل فى آيات القرآن الكريم . وإنما عرضنا ذلك كله لنتبين الأسس التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب والتى صدر عنها بالتالى شعراء الدعوة الوهابية ، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصدوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يمنى من الأسرة الزيدية ، هو محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى ، وأن أبرع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه فى هذا العصر هو ابن مشرف الأحسائى . ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفى مقدمتهم سليمان بن سَحْمان وابن عُثَيْمين ، ولن نعرض لهما لأنهما يدخلان فى العصر الحديث ، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحسائى المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وله مرثية فى ابن عبد الوهاب حين لبى نداء ربه افتتحها بقوله[١] :

إلى الله فى كَشْف الشدائد نفزعُ وليس إلى غير المهيمن مَفْزَعُ

وقصائد كثيرة نظمت فى الإشادة بابن عبد الوهاب ومبادئه ، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن على الشوكانى اليمنى المار ذكره . ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف .

محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى[٢]

ولد بحصن كُحْلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م فأتم بها حفظ القرآن ، وسرعان ما أخذ يختلف إلى العلماء ينهل من حلقاتهم ودروسهم ، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول ، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس فى الفقه وفى النحو وفى غيرهما ، وأخذ يَدْرس كتب الحديث الكبرى على كبار الحفّاظ المحدثين من مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وسُنَن أبى داود ، ونال فى ذلك إجازات مختلفة لا فى صنعاء فحسب ، بل أيضا على كبار المحدثين فى مكة والمدينة ، وعنى بالتبحُّر فى فقه الشافعى وفى الأصول . ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة ، وله فيه على الجامع الصغير شرح فى أربعة مجلدات ، وله فى الفقه كتاب العدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وله شرح فى علوم الحديث

---

(١) شعراء هجر ص ٥٠ .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن إسماعيل وأشعاره البدر الطالع للشوكانى ٢ / ١٣٣ ونشر العرف لزبارة ٢ / ٥٠٥ و ٢ / ٧٦٤ وفى مواضع مختلفة. وديوانه طبع بمطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٩٦٤ باسم ديوان الأمير الصنعانى . وراجع مقدمة على السيد صبح المدنى للديوان .

والآثار فى مجلدين ، غير كتب كثيرة فى الأصول وفى النحو وفى بعض الفتاوى . ومن كتبه « إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » ويبدو أنه كتبه فى الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجَّح أدلَّة السنة والكتاب . وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحياناً الخطابة . ويُجْمع كل من كتبوا عنه أنه كان مجتهدا ينفر من التقليد ومن كل رأى فقهى لا دليل عليه ، ويقول الشوكانى إنه كان « من الأئمة المجددين لمعالم الدين » وكان الشوكانى مثله يعجب بالدعوة الوهابية ، ومر بنا أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده فى يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته ، على أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية وللثانى وذريته السلطة الروحية . وما نتقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين . حتى نجد صوتا مدويا ينطلق من صنعاء باليمن ، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيدا وممجدا لدعوته استهلها بقوله :

سلامُ على نَجْدٍ ومَنْ حَلَّ فى نَجْدِ ... وإن كان تَسليمى على البُعْد لا يُجْدِى

وقد مضى فيها يعلن إعجابه بمبادئ الدعوة الوهابية ، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحلول ، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأورادها ، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين لدلائل الخيرات . يقول مبرراً صنيعهم :

غلوٌّ نهَى عنه الرسولُ وفِرْيَةٌ ... بلا مِرْيةٍ فاتركْه إن كنت تَسْتهدى

أحاديثُ لا تُعْزَى إلى عَالِمٍ ولا ... تُسَاوى لفَلْسٍ إن رجعتَ إلى النَّقْد

وهو يضع بذلك دليلين يجوِّزان حرقها فى رأيه : ما بها من غلو ومن أحاديث ضعيفة واهية ، ويقول إنها من البدع المستحدثة . وكان مايني ينصح قومه بالانصراف عن مثل هذه الأوراد . وكان يؤذيه أشد الإيذاء تصديقهم للمنجمين وإيمانهم بأنهم يطَّلعون على الغيب . ويكتب إلى الإمام المهدى العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهاه عن الاستماع إلى المنجمين وافتراءاتهم الكاذبة ، وفيها يقول :

ولا تستمعْ من عابدٍ لنجومهِ ... تقاويمُ زورٍ ليس تُغْنى ولا تُجْدى

أكاذيبُ يُمْليها لكلِّ مغفَّلٍ ... يصدِّقها من ضلَّ عن طُرق الرُّشْدِ

ووالله ما عند النجومِ دلالةٌ ... على نَحْسِ يومٍ فى الزمان ولا سَعْدِ

ووالله ما غيرُ الإلـه بعالمٍ ... بما فى غَدٍ مما يُسِرّ وما يُبْدِى

وصدق رسول الله ﷺ فى قوله : « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وله قصيدة جعل مقدمتها فى ديوانه على هـــذا النمط : « هذه نفثة مصدور ، وكلمة صادرة عن قلب

من ضياع الشريعة محرور ، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويُحْيِي شريعة سيد المرسلين ، وفيها إيقاظ للهمم لو كانت نائمة ، ولكنها ميتة لا تُرْجَى لها قائمة . والجهاد باللسان أحد الأقسام . نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام » . وفيها يصور جهاد المصلح الدينى المنتظر هو وأنصاره فى سبيل دعوته ، وكيف يخوضون إليها غمار الحروب ، حتى تبسط سلطانها على الناس ، يقول :

يَحُفُّ به قومٌ على كلِّ سابحٍ ... تُعَدُّ المنايا فى الحروب مُناها
ولا جمعوا مالاً ولا كسبوا لهم ... قُصورا ولا باهوا برَفْعِ بُناها
وما ادَّخروا إلا حُساما وذابلاً ... ومُهْراً يبارى الرِّيحَ عند سُراها
وما قصدوا من سَفْكهم لدمِ العِدا ... وتَطْويقهم بالسَّيف بِيضَ طُلاها [1]
سوى أنهم يُحيون شِرْعَةَ أحمدٍ ... ويَنْفون عنها داءها بِدوَاها
سيغسل عنها السيفُ أدْرانَ بِدْعةٍ ... فيُشْرق فى الآفاق نورُ سَناها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة فى سن مبكرة ، ولكن مقدمتها وما ترسمه من الجهاد لمصلح دينى وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدران البدع المستحدثة فى الحياة اليومية ، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة ، إنما يريدون درء المنكرات ، وإنهم ليحملون فى سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا الغى والضلال . كل ذلك يشهد بأن المقصود فى القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره بزعامة محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل الناس فى الجزيرة العربية على الدعوة الوهابية . وفى الديوان دالية يعلن فيها تبرءه من ابن عبد الوهاب ودعوته ، وأكبر الظن أنها موضوعة على لسانه أقحمت من قديم على الديوان تقرباً للأمراء الزيديين من بيته ، وفى الحق أنه كان يحمل نفساً ثائرة تحب الحق وتؤثره ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُون به لأئمته مما أدى أحيانا إلى سجنه على نحو ما نرى فى قوله سنة ١١٦٦ للهجرة :

وما حبسونى أننى جئتُ مُنْكراً ... ولا أننى نافستُ فى الملك والكُرْسى
ولكننى أحببْتُ سنَّةَ أحمدٍ ... وأبرزْتُها شمساً على العُرْب والفُرْسِ

وكان أهل بيته من الأئمة يتلقبون ألقابا كثيرة . وقد لا يكتفى الإمام بلقب واحد بل يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدى لدين

(١) الطلى : جمع طلية وهى أصل العنق

الله ، وكأنما كان ذلك يؤذى نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يرى لأصحابها أعمالا حميدة ، بل يرى أعمالا ذميمة فقال :

تسمَّى بنور الدين وهْو ظَلامهُ ... وهذا بشمس الدين وهْو له خَسْفُ
وذا شرفُ الإسلام يدعوه قومُه ... وقد نالهم من جَوْره كلَّهم عَسْفُ
رُوَيْدك يا مسكينُ سوف ترى غداً ... إذا نُصب الميزانُ وانتشر الصُّحْفُ
بماذا تُسَمَّى هل سعيدٌ فحبَّذا ... أو اسمُ شقيٍّ بِئْس ذا ذلك الوَصْفُ

وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة من بيته فى عصره وقبل عصره . وكان لا يخشى فى الله لومة لائم . وديوانه يكتظ بالمواعظ والأدعية والابتهالات إلى الذات العلية ، وله قصيدة فى التقوى ختم جميع أبياتها بشهادة : لا إله إلا الله ، وله غير مدحة نبوية وأيضاً له قصيدة فى مديح على سماها « التحفة العلوية » وكتب عليها شرحاً سماه « الروضة الندية » . وله أشعار فى فنون البديع المختلفة وخاصة فى التورية وهو يكثر من التضمين فى أشعاره وخاصة من شعر المتنبى . وطالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب فى الوفاة بنحو ربع قرن تقريباً .

ابن مشرف الأحسائى [١]

هو أحمد بن على بن حسين بن مشرف الوهيبى التميمى الأحسائى ، وُلد وعاش فى الأحساء ولا يُعْرف تاريخ مولده . وبدأ فى نعومة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى موطنه ، والتهم كل ماوجده فى هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية ، واعتنق المذهب المالكى مثل آبائه . وليس فى ديوانه ما ينبئنا عن أحواله فى فواتح حياته أو فى شبابه المبكر ، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات ، وهى تمتد من سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وأكثرها أو قل جمهورها فى مديح فيصل بن تركى ، والسنة الأولى هى نفس السنة التى استولى فيها السعوديون على الأحساء ، وكأن شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفى سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م . وهو فى ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها ، فهى كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية إلى الأحساء فى سنة ١٢٤٥ أو أنه يقترن بتلك السنة ، على كل حال الديوان كله

(١) انظر فى ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء هجر ص ٧٧ ومقدمة الناشر لديوانه (ضمن الرياض) .

مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها ، أو قل إنها مادته سواء تغنّى بابن عبد الوهاب وأفكاره أو تغنى بفيصل وأعماله أو بغيره من قواده . فالدعوة الوهابية مادة الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب ، بل هو أداة من أدواتها يذيعها ويناضل عنها خصومه ويؤيدها بكل ما استطاع من حجة وبرهان . وقد سمى أول قصيدة فى الديوان باسم جوهرة التوحيد وهو يستضىء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد ، ويستهلها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول :

الخيرُ والشرُّ جميعُه صَدَرْ من أمر ربنا وذا هُوَ القدَرْ

ومرَّ بنا أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل شىء مقدر على الإنسان منذ الأزل ولاصحة لما يقوله المعتزلة من أن الإنسان كامل الحرية فى تصرفاته يأتى ويترك من الأفعال ما يريد فهو خالق أفعاله باختياره . ويرد على ذلك ابن مشرف بعبارة أوضح فى موضع آخر منشدا :

وكلّ شىءٍ قضاهُ الله فى أزلٍ طُرًّا وفى لوحهِ المحفوظ قد سُطِرا
والله خالقُ أفعالِ العبادِ وما يَجْرى عليهم فعنْ أمرِ الإله جَرَى
فليس فى مُلْكِهِ شىءٌ يكون سِوَى ماشاءه اللهُ نَفْعاً كان أو ضَرَرا

ويعقد فصلا لأنواع التوحيد . ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب ، إن أضرب الوحدانية ثلاثة ويعدُّها على هذا النمط :

توحيدُ ربِّ الناس فى المُلْك وفى صفاتهِ وفى العبادة اقْتَفِ

فالأولى وحدانية الربوبية وهى اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له ، فهو المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت . والثانية وحدانية الأسماء والصفات ، من مثل الحى الباقى القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم البصير المريد القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه .

ويثير ابن مشرف تبعا لمحمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتصم والواثق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه ، وهى المشكلة التى ورَّط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء وجعلوهم يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفى مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية . ويقول ابن مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظا ومعنى والمخلوق إنما هو نطق الناس به يقول :

الصوتُ للقارئ والكلامُ لله ذا بهِ قد استقاموا
فاللفظ والمعنى من القرآنِ قد نَزَلا من ربنا الرحمنِ
ومن يَقُلْ بخلقهِ أو سَطْره فهْو مُضلٌّ فاستعِذْ من شرِّهِ

وكان المعتزلة ينزهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسما ولا عرضا ولا مادة ولا جوهرا ولا يحيط به مكان ولا زمان . وأوّلوا الآيات التى قد تفيد مشابهة مثل (ثم استوى على العرش) بأن الاستواء فى الآية بمعنى الاستيلاء ومثل (يدُ الله فوق أيديهم) أوّلوا اليد فى الآية بمعنى القدرة . ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام فى رأيهم وقالوا إنها عين الذات . وكل ذلك ردَّه محمد بن عبد الوهاب متابعاً ابن تيمية وابن حنبل ، وأخذ مثلها فى الآيات التى تفيد التشبيه بفكرة التنزيه مع الإيمان بما جاء منها فى القرآن ، وعلى ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرّف :

اللهُ ذو العَرْش على العرش استوى وعلمهُ لكلِّ شىء قد حَوَى
وما اقتضى التشبيهُ مثلَ العينِ والوَجْه والإصبع واليدَيْنِ
نؤمنُ به لكن مع التنزيه له عن التمثيل والتشبيهِ
من شبَّه الله بخلقهِ كفَرْ ومن نَفَى صفاته أُصْلِى سَقَرْ

وهو فى البيت الأخير يحكم على من ينفى الصفات وهم المعتزلة كما أسلفنا بالكفر ويقول إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسبا وكل امرئ يحاسَب على ما كسبت يداه ، ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبى ﷺ ومعجزاته من القرآن كالمعراج ويشيد بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وباقى العشرة المبشرين بالجنة وبأصحاب المذاهب الأربعة وبسفيان الثورى وداود الظاهرى . ويطيل فى الحديث عن البعث والمعاد والحساب . وبذلك يختم الحديث عن النوع الثانى من أنواع الوحدانية وهى وحدانية الأسماء والصفات ويأخذ فى الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوحدانية وهو وحدانية العبادة ، فالله وحده هو الذى يُعبَدُ دون سواه ، وهو وحده الذى تقدَّم إليه النذور ، ومن الشرك تقديمها لسواه وأيضاً من الشرك القَسَمُ بغيره يقول :

الحَلْفُ مطلقٌ بغير الله شِرْكٌ بلاشكٍّ ولا اشتباهِ

ويهاجم زيارة القبور : قبور الأولياء والصالحين وما بُنى عليها وشُيِّد من قُبب والطواف حول تلك القبور تقربا . وسؤال الناس أصحابها أن يدفعوا عنهم الأذى ويجلبوا هم النفع ، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء . كما أحاط بهم كرب ، طلباً للنجاة ، يقول :

ألم تنظر الشركَ الذى فيهمُ فَشَا فكَمْ قُبَّةٍ قد شيَّدوها على قَبْرِ

وطافوا عليها خاضعين تقرُّبا إلى ذلك المقبور بالذَّبْح والنَّذْرِ
وكم سألوا الأموات كَشْفَ كروبهم ولا سيَّما فى الفُلْك فى لُجج البَحْرِ
فزادوا على شِرْكِ الأوائل إذ دعوْا سِوَى الله فى حالِ الرَّخاءِ وفى العُسْرِ

وعلى هدى من الدعوة الوهابية مضى يهاجم كل ما هاجمته ، وكان مما استحدث فى الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة ، وعنَّفت الدعوة الوهابية المؤذنين على هذا التذكير ، ورأت منعه منعاً باتا ، واصفة له بأنه بدعة وينبغى الكف عنها ، وفى إثرها يقول ابن مشرف :

وسلْ فاعلَ التذكير عند أذانهِ أهذا هُدًى أم أنت بالدِّين تلعبُ
وهل سَنَّ هذا المصْطَفَى فى زمانهِ أو الخلفا أو بعضُ من كان يصحَبُ

واستمر يتساءل هل سنَّهُ التابعون أو سنَّه أحد أصحاب المذاهب الفقهية ، وانتهى إلى أنه من الأمور المحدثات التى ينبغى أن تجتنَب ، قائلا إن العلم ينبغى أن لايؤخذ إلا من الكتاب والسنة . ويخص هذه الفكرة بقصيدة يحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث النبوى وآيات الذكر الحكيم ، ويسميهما وحيين ، وتسميته الذكر الحكيم وحيا واضحة ، أما تسميته الحديث بالوحى فلأنه إلهام وهدى ربانى ، يقول :

وقدِّمْ أحاديث الرَّسولِ ونَصَّه على كلِّ قولٍ قد أتى بإزائهِ
وإن جاء رأىٌ للحديث معارضٌ فللرأى فاطَّرِحْ واسترح من عنائهِ
ومَنْ يكنِ الوَحْىُ المطهَّر علمَه فلاريب فى توفيقه واهتدائه
وكلُّ فقيهٍ فى الحقيقة مُدَّعٍ ويثبت بالوحْيين صدقُ ادِّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى ، فما يرسمه القرآن ويبينه الحديث هو الدين الحنيف ، وعلى العقل أن يسير وراءهما شارحا ومفسرا ومبينا ، لا موجها ولا متحكما ولا مؤولا . . وعلى هذا النحو تتجلى فى شعر ابن مشرف دائما الدعوة الوهابية بكل ما اتصل بها من مبادئ وتعاليم .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هى بيئة مكة والمدينة ، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا ويحج البيت الحرام ولم يكن

هناك مادح للرسول ﷺ . إلا ويسعى إلى زيارة ضريحه العطر وإنشاده مديحه ، غير من كان يقيم فى البلدتين المقدستين من أهلهما النساك . وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتفلسفة منذ الحلاج كانوا ينزلون فى مكة ويجاورون فيها ، وقلنا إنه نزلها ابن عربى وجاور فيها سنوات ، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفى « ترجمان الأشواق » وفيه يقول :

مَرِضِى من مريضة الأجفانِ عَلَّلانى بذكرها عَلَّلانى
هَفَتِ الوُرْقُ بالرياض وناحتْ شَجْوُ هذا الحمامِ مما شجانى [1]

وشاع الديوان فى مكة والمدينة وفى اليمن وتناقله الحجاج . ومن متفلسفة المتصوفة وشعرائهم الذين جاوروا فى مكة ابن سبعين ، أقام بها سنوات طويلة حتى توفى سنة ٦٦٩ وكان يقول بالاتحاد والحلول ، ومن شعره [2] :

من كان يُبْصر شأن الله فى الصُّوَرِ فإنه شاخصٌ فى أكمل الصُّوَرِ
بل شأنه كَوْنه بل كونه كُنْهُهُ فإنه جملةٌ من بعضها وَطَرى

ووراء ابن سبعين وابن عربى والحلاج كان ينزل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفى مقدمتهم القشيرى الذى لمَّ شعث الفُرْقة بين الصوفية وأهل السنة كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ونزلها الغزالى وشهاب الدين السهْرَوَرْدِىُّ العراقى وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله :

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحشَا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنًى بهِ وله عقْلُ
وعِشْ خاليا فالحبُّ راحته عَنَاً وأَوَّلُهُ سُقْمٌ وآخِرُهُ قَتْلُ
وإن شِئْتَ أن تحيا سعيداً فَمُتْ بهِ شهيداً وإلا فالغرامُ له أهلُ

ولم يبق مادح للرسول ﷺ إلا زار المدينة ، لتتأرج روحه بعطر قبره ، وقد زارها البوصيرى أكبر مداح الرسول ، وفيه نظم همزيته فى نحو أربعمائة وخمسين بيتا ، وسماها « أم القرى فى مدح خير الورى » وكذلك ميميته المشهورة باسم البردة ، وقد تناقلها الناس فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه إعجاباً وافتتاناً . ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد فى مطالع القرن الرابع الهجرى . ولكن لم تنل قصيدة فى مديح الرسول حُظْوة هاتين القصيدتين .

وبجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليهما أشعار زهد كثيرة ، كان يرددها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة ، على نحو ما نجد فى

(١) همت الورق : خفق الحمام بأجنحته . (٢) العقد الثمين ٥ / ٣٣٩ .

ديوان الزمخشرى الذى جاور فى مكة طويلا ، حتى لُقِّب «جار الله» . وكان هؤلاء المجاورن الكثيرون يضمنون الزهديات مصنفاتهم التى يؤلفونها فى مكة أو المدينة ، ومن يقرأ تفسير الزمخشرى الذى ألف بمكة والذى سماه الكشاف يجده عند تفسير الآية الكريمة : (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها) [١] ينشد توسلاً لطيفاً لشاعر على هذه الصورة :

يا من يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَناحَها ... فى ظُلْمة الليل البهيم الأَلْيَلِ [٢]
ويرى عروقَ نِياطها فى نَحْرها ... والمخَّ فى تلك العظام النُّحَّل
اغفرْ لعبدٍ تاب من فُرُطاته ... ما كان منه فى الزمان الأوَّل

ومن المجاورين بالحرمين الشريفين ابن ظفر المولود بصقلية فى شعبان سنة ٤٩٧ رحل من بلده يافعا فى طلب العلم إلى مكة ونهل من حلقات علمائها، وارتحل إلى مصر ثم إلى المهدية بتونس، وعاد إلى موطنه صقلية، وبها ألف لحاكمها فى سنة ٥٥٤ كتابه «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، ويمتلئ بأشعاره، وهى تصور زهده وتقشفه مع براعة فى نسج الشعر ونظمه من مثل قوله [٤] :

يا مُتْعَباً كَدَّهُ الْحِرْ ... صُ فى الفُضول وكادَهْ
لو حُزْتَ ما حاز كسْرَى ... وما حَوَى وأفاده
ما كنت إلا مُعَنًّى ... ومُغْرَماً بالزِّياده
لم يَصْفُ فى الأرض عَيْشٌ ... إلا لأهل الزَّهادَه

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلا ولكن كان يقوله عن اقتناع ، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين ، تكفيهم الكِسْرة . وكان يتحول واعظا كلما نزل بلدة ، ونزل بلادا كثيرة ، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق ، فألم ببغداد ودمشق ثم نزل حماة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ ومن زهدياته [٥] :

راقَكَ الزهدُ إنما الزُّهد رَفْضٌ ... لفضولٍ تُلْهى وتُطْغى وتُرْدِى [٦]
مَرْحَباً بالكفاف عيشا هنيئاً ... ثم لا مرحبا بحرصٍ وكَدِّ
لا يزال الحريصُ يَسْتامُه الحِرْ ... صُ ينُصْبٍ من الشقاء ونكْدِ [٧]

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٦ .
(٢) الأليل : شديد السواد .
(٣) انظر فى ابن ظفر الخريدة (قسم الشام) ٣/٤٩ وابن خلكان ٤ / ٣٩٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ٤٨ والوافى ١ / ١٤١ والعقد الثمين ٢ / ٣٤٤ .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٥٥ .
(٥) نفس المصدر ٣ / ٥٦ .
(٦) تردى : تهلك .
(٧) يستامه : يذاه ويصرفه .

ثم لا يستطيع أن يتعدّى قدرا ما لحكمه من مَرَدّ

فهو ينصح بعيش الكفاف وبالزهد فى كل ما وراء ذلك من فضول ومتع لا تفيد إلا اللهو والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحدا . ولا يزال الحريص يدفعه حرصه إلى غير قليل من الشقاء والتكد والتعب ، ومع ذلك لن يعدو ما كتبه له القضاء .

ولشعراء مكة والمدينة مدائح نبوية كثيرة ، على نحو ما نجد عند النَّشْو ، وقد سُقنا له فى ترجمته مثالا ، ولمحب الدين الطبرى المكى المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استهلها بقوله : « رحلت إلى المختار خير البرية » ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة ، ولابنه محمد مدحة نبوية بارعة يقول فى أولها [١] :

أنِخْ أيها الصَّادى الشديدُ ظَمَاؤهُ ... وردْ مَنْهَلاً أحْلَى من الشَّهْد ماؤهُ
وسَلْ عند باب المصطفى أىَّ حاجةٍ ... أردتَ وما تَهْوَى فَرَحْبٌ فِناؤهُ

ووراء هاتين المدحتين عشرات من المدائح يكفى أن نشير إليها ، ولشاعر متأخر يسمى عبد العزيز الزمزمى المكى ديوان مديح فى الرسول والصحابة .

وكثر بجانب ذلك الغزلُ الصوفى فى مكة والمدينة ، من مثل قول أبى إسحق المكى المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة [٢] :

مُعَذِّبَى كم ذا الصُّدودُ إلى متى ... مَضَى عُمُرى والوَصْل منكِ أروم
فجودى ورِقِّى أو فَجُودِى وعَذِّبى ... فما القلبُ إلا فى هواكِ مُقيمُ

وفى كتابى سلافة العصر ونَفْحة الريحانة لشعراء مكة والمدينة فى القرن الحادى عشر الهجرى مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة [٣] .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبى بكر العيدى ابتدأها بوصف غرام له بالحجاز ليس يدفعه ، وينقاد له قلبه ويتبعه ، ويأخذ فى وصف مكة ويذكر مناسك الحج منسكا منسكا ، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله [٤] :

وفى رُبَى يَثْربٍ غاياتُ كلِّ هَوًى ... يَجِلُّ عن مَوْقع الأشواق مَوْقِعُهُ
حيث النبوَّة مضروبٌ سُرادِقُها ... والفضلُ شامخُ طَوْدِ الفخر أفْرَعُه
وخاتمُ الأنبياء المصطفى شرفاً ... محمدٌ باهرُ الإشراق مَضْجعه
صلى الإلهُ عليه ما تكرَّر بالصَّـ ... ـلاة فَرْضٌ مُصلٍّ أو تطوُّعه

---

(١) العقد الثمين ١ / ٢٩٥ .
(٢) العقد الثمين ٣ / ٢٤٥ .
(٣) انظر مثلاً سلافة العصر ص ١٤٧ ، ٢٥٤ .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٤ .

والقصيدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، حنينا يشمل كل المواضع هناك ، وكأنما يريد أن يعانقها ، فهى هواه وحبه وأماكن افتتانه وصبابته . وتكثر فى اليمن كما كثرت فى مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفى والمديح النبوى ، وممن اشتهر بهما عبد الله [١] بن أسعد اليافعى اليمنى نزيل مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بعدن واختلف إلى العلماء فيها ، وحج فى سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والانقطاع عن الناس والسياحة فى الجبال ، ولزم شيخا صوفيا يسمى الشيخ الطواشى ، فسلكه فى الطريق . وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات ، ورحل إلى الشام ، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها فى القرافة فى مشهد ذى النون المصرى . وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة ، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشى . وألقى عصاه بمكة وتوفى بها سنة ٧٦٨ وله فى الصوفية وتراجمهم كما مرَّ بنا كتاب «روض الرياحين وحكايات الصالحين» ومن غزله الصوفى قوله [٢] :

قفَا حدِّثانى فالفؤادُ عَليلُ عَسَى منه يُشفَى بالحديث غَليلُ
أحاديثُ نَجْدٍ عَلِّلانى بذكرها فقَلبى إلى نجدٍ أراه يميلُ
ولا تذكرا لى العامريَّة إنها يولِّه عقلى ذكرُها ويُزيل
ولكنْ بذِكْرى عرِّضا عندها فإنْ تقُلْ كيفَ هُوْ قُولا بذاك غَليلُ
فإن تَعْطفى يُشْفَى وإن تُعْرضى فنى هواكِ المعنَّى المستهامُ قَتِيلُ

وهو يصور حبه ووجده وهيامه بليلى العامرية رامزا بهـا إلى الذات الإلهية دون تغلغل فى حلول أو اتحاد أو فناء ، فتصوفه تصوف سنى ، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها ، فهو محب مولَّه ، وحسبه أن يصور ولهه وحبه . وله بجانب هذا الغزل الصوفى مدائح نبوية كثيرة ، من مثل قوله فى إحدى مدائحه [٣] :

نبىٌّ عَلا فوق السَّموات مَنْصِباً بَدا نُورهُ من قبل نَشْأةِ آدمِ
به الدَّهْرُ أضحى ضاحكا متبسِّماً عَبوسا على أعدائه غيرَ باسم
علا فوق كل المصْطَفَيْنَ مُقَرَّباً بأعلى مقامٍ ماله من مُزاحمِ

وهو فى البيت الأول يستلهم فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة عند الصوفيين وما يتصل بها من فكرة أزلية النور المحمدى . وابنه عبد الرحمن يحاكيه فى الجانبين من شعر التصوف

---

(١) انظره فى العقد الثمين ٥/١٠٤ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١١ / ٩٣ والدرر لابن حجر (طبع دار الكتب الحديثة) ٢ / ٣٥٢ والبدر الطالع ١ / ٣٧٨ وتاريخ ثغر عدن ٢ / ١٠٩ .
(٢) العقد الثمين ٥ / ١١١ .
(٣) العقد الثمين ٥ / ١١٤ .

ثم المديح النبوى . ومن شعراء التصوف اليمنيين محمد بن إبراهيم بن الوزير [١] ، وله ديوان سماه «مجمع الحقائق والرقائق فى ممادح رب الخلائق» . وقد نشر فى القاهرة باسم مدائح إلهية ، وعُنى محمد بن إسماعيل الصنعانى الذى ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسمى الشرح : «فتح الخالق فى شرح مجمع الحقائق» . وقد ترجم له الشوكانى فى كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عُنى بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته ، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م . والديوان جميعه شعر صوفى سنى ، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة فى التعبير ، بل يسلك إلى ذلك مسالك العباد النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب الله وطلب العفو منه والغفران ، على شاكلة قوله فى التضرع والرجاء والتوكل :

أرجِّيك إذ كنتَ أهلَ الرَّجا ... وأخشاك إنى من الظالمينا
وأسألك العفوَ إذ كنت قد ... علمتُ بحبِّك للسائلينا
وفوَّضْتُ أمرىَ بعد الدُّعا ... بحقٍّ إلى أحْكم الحاكمينا
إذا شئتَ أعفيْتَنى من ذنوبى ... وسامحتَ يا أرحمَ الرَّاحمينا
وهذا الذى أنت أهلٌ له ... وأنت تحثُّ به الْمُحْسِنِينا
وأنت الذى قلت لا تَقْنطوا ... خِطَاباً خصَصْتَ بِهِ المُسْرفينا

وهو يشير فى البيت الأخير إلى قوله تعالى : (قُل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تَقْنطوا من رحمة الله) . وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية فى الديوان ، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوبا . وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مركوم بعضه فوق بعض . وربما كان الذى دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة فى شعر التصوف معاصره إسماعيل [٢] بن أبى بكر المعروف بالمقرئ الشافعى شيخ الفقهاء فى زَبيد وتهامة ، فإنه حين رأى جماعة من صوفية زَبيد أوهموا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربى ونَفْى العيب عن كلامه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء فى الله جل شأنه ومن حلول واتحاد ، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوى بعيد فى اليمن فانصرف الشعراء أو كثير منهم فى عصره - كما يبدو - عن الشعر الصوفى القائم على تصوير

---

(١) انظر البدر الطالع ٢ / ٨١ وراجع ديوانه «مدائح إلهية» طبع المطبعة السلفية بالقاهرة .

(٢) انظر فى ترجمته البدر الطالع ١ / ١٤٢ .

المحبة الإلهية ، تصويرا ينتهى إلى الإيمان بالاتحاد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المنزع الصوفى الفلسفى .

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير فى الحقب المتأخرة على أنه ينبغى أن نذكر أنه شاع فى اليمن شعر صوفى متجوِّل بأخرة من العصر كان المداحون يغنونه على نقر الطَّار والطَّبْل ، وأكثره فى المديح النبوى لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعى ، وسنخصه بكلمة مفردة .

ويكثر المديح النبوى والشعر الصوفى فى حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهما وبزهديات كثيرة ، حتى ليظن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمديح الرسول ﷺ وببعض غزليات صوفية وأشعار زهدية ، ولأبى بكر العيدروس [1] المتوفى سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ديوان صوفى سماه محجة السالك وحجة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفى ، وكثير منه بالعامية اليمنية ، فهو -كما يسمونه - شعر حُمَيْنى . وهو صوفى سنى وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله :

نعم لوصحَّ تحقيق شهودى لأشغلنى الشُّهودُ عن المقالِ
ولوحلَّ اليقينُ صميمَ قلبى لكنت هجرتُ فى المَوْلَى الموالى
ولو كان الحضورُ نزيلَ صدرى لما بالغيرِ لذَّ ليَ اتصالى

وهو يصرح بأنه لم يصل إلى مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن الفناء فى الذات العلية وانفصاله عن وجوده البشرى ، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوى الله . وهو بذلك صوفى سنِّى ، ويناجى ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا ، ويمدح الرسول ﷺ وهو يُعَد من كبار الصوفية الحضارمة . ولعمر [2] بامخرمة المتوفى سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م شعر صوفى تكثر فيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدائح النبوية ومن قوله فى أحد توسلاته :

اللهُ يا من لا إله نؤمُّهُ إلا هو انظُرْنى بِعَيْنِ تَفَضُّلِ
يامَنْ هو الله العظيمُ ومن له الـ ـعرشُ العظيمُ ومن عليه توكلى
يامن يُغيث المستغيثَ بِغوثِهِ غَوِّثاه أدْرِكنى عدمتُ تحيُّلى

ومن متصوفة حضرموت عبد الله [3] الحداد العلوى . وقد أنشد له الثقاف أشعارا كثيرة فى التصوف والزهد والمديح النبوى والرجاء والصبر على الشدائد وفى الأشواق والمواعظ وفى

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٠٥ وما بعدها .
(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٣٠ .
(٣) نفس المصدر ٢ / ٢٤ .

المناجاة والاستغاثة بالله ، ومن قوله فى استغاثة نبوية :

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا ... يا عظيم الخلق يا بَحْرَ الصَّفا
أنت بعدَ اللهِ نعمَ المُرْتجَى ... واللَّجا يا مُجْتَبَى يا مصطفى
يا خِتامَ الرُّسْلِ يا خيرَ الوَرى ... يا سَريعَ الغَوْث أدركْ من هَفا

وفى كتاب السقاف مالا يكاد يحصى من أشعار صوفية وزهدية ونبوية ، وسنخص أحد من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس بكلمة مجملة .

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظنا ما ذكرناه فى غير هذا الموضع من أن الشعر الصوفى لم يشع فى هذه البيئة لغلبة الخوارج عليها ، إذ المعقول أن يشيع هناك شعر الزهد والتقشف لا شعر التصوف بفرعيه السنى والفلسفى . ونفس مدينة عُمان الإمامية حينا والسنية حينا آخر لم تعن بالشعر الصوفى الخالص . ونجد لشاعر النبهانيين السنيين حكام عمان أحمد ابن سعيد الستالى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلى آلائه ، ويختمها بدعوة حارة إلى الزهد والتقشف . ومن متأخرى الشعراء هناك الحبسى وقد ذكرنا أن له ديوانا افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء .

ونتحول إلى البحرين وطبيعى أن تسهم فى شعر الزهد ، ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناجيات ربانية ، ومواعظ مؤثرة ، وبعض أشعار صوفية من مثل قول أبى عبد الله محمد بن أبى شَبابة البحرانى [1] :

لعمرى لقد ضلَّ الدليلُ عن القَصْدِ ... وما لاح لى برقٌ يدلُّ على نَجْدِ
فبِتُّ بليلٍ لا ينامُ ومهجةٍ ... تقلَّب فى نارٍ من الهمِّ والوَجْدِ
وقلتُ عسى أن أهتدى لسبيلها ... بِنَفْحة طيبٍ من عَرارٍ ومن رَنْدِ [2]
وكم طامعٍ فى حبِّهم مات غُصَّةً ... وقد كان يرْضَى بالمحال من الوَعْدِ

ولابن مشرّف الأحسائى الذى ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية أشعار فى الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، إذ تُضْحكُ وسرعان ما تُبكى ، وما سرورها إلا أضغاث أحلام ، وحرى بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله ، وأن يظل رافعا له بيديه نصب عينيه . فكل من عليها فان ، ولن ينفع المرء إلا ما قدمت يداه . وله مدحة نبوية يشيد فيها بالرسول ورسالته الربانية . وحرى بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعى اليمنى وعبد الرحيم بن مصطفى العيدروس الحضرمى .

---

(١) سلافة العصر ص ٥١٣ . ونفحة الريحانة ٣ / ١٨٩ . (٢) العرار والرند : من أزهار البادية .

عبد الرحيم البُرَعي [1]

شاعر صوفي سُنِّيّ يمني ، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته . ويقول ابن زباره : « هو عبد الرحيم بن علي البُرَعي الهاجري اليمني سكن في الينابتين من جبل بُرَع باليمن ، حيث اشتهر بالعلم والشعر . وتوفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م . وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجري وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثاني عشر الميلادي . والديوان في جمهوره مقسوم بين تسبيحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول ﷺ والاستغاثة به والتوسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته . وهو في القسم الأول يعبِّر تعبيرا حارا عن تعلقه بربه ، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفي بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية في المحبة الصوفية ونشوته بشهود الجمال الرباني وما يبعث فيه من لوعة ووجد وهيام على نحو مانجد عند ابن الفارض مثلا ، إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التحلص من عالمه المادي ليستغرق في العالم الرباني بل ليُمْحَى فيه محوا وليفنى فيه فناء مطلقا . وكأنما فَنِيت فيه أو مُحيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحسّ شيئا إلا الذات العلية وجمالها الذي تفيض أشعته على الوجود .

عبد الرحيم البرعي إذن ليس شاعرا صوفيا بهذا المعنى وإنما بمعنى آخر هو تمجيد الذات العلية دون اتخاذ رموز الحب الصوفي ، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهي وعلم الله الذي وسع كل شيء وقدرته التي تسيطر على كل ذرة في الكون ، مع حَمْده على آلائه ، ومع بسط بعض ما جاء في القرآن من صفاته الربانية ، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل والحض على التوبة والعمل الصالح ، ومن بديع ماله قوله :

قِفْ بالخضوع ونادِ ربَّك ياهُوْ ... إن الكريم يُجيب من ناداهُ
واقصدْه منقطعاً إليه فكلّ مَنْ ... يرجوه منقطعا إليه كفاهُ
هو أوَّلٌ هو آخِرٌ هو ظاهرٌ ... هو باطنٌ ليس العيونُ تراه
سَلْ عنه ذرَّات الوجود فإنها ... تدعوه مَعْبُوداً لها رَبَّاه

وهو يستخدم كلمة « هو » في التعبير عن الذات الإلهية ، وهو استعمال مألوف عند

(١) انظر في البرعي وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان . (طبع دار المعارف) ٥ / ٥٨ وقد أخطأ في اسمه واسم أبيه فسماه عبد الرحمن بن أحمد وانظر: «في التصوف الإسلامي» لنيكلسون (ترجمة عفيفي) ص ١٦٥ وشعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ص ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مراراً بالقاهرة .

الصوفية وخاصة فى شعر الذكر ، إذ يهتفون : «هو هو» بسكون الواو وكأن كل ما فى الوجود يغيب عنهم ما عدا الله ، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تعيِّنه وحده دون سواه مع عرفانهم به وبربوبيته . والقصيدة من أهم قصائد الغناء فى اليمن [١] . ويستمر البرعى فى القصيدة بمثل قوله :

أَبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِه من نُطْفةٍ بَشراً سويًّا جَلَّ مَنْ سَوَّاهُ
وبنىَ السموات العُلَى والعَرْش والـ ـكرْسىَّ ثم علا الجميعَ عُلاَهُ
ودَحَا بَسيطَ الأرضِ فَرْشا مُثْبَتاً بالرَّاسيات وبالنباتِ حَلاه [٢]
تجرى الرياحُ على اختلاف هبوبها عن إذنه والفُلْكُ والأمواهُ

وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلقه للإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض وتثبيتها برواسٍ من الجبال وتزيينها بنبات بهيج ، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء الفلك فى البحر بريح طيبة ، وكل هذا يستمده من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التى تبسط سلطانها على كل ما فى العالم كما قال جَلَّ شأنه : (وسع كرسيُّه السمواتِ والأرضَ) فقدرته لا تحدُّها حدود . ويختم القصيدة بالتوسل إلى الله برسوله أن يشمله برحمته وكرمه وغُفْرانه ورعايته ورضاه ، يقول :

ياذا الجلالِ وذا الجمال وذا الكَرَمْ يامُنْعما عمَّ الأنامَ نَداهُ
اقْبَلْ توسُّلنا بفضْل محمدٍ وبمن له فضلٌ لديك وجاهُ
واشدُدْ عُرَى عبدِ الرَّحيم برحمةٍ إن الحوادث قد فَصَمْنَ عُرَاهُ
وأنِلْهُ فى دُنْياه كلَّ كرامةٍ وقِهِ الذى يخشاه فى أُخْراه
وأذِقْه بَرْدَ رضاك عنه فلم يَخِبْ من كان عَيْنُك بالرِّضـــا تَرْعاهُ

وتكثر هذه التوسلات فى الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذللَ لرب العالمين تذلل النفوس المخلصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرها وعواطفها فلا تستطيع عن تمجيد ربها انصرافا ولا حِوَلا . ويقابل هذا القسم فى الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوى ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتوله وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة . ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه ، فيشمله بعفوه ويرعاه فى دنياه وأخراه ، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له :

والله ما حملتْ أُنْثَى ولا رضَعتْ كمثل أحمدَ من قاصٍ ولا دانى

(١) انظر شعر الغناء الصنعانى ص ١٨١ .
(٢) دحا : بسط ووسع . الراسيات : الجبال .

مهذَّبٌ شرَّف اللهُ الوجودَ به وخصَّهُ بِدلالاتٍ وبُرْهانِ
ومعجزاتٍ بِعَدِّ الرَّملِ لو كُتبتْ لم يُحْصها ماءُ سِيحانٍ وجيحانِ
محمدٌ سيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَّقَلَيْـ ـن والفريقين من عُجْمٍ وعُرْبان

وسِيحان وجيحان نهران فى آسيا الصغرى . والأبيات عذبة ، ومدائح البرعى للرسول ﷺ من أسلس المدائح النبوية وأخفها وقعاً على الآذان ، بل إنها لتمتع الأسماع حين تُصْغِى إليها كما تمتع الألسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية . ومن روائع توسلاته قوله فى خواتيم هذه المدحة :

ياسيِّدى يارسولَ اللهِ يا أملى يامَوْئلى يامَلاذى يومَ يَلْقانى
هَبْنى بجاهك ماقدَّمتُ من زَللٍ جوداً ورَجِّحْ بفضلٍ منك ميزانى
واسْمَعْ دعائىَ واكشفْ ما يُساورنى من الخطوب ونَفِّسْ كلَّ أحزانى
وامنعْ حِمايَ وأكرمْنى وصِلْ نَسَبِى برحمةٍ وكراماتٍ وغُفْرانِ

وكل أمله فى هذا التوسل برسول الله ﷺ أن يتقبله فى ساحته وأن يكون ملاذه وأن يغفر له زلله وعثراته ، وأن يجعله ممن ثقلت موازين حسناته ، حتى يستحق رضوان ربه ونعيمه وفردوسه ، وأن يكشف عنه كل ما يوائبه من الخطوب وينازله ، وأن يدفع عنه كل أحزانه وهمومه ، وأن يحمى حِمَاه . وأن يسبغ عليه كرمه ورحمته وغفرانه . والرسول ﷺ بذلك هو الشفيع المشفع لأفراد أمته ، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز بالجنان ، كما يمنحهم العون فى الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم الهموم ، إنه الإنسان الكامل الذى يتقبل الله منه شفاعاته ، وهو كمال فى الخلق والشيم لا يزال البرعى يتغنى به وبما أجرى الله على يديه من معجزات ، بل إنه يقول :

كانتْ نبوتُه وآدمُ صورةٌ فى الماء والطِّين المصوَّر منهما
وبه وجودُ الكوْن من عَدَمٍ فقد ملأَ الزمانَ تفضُّلاً وتكرُّما

ونحس فى البيتين إيمانه بالحقيقة المحمدية التى تغنى بها البوصيرى وغيره ، إذ يستلهمون الأثر المشهور : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من خلق آدم ، وإن الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرعى فى البيت الثانى ، وكأنه مبدأ الحياة ، الذى يسرى فى كيان الوجود كله . ويقول فيه مادحاً :

من نور ذى العَرْش معناهُ وصورتُهُ ومَنْشأُ النورِ من نورٍ يجسِّمهُ

فهو من نور الله ، وكل نور فى الوجود ناشئ من نوره ، فنوره يشاهَد فى كل نور . ويردد البرعى دائما فضائل الرسول المثالية الرفيعة . وله مخمسان بديعان فى وصف تلك

الفضائل ، استهل أولها بقوله :

بمحمدٍ خَطَرُ المحامدِ يَعْظُمُ وعُقودُ تيجانِ العقودِ تنظَّمُ
وله الشفاعةُ والمقامُ الأعظمُ يومَ القلوب لدى الحناجرِ كُظَّمُ
فبحقِّهِ صَلُّوا عليه وسلِّموا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تاليين ، وبذلك جعل المخمس صالحا لأن ينشده منشد وترد عليه جماعة بالشطر الخامس . وعلى شاكلة هذا المخمس مخمسه الثانى ، وقد جعل الشطر المكرر فيه : « صلوا عليه وسلموا تسليما » . ونبوياته بحق رائعة وقد شُغف بها المغنون الجوَّالون فى اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطَّارات أزمنة متطاولة .

عبد الرحمن العَيْدَروس[1]

حَضْرمى من بيت علم وفضل ، ولد بمدينة تَريم فى سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣م ، ونبها نشأ فى رعاية أبيه وجده فحفظ القرآن الكريم وشَدَا العربية ، وتفقه على الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه . وسافر مع أبيه إلى الهند ، وكثرت رحلاته بعد ذلك ، فقد عاد منها ، بعد أن تزوَّد من علمائها زاداً حسنا . وذهب إلى مكة للحج وأخذ عن شيوخ الحجاز ، وزار مصر سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م وعاد إلى مكة وسكن الطائف ، ثم زار مصر سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٨م فمكث بها عاما واحداً وعاد إلى الطائف ، ثم رأى أخيرا أن يستوطن مصر فنزلها بأسرته سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م وفى أثناء استيطانه مصر زار دمشق سنة ١١٨٢ وزار الآستانة سنة ١١٩١ وعاد إلى مصر وتوفى بها سنة ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م ودُفن فى مقام العتريس إلى جانب مسجد السيدة زينب . وكانت قد طارت شهرته بالصلاح والنسك فى حياته . وتعلق به شيوخ الطرق الصوفية . وله مصنفات كثيرة ، تغلب عليه فيها النزعة الصوفية ، ويذكرون له شرحا على بيتى ابن العربى :

إنما الْكَوْنُ خَيَـــالٌ وهْو حَقٌّ فى الحقيقَهْ
كلُّ مَنْ يفهم هذا حازَ أسْرارَ الطريقهْ

وهو لا يغلو غلوه فى التصوف الفلسفى ، فليس فى أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات العلية ولا شعور بأن فيه قبسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينعم برؤية النور الربانى . وحقا نجد

---

(١) انظر فى عبد الرحمن العيدروس وشعره تاريخ الجبرتى ٢ / ٢٧ وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الشعراء الحضرميين ٢ / ١٨٩ ونشر العرف لزيارة ٢ / ٥٠ وشعر الغناء الصنعانى ص ١٩١ وديوانه تنميق الأسفار مطبوع بالقاهرة .

عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْو والصَّحْو ، ولكن لا تظن أنه يستغرق فى ذلك استغراق ابن عربى ، أو حتى استغراق ابن الفارض ، كأنه يلمُّ بظاهر من ذلك دون توغل فيه ، كما يلم بالخمر ونشوتها على طريقة الصوفيين ، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله :

أنْعَشَتْنِى خمرةٌ للغير تَمْحُو ... فاعْتِلالى بالهوى القُدْسىِّ شَطْحُ
عاذلى كُنْ عاذِرى أو عاذلى ... أنا مِن خَمْر التجلِّى لستُ أَصْحُو
أنا فانٍ والفَنا عَيْنُ البقا ... فى رَشاً مِن دونه سَيْفٌ ورُمْحُ
هَامَ شَخصُ القلب من خمر الفَنا ... فَهْوَ مِن تلك الحُمَيَّا ليس يَصْحُو
أنا فى مَحْوٍ وصَحْوٍ دائما ... حيثُ لى فى مَجْمع البَحْرين سَبْحُ

وكل مايمكن أن يقال عن تصوفه هو أن فكرة الفناء الصوفية ومايتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول فى المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه ، وأيضا فكرة الصحو وأنه يظل له القرب والشهود للذات العلية دون سكر ، كل ذلك نجد ظاهرا منه عند العيدروس ، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقا فى لذة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة ، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها اليمنيون ويتغنون بها إلى اليوم يستهلها بقوله :

شَرِحَ الدمعُ على مَتْنِ الخدودْ ... ما أُلاقيهِ من الظَّبْىِ الشَّرودْ
يالَقومى من غزالٍ صادنى ... وعجيبٌ رشأٌ صادَ الأسودْ
أهْيَفُ القامة فى وَجْنَتِهِ ... جَنَّةُ الخُلْدِ ونيرانُ الخلودْ
غُصْنُ حُسْنٍ قد سُقِى ماء البَهَا ... مُثْمِراً - أَضْحى - بِرُمَّان النُّهُودْ

وواضح أن هذا الغزل الإلهى لا يفترق فى شىء عن غزل الحب الإنسانى ، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل فى فتاة حقيقية صَبَتْ قلب العيدروس بجمالها المغرى . وكأنى به يتأثر فى هذا الغزل المادى بديوان ابن عربى : «ترجمان الأشواق» الذى يكتظ بالوصف الحسى لجمال محبوبته ، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلا إنسانيا ، وهو إنما يرمز به إلى حبه الربانى . ويمضى العيدروس منشداً :

أيها الظَّبْىُ الَّتِفِتْ نحو الحَشا ... أيها الشمس أَرِلْ نارَ الصدودْ
عَطْفَةً بالقَدِّ من هذا الجَفا ... وأبيك العَطْفُ من شأن التُّدودْ
كم أرى بارقَ وَعْدٍ أَوْمَضَا ... قد مَضَى وقتُ المعنَّى فى وعود
وصلاةُ الله تَغْشَى المصطفى ... ماتَلالا البرق من أقصى النُّجُودْ

وهو يتمنى لفتة من الظبى الشرود أو قبسا من الشمس الهادية يطفئ غليل ظمئه ،

ويأمل فى عطفة نحوه أو فى وصل طالما رأى بُروق وعوده ، وكأنه دائما فى هجر وفراق ومَطْلٍ وبَيْنٍ وإنه ليتوسل إلى ربه ضارعا أن يمنحه القرب والشهود ، وإنه ليشكو دائما من الظَّنِّ بالوصال ، يقول :

أسألُ عن عَيْنى لما هِىَ تَدْمَعُ ... وجِسْمى نحيلٌ والحَشَا يتقطَّعُ
ولَوْنى كئيبٌ والفؤادُ بِحَسْرَةٍ ... ومالى سهيرَ الطَّرْف والقلبُ موجَعُ
فما نالنى هذا سوى مِنْ فراقِ مَنْ ... له النُّورُ يَبْدُو فى البقاع وَيلْمَعُ

فهو دائم البكاء ، حتى لقد شحب جسمه وضؤل ، وحتى لقد تَقطَّعت أحشاؤه واكتأب لونه والتاع فؤاده ، ودائما مسهّد الطرف ساهره ، وقلبه مكتظ بالأوجاع واللوعات لهجر محبوبه الذى يملأ العالم بنوره ، وهو ما ينى يذكره ويرسل دموعه ، لعل محبوبه –كما يقول– يعطف عليه ويخلصه من عذاب الهجر وأوصابه ومن قوله :

أَلْهَيْتَنى عن جهاتى ... يا راحتى يا حياتى
ما ضرَّ يا مَنْ سَبَانى ... لوجُدْتَ لى بالْتِفاتِ
بالله يا مَنْ رمانى ... بِأَسْهُمٍ صائباتِ
عَطْفاً على الصَّبِّ عَطْفاً ... من قَبْلِ كَأْسِ المماتِ

وهو يصرِّح فى الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا بما حول مكانه ، وكأنما غاب عن وجوده ، ونتأهب لكى يتحدث لنا عن وجوده الإنسانى وفنائه فى الوجود الربانى ، وكأنما لم يعد له وجود ذاتى ، أوكأنه يدخل عالم الفناء الصوفى أوعالم الشهود الإلهى ، ولكنه لا يستمر فى بيان ذلك ، وكأنه استعار الشطر من ابن عربى وأمثاله ، ولم يفكر فى الشهود ولا فى الفناء . ولا نريد أن ننفى بذلك عنه صفة التصوف ، فهو متصوف سنى ، لا يتعمق فى تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن وجوده ومن كيانه المادى .وله يائية يعارض بها يائية ابن الفارض يقول فى فواتحها :

صاحى عَرِّجْ على نَجْدٍ وحَىِّ ... أهلَ حَىٍّ لم يكن يحكيه حَىّ

وهو إنما يعارض بيائيته ظاهرا من يائية ابن الفارض ، فليس عند وجده ولا التياعه ولا مجاهداته فى الوصول إلى مرتبة الشهود ولا شغفه بالجمال المطلق وفيوضاته الإلهية . لم يكن العيدروس يتعمق فى تصوفه هذا التعمق ، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ودون ولهٍ جارف .

الفصل الخامس

النَّثْر وأنواعه

١

تنوع الكتابة

كانت نجد أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والحبر وغيرهما من وسائلها المادية ، وأغلب الظن أن الإمارتين اللتين تأسستا فى شرقيها لأوائل هذا العصر : إمارة بنى مُزْيَد فى الحِلَّه وبنى عُقَيْل فى الموصل كانتا تعنيان بالكتابة ، فابن خلكان يذكر أن على بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدى أمير من أمراء بنى مزيد فى شبيبته [١] ونظن أنه كان لأمراء بنى عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بنى مزيد . غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعاً ، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابى فيهما كان محدوداً . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نشأت فى الشمال الغربى للجزيرة إمارات بدوية لآل فضل وآل مِرا وآل على ، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك ، وفى صبح الأعشَى مراسيم كثيرة صادرة من مصر بإمرة أمرائهم ، وكذلك لآل مهدى فى البلقاء ، غير أننا لا نعثر بردٍّ من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين ، وبالمثل لا نجد كتابات أو كتباً موجهة من أواسط نجد إلى خارجها ، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بداوة من أطرافها الشرقية والغربية ، ولعل ذلك ما جعل القلقشندى يقول : «إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة ، وإنما يُكْتَبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد عُلم اللسان وعليهم فيه يعوَّل [٢] » . وهو قول دقيق وصحيح .

وإذا تركنا نجدا إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كُتَّاباً للإنشاء ، أو بعبارة أدق ليكتبوا ما يريدون من رسائل فى مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٤٩١ .

(٢) صبح الأعشى ٨ / ٧٦ .

وفى صبح الأعشى عهد فى صورة يمين لأبى نُمَىٍّ أمير مكة حلف بها لقلاوون . وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين المماليك فى هذا التنصيب[١] ، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزلهم . فقد كانتا تتبعان مصر منذ عصر الأيوبيين ، بل فى حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين . وكانت مصر فى أثناء ذلك هى التى تعيِّن أصحاب الوظائف الكبرى فى البلدتين ، وخاصة فى القضاء وفى مشيخة الحرم النبوى ، وفى صبح الأعشى نماذج مختلفة لهذا التعيين ، تُذْكر فيها واجبات الوظيفة[٢] . ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء فى مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا فى كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وتلقانا فيه خُطَب زواج طريفة إذ ظلوا يحتفظون فى عَقْد الزواج بهذا التقليد القديم ، وهى خطب منمقة يشيع فيها السجع ، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة ، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله فى خطبة زواج : « إن الزواج جُنَّة تُتَّقى بها الفتنة ، وجَنَّةٌ يُتْلى على متقيِّئ ظلالها : (اسْكُنْ أنتَ وزوجُك الجَنَّةَ) تُثمر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد ، وتطلع زينةَ الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسُه ثمرةَ الفؤاد . وتُسْفر ليلته عن طرَّة صبح تحت أذيال الدُّجَى ، ويتبلّج يومه عن شمس تتوارى بحجاب الحِجال[٣] والحِجا ، وهو الغرض الذى لا يخطئ قاصده الإصابة ، والعَرَض الذى لا يقوم إلا بجوهر أفخر عصابة ، والحصن الذى يُعْتَصَمُ به عن الوقوع فى حمى الحَرَج ، ويُحْتَمى به من مصارع الرجال التى هى ما بين معترك الأحداق والمهج ، والوسيلة التى يتوسَّل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه ، ويُنْشده بلبل الأفراح هنيئا لمن أمسى سمير حبيبه ، وناهيك فى فضله ما ورد فيه من الآيات ، والأحاديث الثابتة فى صحيح الروايات[٤] » والتنسيق فى الخطبة واضح .

ومرَّ بنا فى الحديث عن الثقافة كيف تحول الحرَمان : المكى والمدنى إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف فى البلدتين المقدستين ولكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامى . وشاعت منذ القرن الخامس الهجرى كتابة الإجازات العلمية ، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمروياته ومصنفاته ، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه ، ويكتب فى صدر الإجازة تنويها بالعلم وفضله وبالتلميذ ونباهته ، ثم يسرد المؤلفات والمرويات . وبجانب هذه الإجازات أخذ يتكاثر تقريظ

---

(١) صبح الأعشى ١٢ / ٢٣٣ ، ٢٤٢ وما بعدهما .

(٢) صبح الأعشى ١٢ / ٢٤٠ ، ٢٥٨ وما بعدهما .

(٣) الحجال : ستر أو ستار تضرب للعروس فى جوف البيت . الحجا : العقل .

(٤) سلافة العصر ص ١٤٢ .

الكتب المصنفة ، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين . وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين طائفة من التقريظات لمصنفاته فى ترجمته بالجزء الأول من كتابه[1] ، وهى تصور مدى ما كان يأخذ به المقرِّظون لكتابِ أنفسَهم بتنميق كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جمال فى الجرس والأداء .

ولعل قطراً فى الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت فى اليمن ، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩ – ٥٣٢هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديواناً للإنشاء ، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن على بن القِمّ الشاعر النابه الذى ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر ، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية . وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمدانى كتابه « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين ، وهى رسائل نفيسة لا لما تصور من شئون السياسة فحسب ، بل أيضاً لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها فى اليمن منذ القرن الخامس الهجرى . وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح فى زبيد ، ونجد بين أمرائها أديبا نابها هو جيّاش بن نجاح صاحب كتاب المفيد فى أخبار زبيد الذى اختصره عمارة اليمنى ، وكان يضم شعراء زَبيد وأدباءها . وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها . وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد بعيد من الكافة وإنه رأى منه عدة مجلدات ، ويقول إنه عمل ممتع ، مقدماً بذلك لترجمته فى المختصر . ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبى عَقامة كما مرَّ بنا ، وكان شاعراً قتله جياش بن نجاح ، ويقول الجَنَدى عنه « إليه تنسب الخطب العقامية ، وله شعر فائق . وترسل رائق »[2] . وبالمثل بعث بنوزُرَيْع بعدن ٤٧٦ – ٥٦٩هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبى بكر العَيْذى ، وفيه يقول عمارة اليمنى فى صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد : « سمعت الشيخ الموفق أبا الخلال فى الأيام الفائزية (أيام الخليفة الفائز الفاطمى) والقاضى الجليس أبا المعالى عبد العزيز ، وهما يومئذ صاحبا ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منهما إلا من يقول : لم يصل إلينا من الآفاق ، ولا رأينا لكتّاب الشام والعراق ، أحسن من مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبى العتيق أبى بكر بن محمد العيذى بعدن فإن له بلاغة تشهد عدوبة مطبوعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل معانيها على فضل معانيها » وكان شاعراً

(١) العقد الثمين ١ : ٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر الجندى فى السلوك – الكت ٦٣٢ .

بارعاً ، ومرَّ بنا بعض شعره . ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذه كاتباً له ، فامتنع . وليس بين أيدينا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش ، ولكن على كل حال فيما قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن . وندخل في عهد جديد هو عهد الأيوبيين ، وسرعان ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ) وتُعْنَى بالكتابة الديوانية ، ويحتفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهودهم وببعض رسائل سياسية ، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين المماليك ، وفي صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسوليين[1] .

ويبدو أن الكتابة كانت نشطة في بيئة الأئمة الزيدية ، وفي صبح الأعشى ما يدل على كثرة المكاتبة بينهم وبين سلاطين المماليك ، إذ ينص على رسم المكاتبة إليهم وأنها كانت ، «أدام الله تعالى - أو ضاعف الله تعالى - نعمةَ - أو جلالَ - الجانب الكريم العالي السيديّ الإمامي الشريفي النسيبي الحسنيّ العلاميّ سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبويّ ، فخر النسب العلويّ ، مؤيِّد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلياء ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، ذخر المسلمين ، منجد الملوك والسلاطين ، ولا زال زمانه مُرْبِعاً ، وغيله مُسْبِعاً ، وقراه مُشْبِعاً ، وكرمه لفيض نداه مَنْبِعاً ، وهُداه حيث أمَّ بالصفوف متَّبعاً[2] . .» وفي ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع .

وطبيعي أن تكثر الإجازات في اليمن كما كثرت في المدينتين المقدستين بالحجاز . وتكثر تقاريظ الكتب ، من مثل تقريظ القاضي شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المعروف بالمقرئ اليمني لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول : «وقفت على هذا التأليف التالي فوائد العبر ، والآتي بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر ، فللّه در مصنفه من إمام حافظ ، وبحر بجواهر العلوم لافظ ، ولا حق ، برَّز على السابق ، وبَذْل في علو مرتبة الأعلام الحفاظ موافق ، بلَّغه الله غاية الأمنية ، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية» .

وطبيعي أن تكثر المواعظ باليمن ، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله في الوعظ كتاب نحى فيه نحو ابن الجوزي ، وله في التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة[3] . وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر

---

(١) انظر صبح الأعشى ٧ / ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٣٤

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ - ١٦٢ .

بكتابات أدبية فكهة سنعقد لها حديثاً مستقلاً فى غير هذا الموضع .

وكل ما لقيناه فى اليمن من نشاط كتابى نلتقى به فى حضرموت . فهناك الرسائل السياسية والشخصية وهناك الإجازات ، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه السيد عيدروس بن عمر ، وقد جاء فى صدرها : « الحمد لله جامع الظواهر والسرائر ، على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر ، حتى ترتفع عنها الستائر ، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار البصائر ، وتُقْبل بكليتها على من هو الباطن والظاهر ، لترتقى بعين عنايته ورعايته إلى تلك الحظائر ، ولم تزل تعتلى بعمارة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر ، وتتجلّى وراء ما هو آفل وغابر ، حتى تشاهد الجمال المطلق بقيمومية مَنْ هو فوق عباده قاهر ، حتى يأتيها النداء : إنَّ هذا جمال لا أول له ولا آخر[١] » . ويظل طويلا فى هذه النغمة الروحية الصوفية ، وكأنه يريد أن يصل تلميذه مع أخذه عنه لمصنفاته بنور الذات العلية المطلق الذى تعم الوجود أضواؤه .

وظلت عُمان تحتفظ بنشاط كتابى طوال العصر ، وقد عُنى نور الدين السالمى بعرضه فى كتابه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » . وفى طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد ابن سعيد الإباضى الذى دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على ملك بنى مكرم الشيعة الإماميين ولاة البويهيين هناك . والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو يستهله على هذا النمط : « إنى أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء عما حرم الله عليك فى زواجره ، والعمل بما أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، ونفعك أو ضرَّك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتكفّ [الناس] عن فعله ، وَلْتَحْذر من خدائع الشيطان ، ومن يؤازره على ذلك من الأعوان[٢] » . وواضح أن الكتاب يحفل بالسجع . ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضى راشد بن على المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة ، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السرى يكتب له شروطاً بها أسجاع[٣] . ويخلفه محمد بن أبى غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتاباً مسجوعاً من مثل قولهم : « الله تعالى يحرس علينا شريف بقائه ، ويزيد فى رفعته وارتقائه ، ويديم عليه ما اتسع من نعمائه ، وينعم علينا عاجلاً بكريم لقائه[٤] » : ويتولى بعده موسى بن أبى المعالى بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتابا إلى بعض من تحدثهم أنفسهم بالخروج وهو كتاب

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٥٤ .
(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٦٤ وما بعدها .
(٣) تحفة الأعيان ١ / ٢٧٥ .
(٤) تحفة الأعيان ١ / ٢٩٢ .

مسجوع[١] . وقلما يورد نور الدين السالمى فى كتابه «تحفة الأعيان» شيئاً من رسائل بنى مكرم الشيعة الإماميين الذين حكموا مدينة عمان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ وكذلك قلما يورد شيئاً من رسائل بنى نبهان السنيين الذين حكموها من القرن السادس الهجرى إلى القرن التاسع . حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم ، وهى رسائل منمقة إذ يغلب عليها السجع والترصيع . ويشيع هذا الترصيع والسجع فى رسائل موجهة من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم فى شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة .

وليس بين أيدينا نشاط كتابى كثير لأهل البحرين ، غير أننا نجد فى صبح الأعشى فى رسم المكاتبة إليهم فصلاً[٢] طريفاً مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة فى عهد المماليك . ودوّن ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» بعض رسائل شخصية لأدبائها . وفى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى . وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها تصنع شديد .

٢

رسائل ديوانية

مرَّ بنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة فى العصرين الأيوبى والمملوكى بل لا شك فى أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك فى العصر الفاطمى ، غير أن ما بقى من هذه الرسائل فى المصادر التاريخية وغيرها قليل جداً من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبى نُمَىّ أمير مكة سنة ٦٧٥ يزجره عن الظلم[٣] :

«من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبى نُمَىّ محمد بن أبى سعد : أما بعد فإن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أو حش . وقد بلغنى عنك أيها السيد : أنك آويت المجرم ، واستحللت دم المحْرم ، ومن يُهن الله فما له من مُكْرم ، فإن لم تقف عند حدك ، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك . والسلام» . فكتب إليه أبو نُمَىّ :

«من محمد بن أبى سعد إلى بيبرس سلطان مصر : أما بعد فإن المملوك معترف بذنبه ،

---

(١) التحفة ١ / ٢٩٥ .

(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٧٠ .

(٣) العقد الثمين ١ / ٤٦٥ .

تائب إلى ربه ، فإن تأخذ فيدك الأقوى ، وإن تَعْفُ فهو أقرب للتقوى . والسلام » .

وكان سلاطين المماليك حين يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعوجاجا فى حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والأيمان أن يسير مسيرة قويمة ملتزما فيها بما عاهدهم عليه من شأن رعية بلدته وشأن الحجيج ، مع ذكرهم فى الخطبة ، ومع ضرب السكة أو النقود بأسمائهم ، وفيما يلى عهد أبى نُمَىّ للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينفذ السياسة المرسومة له وهو يمضى على هذا النمط [١] :

« أخلصت يقينى وأصفيت طويّتى وساويت بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما . . وإنى عدوٌّ لمن عاداهم ، صديق لمن صادقهم ، حرب لمن حاربهم ، سِلْمٌ لمن سالمهم . . وإننى ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان وولده فى أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرَّفة فى كل موسم وأن لا يتقدم عَلَمَه عَلَمُ غيره ، وإننى أُسَبِّلُ زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين اللائذين بحرمه والحاجّين والواقفين ، وإننى أجتهد فى حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ، وإننى أؤمنهم فى شربهم ، وأُعْذب لهم مناهل شربهم ، وأننى أستمر – والله – بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى ، وأفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى . وإننى – والله – أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب ، وأكون لداعى أمره أول سميع مجيب » .

وواضح أن أبانمى لم يستخدم فى هذا العهد السجع كما استخدمه فى الخطاب الذى رد به على بيبرس ، وكأنه عنى هنا بالمضمون أكثر من عنايته بالأسلوب ، ولذلك لم يستخدم السجع ، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعهده ، أما العهد فمن صنعه هو وإملائه ، ولذلك جاء خاليا من التنميق .

والرسائل الديوانية فى اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية ، ومن أبلغها بياناً رسالة الحسين ابن على بن القِمّ كاتب الإنشاء للدولة الصليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن على الصُّلَيْحى سنة ٤٦٠ وهى موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يخبره فيها باغتيال سعيد بن نجاح وأخيه جياش لعلى بن محمد الصليحى فى طريقه إلى الحج فى ذى القعدة لسنة ٤٥٩ وما كان من استردادهما لزبيد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه ، مما مكنه أن ينقضّ على آل نجاح فى السنة التالية ، ويسحق جموعهم . ويفتك بسعيد ويهرب أخوه جياش إلى الهند ، وتدخل زبيد فى طاعته . ويصور ابن القِمّ فى الرسالة انتصارات الملك

(١) العقد الثمين ١ / ٤٦٢ .

المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محقها محقاً . والرسالة تفتتح بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله ، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغَمْسه أو صَبْغه بالعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ونحن نسوق منها أطرافاً تصور روعتها البيانية[1] :

« المملوك يناجى حضرة الإمامة ، ويناهى سُدَّة الخلافة ، جعل الله عزهما باقيا على الأيام ، ومجدهما غير منقطع الدوام ، عالماً أنه يَلْبَسُ بذلك شرف الدارين ، ويستولى به على الحُسْنَيَيْنِ ، شائماً (متطلعاً) من مولاه بَرْقاً مُضِيًّا ، ومستظلا من سحاب الإكرام وَدْقا (غيثاً) رَوِيًّا ، ومتبوِّئاً من رُتَب الاختصاص مكانا عَلِيًّا ، ومتعرضاً لمنزلة من أدناه وقَرَّبه نَجِيًّا . إنه قد كان قدَّم خدمة يطالع بها بأنباء جزيرته ، وينهى أخبار دعوته ، وما جرى عليه أمرها من الفتن ، ودارت فيه من دوائر المحن ، التى ملأت قلوب أعداء الدين سروراً ، وازداد بها الكافر طغياناً وكفوراً ، وأظهر كل منافق ما كان من الغدر كامنا مستورا ، وقال الذين فى قلوبهم مرض (ما وعدنا الله ورسولُه إلا غُروراً) . . . وجَدَّ عزم المملوك (الملك المكرم) بعد خِيرة الله تعالى وخِيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأحباش قتلة أبيه) إلى مدينة زَبيد . . فوردها فى التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق النذير إلى العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زبيد) وألفاه المملوك صافاً على أحد أبواب المدينة ، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان فى أنفه ، وأراه الحياة فى حتفه ، قد عصب برأسه من الكبر تاجا ظن أن الله لا يستطيع له نَزْعا ، وتجلْبَبَ من الجبروت بثوب لا يروم له ما عاش خلعا . . (أو لم يعلم أن الله قد أهلك مِنْ قبله من القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جَمعا) . فدَلَف إليه المملوك فى جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصارا ، واتخذوا الصبر شعارا ، والله - عز وجلَّ - جارُ المتمسكين بسبب الله الذى لا ينقطع من تمسك بسببه ، جائدين بأنفسهم فى ابتغاء رضاه وطلبه ، وخوف سخطه وغضبه . . فلما تراءى الجمعان وتدانى الفريقان ، ماجت الصفوف ، وسالت الزحوف ، ولمعت السيوف ، ووكفت (سالت) الحتوف ، وتزلزلت الأقدام ، وصال الحمام ، واغبرَّ القَتام (الغبار) وتداعت الأبطال ، وتدانت الآجال ، واكتأبت الرجال ، وانقطعت الآمال . . وشخصت الأبصار ، والتحمت الشِّفار (السيوف) وطُلبت الأوتار ، وأعْوز الفرار . . وطفقت سيوف الحق تلتهمهم ، وأيدى المؤمنين تقتسمهم ، فتركوهم بين ضَريج بدمه ، وهاو ليديه وفمه ، وشاردٍ لم يُنْجه سعى قدمه ، ونادم لم ينتفع بندمه . . . ومعفور نطيح ، ومطعون جريح ، قد عادوا فرصةً لكل واثب ، وأُكْلة لكل ناهب ، مصرَّعين

(١) انظر الرسالة فى كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » للدكتور حسين الهمدانى ص ٣٠٨ .

مصارع أمثالهم الكافرين ، وواردين موارد أعمالهم خاسرين ، قد قطع الله أوصالهم ، وبتَّ من حبله حبالهم » .

والرسالة طويلة وابن القِمّ يلتزم فيها السجع ، وواضح أنه يعنى باصطفاء ألفاظه ، والملاءمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجَرْس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبوًّا ولا نشازا فى عبارة من عباراته . ومما يصور عنايته بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التى يقتبسها تلتقى فواصلها مع قوافيه التقاء طبيعيا ، وهو التقاء كان يقصد إليه قصداً حتى يلتحم جَرْس النغم فى الرسالة التحاما تاما .

وكأنَّ ابن القم كان استهلالا قويا لأن تأخذ اليمن منذ عصره فى العناية برسائلها الديوانية عناية يعمّ فيها غير قليل من التنميق ورَصْف السجع وتدبيجه . ويلاحظ ذلك بوضوح فى الرسائل والعهود المكتوبة فى الدولة الرسولية ، على نحو ما يلاحظ فى العهد الذى فوَّض فيه السلطان المظفر (٦٤٧ – ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر ، وهو يستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء[1] :

« أما بعد فقد مَلَّكْنا عليكم مَنْ لا تؤثر فيه – والله – داعى التقريب ، على باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص ، على آجل التمحيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار ، على مداومة البلوى والاختبار . وهو سليلنا الخطير ، وشهابنا المنير ، وذخيرتنا على المراد ، وبصيرنا الذى نرجو به صلاح البلاد والعباد ، ونؤمِّل فيه من الله الفوز والنجاة فى المعاد ، وقد رسمنا له من وجوب الذبِّ والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده . والمسئول فى إعانته مَنْ لا عون إلا من عنده . ولن نعرفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله إلا بما قد بدا للعيان ، وزكا مع الامتحان ، وفشا من قِبَلكم فى كل لسان »

وواضح ما فى العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلسا سلاسة الماء النمير ، وواضح أيضاً ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته ، فكلمة « داعى التقريب » توضع على وزنها كلمة « باعث التجريب » وكلمة « عاجل التخصيص » تليها موازنة لها كلمة « آجل التمحيص » وكلمة « ملازمة الهوى والإيثار » توازنها كلمة « مداومة البلوى والاختبار » وكل ذلك إرضاء لأذن السامع . ومثله محاولة الإتيان بالمترادفات فى نهاية السجعة مثل « الذب والحماية » و « الرفق والرعاية » و « حميد خصاله » و « سديد فعاله » مما يدل بوضوح على الرغبة فى اكتمال نغم الكلام .

وتلقانا فى عهد السلطان الأشرف وربما كان فى عهد أخيه المؤيد (٦٩٦ – ٧٢٠ هـ)

---

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ٢٧٤ .

رسالة موجهة من الأمير الزيدى محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكى . الناصر محمد بن فلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسولى الذى طالت بينهما الحروب ، معددا قبائحه ، مؤملا أن يسعفه بجيش لإجلائه عن دياره ، وإجرائه مجرى الذين ظلموا فى تعجيل دماره . وقال فى رسالته : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيَّدة قام معها ، وقاد الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أُنعم عليه ببعضه ، وأُعطى منه ما هو إلى جانب أرضه ، ثم قال : «وكتبت إلى السلطان مؤذناً بالإجابة ، مؤدياً إليه ما يقتضى إعجابه . . ولا رغبة لنا فى السلب ، وأن النصرة تكون لله خالصةً وله كل البلاد لا قدر ما طلب» . واقتطف القلقشندى قطعة من الرسالة مسجوعة [1] ، وكان السجع أصبح منذ ابن القيم صفة عامة فى الرسائل والعهود اليمنية . ونمضى إلى زمن السلطان الرسولى الأشرف إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣هـ) فيرسل السلطان المملوكى برقوق إليه برسالة معها هدية ، يحملها القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من عُروض التجارة ، ويبادله الأشرف إسماعيل هدية بهدية ، وكتاباً بكتاب أو رسالة برسالة . ويطلب فى رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يفد على مصر من رعيته اليمنية تاجرا وغير تاجر ، وأن يأذن له فى حج البيت الحرام ، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام . ويشكو من ارتفاع النفقات فى مكة على حاج اليمن لعله يتوسط لدى أميرها كى يخفضها ، لأنه تابعه . وإن كان لم يصرح بذلك . ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها الأشرف إسماعيل عن هديته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته ، يقول [2] :

«لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهرى ، أعزَّ الله أنصاره ، بمقدار همته الشريفة العالية ، ورتبته المُنيفة السامية ، لاستُصغرت الأفلاكُ الدائرة ، والشهب السائرة ، واستُقِلَّت السبعةُ الأقاليم تحفة ، والأرض وما أقلته طُرْفة ، ولم نَرْض أن نبعث إليه الأنام مماليك وخَولا (عبيدا) ، ونجبى إليه ثمرات كل شىء قُبُلاً ، ونورام محبُّ المقام (يقصد نفسه) هذه القضية تقْصُرعنها حَوْلُه . ولم يصل إليها طَوْلُه (قدرته) ولكنه يرجع إلى المشهور ، بين الجمهور ، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد ، وليس على المستمر على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلصُ فى الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد» .

والرسالة كلها من هذا الأسلوب الذى يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع فى عباراته ، حتى يروق الأسماع ، بل حتى يبهرها ، بحسن تنسيقه وجمال رَصفه ونسجه . وكان كتَّاب الإنشاء فى كل دولة عربية يتبارون فى تلك الحقب بما يصوغون من هذا الأسلوب

(١) صبح الأعشى ٧ / ٣٣٧ .
(٢) صبح الأعشى ٨ / ٧٣ .

الموسيقى ، حتى تلذ ألفاظه الأنسة ، وحتى تقع موقعاً حسناً من القارئين لها والسامعين .

ومربنا فى عُمان أن الأئمة الإباضيين كانوا يوجهون بكتب إلى عمالهم ، يأمرونهم فيها بالنهى عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسيروا فى الرعية سيرة عادلة ، وكانت الرعية كثيراً ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح . ومضوا على ذلك طويلاً حتى إذا كنا فى القرن الحادى عشر الهجرى وجدنا الإمام الإباضى ناصر بن مرشد (١٠٢٤ – ١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهودا كثيرة يشيع فيها السجع من مثل قوله لأحد عماله فى «الباطنة»[1] :

«إنى قد وليتك على قرية لوىّ من الباطنة . . على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف ، وتنهاهم عن المنكر المحوف . وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين . وتُحْيى فيهم سنة النبى الأمين ، وآثار الأئمة المهتدين ، وسيرة القادة المخلصين ، الذين جعلهم الله منار الهدى ، وقادة الناس إلى التقوى ، وأورثهم الكتاب والسنة ، يدعون إلى طريق الجنة . . ولا تَخَفْ فى الله لومة لائم ، ولا عَذْل مجرم آثم ، وأن تخلط الشدة باللين ، وأن تخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . . فالله ! الله يا أبا الحسن فى اكتساب الحسنات ، وإنكار المنكرات ، بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجبه الله فى الجدّ والتشمير ، وترك التهاون والتقصير» .

ولا يطّرد السجع دائماً فى عهود ناصر بن مرشد . وحتى فى العهد الواحد يستعمله حيناً وحينا لا يستعمله . ويغلب فى سجعه وسجع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون متكلفاً ، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شىء من الرّيْث فى اختيارها إلا قليلاً ، وكأنهم يقبلون ما يفد عليهم عفو الخاطر . وولى سلطان بن سيف (١٠٥٠ – ١٠٩١ هـ) ويفتتح ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستهله بهذه الصورة[2] :

«الحمد لله العزيز عزّ أن تعوم فى بحور صفاته جوارى (سفن) الفِكَر ، وأن تروم تنظر كواكب تكيُّفه بصائرُ أولى البصر ، أو أن تشاهده بمخارق العيان والنظر ، العالم بدبيب النملة والذر . . الذى (لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ فى السموات ولا فى الأرض) ولا (فى ظلمات البر والبحر) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر ، أو أن يدرك الأشياء بالسماع والخبر ، أو أن تحوى عليه أحداث القضاء والقدر . أحمده على ماصبَّ برياض قلوبنا من سلسال العبر ، وحَسم عنا من أوصاب الكدر . وأشكره على ما حوَّلنا من يانع نعمه وقدَّر ، وسقانا من عصير كَرْم كرمه وعزَّ وتكبَّر . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة أعدها جُنَّةً ليوم المحشر ، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وَزر . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

(١) تحفة الأعيان ٢ / ٢٦ .

(٢) التحفة ٢ / ٤٧ .

دعا إلى الله وأنذر ، وقاد الناس إلى الخيرات وبشَّر ، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكَّر» .

وأكبر الظن أن كاتب هـــذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه ، بل هو كاتب أديب من الإباضية كان يكتب بين يديه ، بل لقد كان أديباً عالماً ، فهو يصدر فى أول العهد عن عقيدة الإباضية التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفى التجسيم عن الله بكل صورة من صوره وتنزيهه تنزيها مطلقاً عن الشبه بالمخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كيْفٌ أو جهة أو أى صفة من صفات البشر . والكاتب أديب بارع ، فقد التزم فى نحو صحيفة كبيرة صدَّر بها الرسالة قافية الراء ، وطاوعته دون أى عسر أو التواء ، مما يدل على تملكه لناصية الكلام . وهو يعنى بالتنميق فى عباراته ، إذ يضيف إليها وشى الجناس والتصاوير والاقتباس من الذكر الحكيم ، على نحو ما يتضح فى اقتباسه لقوله جَلَّ شأنه : (لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ فى السموات ولا فى الأرض) وقوله (فى ظلمات البر والبحر) . وتكثر الاقتباسات والجناسات فى العهد بعد تلك المقدمة . وقد ذكرنا فى الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين اليعربيين الإباضيين قَبض على صولجان الحكم فى ديار ومدينتا صُحار ومَسْقط فى أيدى البرتغاليين ، فطردهم كما مر بنا منهما ومن سواحل بلاده شر طردة مستعيناً فى ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية ، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتعقب أسطولهم فى كل موقع ، ويبدو أن سفنا منه حاولت الإلمام باليمن ، فدمرها تدميراً . ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدى إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب ، ويتبادلان رسالتين ، فى أولاهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه [1] :

«إنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ، لأجل قطع جنودنا فى العام الماضى رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم . ولعمرى إنا لندرى أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائدُ مَحْضَ المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم ، وانتهاك المحارم . ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً ، ولا نجد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ مخالبنا ، لمشارَّة (لمخاصمة) رعيتك ، ولا لاستباحة دم أهل حُكْمك وأقضيتك (أقاليمك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددنا اللهاذم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديَّان

(١) التحفة ٢ / ٥٦ .

تعرُّضاً منا لرضا رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة فى إدراك أجر الصابرين المجاهدين . وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عَبدة الأصنام ، وأعداء الله والإسلام ، ألستَ من سلالة على بن أبى طالب ، الساق المشركين وَبِىء المشارب ، وأنت تدرى ما جرى بيننا وإياهم من قبلُ فى سواحل عُمان ، وفى سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة الصِّيال ، وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لنأخذهم فى كل موضع تحلّ به مراكبهم وتغشاه ، حتى من كنج وجيرون بَنْدَرى الشاه (ملك فارس) ولم يُظْهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً ، وإن كنت فى شك من ذلك فاسْئَلْ به خبيراً »

ويذكر سيف بن سلطان لإسماعيل بن القاسم أنه ترك فى تعقب البرتغاليين مدافع فى ظَفار التابعة له وأنه حرىّ أن يردها عليه . وتمتلئ قلوبنا أسى حين نقرأ رسالة إسماعيل بن القاسم التى ردَّ بها على سيف بن سلطان إذ بدلا من أن يطلب منه الصفح عن كبوته وعثرته المُرْدِية ، ويرجع إليه مدافعه وأسلحته ، يُبْرق له ويُرْعد ، ويتهدد ويتوعد ، إذ تمضى رسالته على هذه الشاكلة [1] .

« وصل كتابك الذى شحنته بالإبراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب ، إلى تخشين الخطاب ، ظنا منك أن هذيان وعيدك ، وطنين ذباب تهديدك ، يزعزع من بأسنا صخرةً صمَّاء ، أو يحرِّك من وقارنا جبالاً شمَّاء ، وكيف يكون ذلك :

وأسيافُنا فى كل شرقٍ ومغربٍ بها من قِراعِ الدارعين فلولُ

أين ذهب حِجاك حتى طلبت منا المدافع بهذه الأراجيف والفقاقع ، وإنما تقطع أعناقَ الرجال المطامع . أما علمت أن الليث إذا هيج على فريسة كان أشد إقداماً ، وأعظم جرأة واعتزاماً ، لا جرم أنها لما نأت بنا وبك الديار ، وحالت دوننا ودونك الأمصار ، استرسلت فى لفظك ، وجاوزت فى سوء المقدار حَدَّك ، وانفردت بأرضك . فطلبت الطعن والنزال وحدك :

يا سالكا بين الصوارمِ والقَنا إنى أشُمُّ عليك رائحةَ الدَّمِ

فاقطع عُرى آمالك عن هذه المدافع ، فهى أول غنيمة – إن شاء الله – من قطرك الشاسع »

والكتاب حقاً محزن ، إذ كان المنتظر أن يضع إسماعيل بن القاسم يده فى يد سلطان بن سيف حين جاءه كتابه ، ويعود إليه صوابه ، ويعلن نصرته له ضد البرتغاليين الآثمين . وعلى العكس من ذلك مضى فى غَيِّه يتوعد سلطان بن سيف بمعركة كمعركة النهروان التى

(١) التحفة ٢ / ٥٨ .

تعقب فيها على بن أبى طالب الخوارج ومزّق جموعهم ، وكان حريا أن يحيّى فيه جهاده للبرتغاليين ويشدّ أزْرَه . لا برد المدافع والأسلحة التى تركها فى ظفار فحسب بل أيضا بإمداده بالأموال ، إن لم يستطع أن يمده بالفرسان والرجال ! . والرسالتان تتخذان السجع قرارا لها ، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مهما شرقنا أو غربنا فى الجزيرة العربية .

٣

رسائل شخصية

طبيعى أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة ، إذ كان يلم بهما كثير من العلماء والأدباء . وكانوا يتكاتبون ويتراسلون مع علماء البلدتين وأدبائهما ، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم ، من ذلك رسالة كتب بها مفتى مكة الحنفى وأحد أعلامها العلماء فى نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمرى إلى أبى المواهب البكرى مفتى الديار المصرية ، وذلك فى سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج فى السنة المذكورة ، وهو يستهل رسالته على هذا النمط[1] .

« إنَّ أشرفَ ما تتوَّج به المفارق والرءوس ، وأبهرَ ما تبتهج به المهارق والطُّروس ، وأبهى ما يُنْظَمُ فى سلك السطور ، من الدُّرَرِ الباهرة لدرر النحور ، وأنهى ما يُرْقَمُ (يكتب) فى صكوك الصدور ، من الغُرر المضاهية للآلئ البحور ، تحيات نُظمت بأنامل الإخلاص عقودُها ، وتسليمات رُقمت بطراز الاختصاص بُرودها ، تشفعها الأدعية التى على ألسن المقربين تُتلى . . صادرة من قلب منيب أوّاه ، ناظرة أن ليس فى الوجود إلا الله ، فها ملائكةُ الإجابة ، تحفُّها بالقبول والإنابة ، بأن يديم الله للعلم وأهله ، ويُبْقِ للفرع وأصله ، بقاء مولانا الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأعصم ، والجهبذ النقاد ، والكوكب الوقاد ، والبحر الزخار ، والليث الزءّار ، عالم الإسلام على الحقيقة ، الجامع للشريعة والطريقة ، كشاف مشكلات العلوم ، حلال معضلات الفهوم :

عَلاَّمةُ العلماء واللُّجُّ الذى لا ينتهى ولكلِّ لُجّ ساحلُ

الإمام العلامة ، الهمام الفهامة ، شيخ الإسلام ، ملجأ الأنام ، مفتى المسلمين ، صدر المدرسين ، الحَبْرُ النِّحْرير ، إمام الفقه والتفسير . . مفتى السلطنة الشريفة (يريد السلطنة

(١) سلافة العصر ص ٧٣ .

العثمانية) بالقاهرة الزاهرة المنيفة» . وإذا تساءلنا ماذا قرأنا فى الرسالة حتى الآن لاحظنا تَوًّا أننا لم نقرأ إلا سلاما وتحية ودعاء وثناء . وهذه المعانى البسيطة تتحول إلى ما يشبه حيطا تنتشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة ، صيغت فى أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع ، ولكنها سرعان ما تتلاشى دون أن تترك وراءها مضموناً واضحاً ، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين المكى من رسالة كتب بها إلى صديق له فى الطائف ردا على رسالة كان بعث بها إليه . وهو يمضى فيها على هذا النحو[1] :

«ما روضة غنّاء تدفقت أنهارها ، وما حديقة حسناء تصادحتْ أطيارها ، ومادَوْحةٌ أمال أغصانها النسيم ، وما سَرْحةٌ (شجرة) غرَّدتْ بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم ، وما هيفاء قد برزت متلثّمة بالجمال ، وطلعت بأفق الحسن كالهلال ، وما الخزامى والمندل (العود) الرطب ، وما العنبر والعبير إذا فاح وشبّ (سطع) . وما الدر المكنون فى الصَّدف ، وما ساعات السرور المعدومة من الصُّدف ، بأجل من كتاب ورد فبَّرد بوروده غليل مشتاق ، وأخجل بورده وعُوده روائحَ النرجس الغَضّ وما يُنْثر فى الأطباق ، قد نظمتْ قلائدَ عِقْيانه أناملُ مولى تسنَّم ذروة المجد ، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد ، تختال فى رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تلحق جواده ، وترشف حياضه العذبة أرباب الفصاحة والبراعة مقتفية آثاره كى لا تضل جادَّة الإصابة والإجادة ، قد هبَّ من خلال سطوره نسيمه الرطب فأشفى العليل ، وجرى من بحر منثوره شهده العذب ، فبرَّد اللوعة وأطفأ الغليل »

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة ، وكأن ليس الغرض أن تؤدى الرسالة طائفة من المعانى ، إنما هى تؤدى طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب الاستعارات والمجازات وألوان الجناس . وحاول الشيخ أن يظهر تفننه فى صنع العبارة المسجوعة ، فأطالها فى آخر هذه القطعة ، ولكن بعد أن جعلها تتوازن داخليا ، فكلمة «فرسان البلاغة » فى عبارة يقابلها «أرباب الفصاحة والبراعة » فى العبارة التالية ، وكذلك كلمة «نسيمه الرطب » فى عبارة يتلوها فى العبارة التالية «شهده العذب » وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا فيه رسالة استعطاف بديعة للحسين بن على بن القِمّ وجّه بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصُّلَيحى (٤٨٦ - ٤٩١هـ) يستعطفه ،

(١) سلافة العصر ص ٩٩ .

ولا ندرى بالضبط ما سبب هذا الاستعطاف وخاصة أنه كان – كما مر بنا فى ترجمته بين الشعراء – القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكاتب رسائلها . وتذكر المصادر أن أباه وضع يده فى يد جياش بن نجاح حين استولى على زبيد من الدولة الصليحية . وربما حدثت نبوة بينه وبين سبأ فألم بزبيد فأغضبه ذلك منه ، والرسالة تمضى على هذا النمط[١] :

«كتب عَبْدُ حضرةِ السلطان الأجلّ مولاى ربيعِ المُجْديين ، وقَريع المتأدبين ، جَلْوة الملتبس ، وجذوة المقتبس ، شهاب المجد الثاقب ، ونقيب ذوى الرشد والمناقب ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوّه وارتقاءه ، ما قُدِّمت العارية للمستعير ، ولزمت الياء للتصغير ، وجعل رتبته فى الأوّلية عالية المقام كحرف الاستفهام ، وكالمبتدأ إن تأخر فى البِنْية ، فإنه مقدم فى النِّيّة . ولا زالت حضرته من الحادثات حِمَى ، وللوفود مُزْدَحماً وملتزَما ، حتى يكون فى العُلا ، بمنزلة حرف الاسْتعلا . . ولا زال عدوُّه كالألف ، حالها يختلف ، تسقط فى صلة الكلام ، ولا سيما مع اللام ، فإنه – أدام الله علوه – أحسن إلىّ ابتداء ، ونشر علىّ من فضله رداء ، أراد أن يخفى ، وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان ، سقوط ذكره عن اللسان – كالمفعول رُفع رَفْع الفاعل الكامل لما حُذف من الكلام ذكرُ الفاعل – وأنا أُهْدِى إليه سلاماً ما الروض ضاحكه النَّوْض[٢] ، غُرِس ، وحُرِس ، وسُقِى ، ووُقِى ، وغِيب ، وصِيب[٣] ، فأخذ من كل نَوْءٍ[٤] بنصيب ، زهاه الزَّهر ، وسقاه النَّهر ، جاور الأَضا[٥] فحَسُن وأضا ، رَتَع فيه الشُّحْرور[٦] ، ومرَح العصفور ، فنظر إلى أقاحيه ، تفترُّ فى نواحيه ، وإلى البَهار ، يضاحك شمس النهار ، فجعل يَلْثِمُ من ورده خدوداً ، ويضم من أغصانه قدوداً ، ويقتبس النارَ ، من الجُلّنار[٧] ، ويلتمس العقيق من الشقيق[٨] فتثنّى ثَمِلاً ، وغنّى خفيفاً ورَملاً ، بأطيب من نفحته المسكية ، وأعطر من رائحته الذكية ، وإنى وإن أهديته فى كل أوان ، من أداء ما يجب غيرَ وان ، أعُدُّ نفسى السُّكَّيت[٩] فى السبق ، لتقصيرى لما وجب علىّ من الحق» .

وكل من يقرأ رسائل أبى العلاء المعرى يحس بوضوح صلة هذه الرسالة بها ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن شعره أنه كان يستوحيه فى بعض أبياته ، ومعروف أن أبا العلاء كان يتصنع فى

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٣٢ .
(٢) النوض : مجرى الماء ، ويريد الماء نفسه .
(٣) غيب : غاب بذره فى الأرض . وصيب : أمطر .
(٤) النوء : المطر .
(٥) الأضا : الغدير .
(٦) الشحرور : طائر كالعصفور رحيم الصوت .
(٧) الجلنار : زهر الرمان .
(٨) الشقيق : ورد كبير أحمر .
(٩) السكيت : آخر خيل الحلبة .

رسائله تصنعاً واسعا لجلب مصطلحات العلوم اللغوية ، وهو أول من نهج بقوة هذه السبيل ومهَّدها لمن جاءوا بعده [١] ، وتأثره فيها شرقاً وغرباً الكتَّاب ، وها هو ابن القم اليمنى الذى يوشك أن يكون معاصراً له يتأثره فى هذا الأسلوب الجديد ، فإذا هو يدعو لسبا بن أحمد بدوام علوه وارتقائه دوام لزوم الياء عند الصرفيين للتصغير ، ويدعو له بدوام تقدم رتبته على الأمراء والسلاطين من حوله كدوام تقدم حرف الاستفهام على جملته أو عبارته ، وكدوام تقدم المبتدأ على الخبر ، وحتى إن هو تأخر عنه كان متقدماً عليه فى النية . وإنه ليتمنى له أن يظل دائماً متسنماً ذروة العلا ، مثله مثل حروف الاستعلاء عند أصحاب التجويد والقراءات وهى سبعة : ق ، ظ ، خ ، ص ، ض ، غ ، ط ، وهى دائماً تفخم فى النطق ، فلا يدخل عليها ترقيق . ويجعل عدوه كالألف ، حاله دائماً مختلفة ، إذ هى تأتى للوصل وللقطع ، ولا ينطق بها فى مثل الشمس والنور والصلاة .

ولا ريب فى أن ذلك تعقيد وتصنع شديد ، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات . وظاهرة ثانية فى الرسالة اندفع فيها ابن القِمّ وراء أبى العلاء وإن لم يبعد إبعاده ، وهى ظاهرة التصنع للفظ الغريب ، فقد وشَّاها به ، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يجلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم ، حتى يثبتوا مهارتهم ، وهى مهارة لغوية خالصة . ونحمد لابن القِمّ أنه لم يسرف فى هذه المهارة . والرسالة تصور براعة حقيقية فى استخدام السجع ، فقد كان يستطيع أن يأتى به قصيراً ، بل مفرطاً فى القصر ، حتى لتكون السجعة أحياناً كلمة واحدة . والجناس كثير فى العبارات ، من مثل قوله : «جَلْوة الملتبس» و«جَذْوة المقتبس» و «البهار» و «النهار» إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة ، وهو يمضى فيها مستعطفاً محاولا بكل ما فى وسعه أن يستل الضغينة من صدر سبأ بمثل قوله :

«وأما حال عبده ، بعد فراقه فى الجلَد ، فحال أم تسعة من الولد ، ذكور ، كأنهم عِقبان وصقور ، كَنَّوا [٢] فى وُكور ، اختُرِم [٣] منهم ثمانية ، وهى على التاسع حانية . نادى النذير ، العُربان فى البادية ، للعادية ، يالَلْعادية [٤] ، فلما سمعت الدَّاعىَ ، ورأت الخيل وهى سراع ، جعلت تنادى ولدها : الأناة ! الأناة ! وهو ينادى العُداة ! العداة :

---

(١) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (نشر دار المعارف – الطبعة الثامنة) ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٢) كنوا : استتروا وأقاموا .

(٣) اختُرم : مات .

(٤) العادية الأولى : الداهية ، والثانية : الخيل .

بَطَلٌ كأن ثيابه فى سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوءم [١]

فحين رأيته يختال فى غضون الزَّرد المصون [٢] أنشأت تقول :

نَشَدْتُ أَضْبَطاً يَعيـ ـلُ بين طَرْفاءٍ وغِيلْ [٣]

لباسُه من نسْج دا ودَ كَضَحْضاحٍ يَسِيل [٤]

فعرض له فى البادية أسدٌ هَصُور ، كأن ذِرْعه مَسَدٌ [٥] مضفور :

فتطَاعَنا وتواقفتْ خيلاهما وكلاهما بطلُ اللقاء مقنَّعُ

فلما سمعتْ صياحَ الرَّعيل [٦] ، بَرَزَتْ من الخِدْر بِصَبْرٍ قد عِيل [٧] . فسألت عن الواحد ، فقيل لها : لحَده الملاحد :

فكرَّت تبتغيه فصادفتْهُ على دمهِ ومصرعه السِّباعا

عَبِثْنَ به فلم يتركن إلّا أديماً قَدْ تمزَّق أو كُراعا [٨]

وما هذه الأم الثكلى بأشدَّ من عبدك تأسفاً ، ولا أعظم كمداً وتلهفاً ، وإنه ليعنِّف نفسه دائماً ، ويقول لها لائماً : لو فعلْتِ لَفَطَنْتِ [٩] ولو عقَلْتِ لما انتقلتِ ، ولو قَنِعْتِ لرجعتِ ، وما هَجَعْتِ :

يُقيم الرجالُ الموسِرون بأرضهم وترمى النَّوَى بالمُقْتِرينَ المراميا [١٠]

وما تركوا أوطانهم عن ملالةٍ ولكنْ حذاراً من شَماتِ الأعاديا

أيها السيد ! أمن العدل والإنصاف ، ومحاسن الشِّيَم والأوصاف ، إكرامٌ لمهان ، وإذلال جواد الرِّهان ، يَشْبَع فى ساجُورة [١١] كلبُ الزِّبْل ، ويَسْغَبُ فى خِيسه أبو الشِّبْل [١٢] :

إذا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مكانةَ فاضلٍ وأصبح ربُّ الجاه غيرَ وجيهِ

فإن حياةَ الحرِّ غيرُ شَهِيَّةٍ إليه ومنعمُ الموت غيرُ كريه

---

(١) البيت لعنترة والسرحة : شجرة طويلة يعتصم عليها خصمه بالطولة والطول كأنه سرحة أو شجرة سامقة ويصفه بالترف إذ يتنعل بنعال السبت الجيدة ، كما يصفه بالقوة إذ ليس توأما شركه غيره فى بطن أمه .

(٢) غضون : ثنايا . ويريد بالزرد المصون الدرع .

(٣) الأضبط : العامل أو المقاتل بيمينه ويساره والطرفاء : شجر . الغيل : الغابة

(٤) تصف درعه وأنه متين من نسج داود ، ويشبهون كثيرَ الدروع وثنايها بتدوين الماء حين هبوب الرياح

(٥) هصور : شديد . ذرع : طول . مسد : حبل .

(٦) الرعيل : القطعة من الخيل .

(٧) عيل : عدد .

(٨) الكراع : الساق .

(٩) فطنت : أفقت .

(١٠) المقترون : أصحاب العيش الضيق .

(١١) الساجور : خشبة صغيرة تعلق فى عنق الكلب .

(١٢) يسغب : يجوع . الخيس : غيل الأسد

أقول لنفسي الدنيَّةِ هُبَّي طال نَوْمُكِ ، واستيقظي لاعزَّ قومك ، أرضيتِ بالعطاء المتزور[١] وقنعتِ بالمواعيد الزور ، يقظةً فإن الجِدَّ قد هَجع ، ونُجْعَة فمن أجْدَب انتجع » .

ويتشبه ابن القيم فى هذه القطعة بأبى العلاء من ناحية وببديع الزمان الهمدانى من ناحية أخرى . أما تشبهه بأبى العلاء أو محاكاته له فتتضح فى الألفاظ الغريبة التى يحشدها فى نثره ، وحتى الشعر يرى أن يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب ، على الأقل إلى حد ما . وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار ، وقد حاكاه فى ذلك وفى تضمين رسائله بعض الحكايات القصصية ، حين شبَّه نفسه وتحسره على ما فقده من قرب سأ وقيامه على ديوانه بأم لتسعة فقدت ثمانية منهم ، وبقى لها ولد واحد ، هو كل أملها فى الحياة ، فإذا غارة على الحى ، وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحريم . وهى تصيح به من ورائه خائفة جزعة تريد أن ترده ، ويتراءى لها فى بطولته وبأسه وسلاحه ، وعبثا تحاول ردَّه . ويلقاه من الأعداء فارس ، بل أسد هصور ، وتدور عليه الدوائر ، وتسمع صياح الخيل حين عودتها ، فتبرز من بيتها تسأل عن فلذة كبدها ، وتعرف أنه سُفك دمه ، فتخرج إلى العراء باحثة عنه ، وتجده أشلاء ممزقة . فياللهول ويا للكارثة المقضَّة للمضاجع . ويقول إنه ليس أشد أسفاً منها ولا كمدا وتلهفا على فقده لعمله عند سأ ولعطفه ورعايته . ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سأ عتاباً رقيقاً ، كله لطف ، ملوِّحا له بحقه عليه ، وأنه قرَّب إليه واصطفى من هم دونه فى المنزلة الأدبية ، وكأنه يَعْرض عليه الصفح عنه والعفو . آملا فى العودة ، إلى سابق مكانته ، وإنه ليصرح بأنه أجدب ، وخليق به أن ينتجع ، وأن يجد الوادى ممرعاً كعهده .

وإذا كنا قد وجدنا فى اليمن كاتبا مبكرا يحاكى أبا العلاء وبديع الزمان فى بعض رسائلها فإننا نجد فى حضرموت كاتباً يحاكى الحريرى لا فى مقاماته ، ولكن فى بعض رسائله ، وكان الحريرى قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب فيها صديقاً أخلَّ به فى دعوة دعا غيره إليها . وعلى غرار هذه الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمى رسالة سينية طويلة نقتطف من مطلعها قوله[٢] :

« باسم السلام[٣] أستبدى ، وبإسعافه أستهدى ، وبأسمائه أستنجد ، ولنفثات سره

---

(١) المتزور : القليل .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٤ .

(٣) السلام : من أسماء الله .

أستنشد ، وبإسبال ستره أستظل ، وبإسدال أستاره أستقلّ . . تقدس سبحانه ، وسما إحسانه ، واستطال سلطانه ، وأستعينه وأستنصره ، وأستقيله وأستغفره ، وأستعيذه من دسائس إبليس ، وسائر التلابيس ، وسطوة النفوس ، وسؤال المنحوس . . وأسأله التيسير ، وسكون الفردوس لا السعير ، وأسلم سلاما مستمراً ، يتلمّس سيد السادات سنّ السيرة ، حسن السريرة ، المخرس بلَسَنه المُلْسِنين ، السالك سبيل أسلافه السائدين » .

وتمضى الرسالة فى ألفاظ مبعدة فى الغرابة ، كى يدل الكاتب على مهارته ، وهى ليست مهارة أدبية ، ولكنها مهارة لغوية ، وكانوا يعدُّونها زخرفاً وتنميقاً ، ونحس كأن الكلمات يُرَصّ بعضها بجوار بعض فى الرسالة ، فهى صفوف سينية ، أو هى صناديق سينية ، نقرأ فيها سينيات ، ولكن لا نقرأ فكرا ولا شعورا ، وقد كثر فيها الجناس كثرة مفرطة . وكل ذلك محاكاة للحريرى ومحاولة للدنو من طريقته فى رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين ، مع ما يطوى فى ذلك من التصعيب والتعقيد . ويقول من ترجموا له وكتبوا عن هذه الرسالة إنه كان لها دوىٌّ بعيد فى الأوساط الأدبية الحضرمية ، إذ عدوها طرفة غريبة وظلوا يتداولونها طويلاً . على أن الكثرة من رسائل الأدباء الحضرميين لم تكن تُغْرب هذا الإغراب ، بل كانت تكتفى بالسجع ، وقلما اصطنعت الألفاظ الغريبة الآبدة .

ونترك حضرموت إلى البحرين ، ونلتقى فى كتاب سلافة العصر ببعض رسائل لأدبائها ، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبى شبابة البحرانى إلى ابن معصوم صاحب الكتاب ، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها ، يقول [1] :

« أنّهى أبْهَى سلام ، شَدَتْ بنغمات السرور أطياره ، وبَدَتْ على صفحات الدهور أنواره ، وأصلحَ دعاءٍ تعاضدت شرائط إجابته ، وترادفت وسائط إصابته ، وسمت مصاعد قبوله ، ونمت فوائد فروعه وأصوله ، وأنفس ثناء ثُنيت بالوفاء وسائده ومسانده ، وبُنيت على الولاء قواعده ومقاعده ، وخالص إخلاصٍ حديث خلوصه قديم ، وحظ خصوصه مستقيم ، أخدم به . . شمس سماء المحامد والفضائل ، وغُرّة سماء الأماجد والأفاضل ، ديباجة صفحتى الشرف والفتوة ، ونتيجة مقدمتى الولاية والنبوة ، صاحب ذيول العز الشامخ ، وصاحب أصول المحتد الباذخ ، مربع الكرم والجود ، ومرتع الآمال والمقصود ، الذى نبطت أعمدة فضائل أحسابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة ، وأصبحت كعوبِ أعراقه فى الكرم متناسقة ، وشعوب أخلاقه فى الهمم متوافقة » .

---

(١) سلافة العصر ص ٥٠٦ .

وتطَّرد الرسالة على هذه الصورة من الجناسات المتلاحقة ، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وَشْىْ الجناس ، إن صح أن يسمى هذا وشيا ، وماهو بوشى ، بل هو ألفاظ متراصَّة ، قد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها ، والعدد ليس كافياً ، بل لابد أن تكون موازِنة لها موازَنة تامة ، فكلمة « شدت بنغمات السرور أطياره » توازنها كلمة « بدت على صفحات الدهور أنواره » وكلمة « تعاضدت شرائط إجابته » توازنها كلمة « ترادفت وسائط إصابته » وفى أثناء ذلك تُرَصُّ الجناسات رصًّا ، فالوسائط تليها المساند ، والقواعد تليها المقاعد . ويلى ذلك خالص وإخلاص وخلوص وخصوص . وكلمة « شمس سماء المحامد والفضائل » توازنها كلمة « غرة سماء الأماجد والأفاضل » وكلمة « ديباجة صفحتى الشرف والفتوة » توازنها كلمة « نتيجة مقدمتى الولاية والنبوة » . وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى فى الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم . ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه طبيعية ، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفِرْجار ، وقد حُشد الجناس بجميع صوره : جناس الاشتقاق والجناس الناقص ، وحُشد كثير من الاستعارات ، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحَظ فى وسائد الثناء ومسانده وكعوب الأعراق وشعوب الأخلاق . وهذه الصورة التى يسودها التصنع كانت شائعة فى البلاد العربية وخاصة فى حقب هذا العصر المتأخرة .

٤

مواعظ وخطب دينية

لا ريب فى أن المواعظ كانت مزدهرة فى مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخطبون الناس ، أو يلقون عليهم المحاضرات ، واعظين مذكرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر ، فالناس كأنهم سَفْر وقوف ، وكل منهم ينتظر أجله ، ولن ينفع أحداً إلا ما قدمت يداه . وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامى ، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم الإلمام بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يؤدى فريضة الحج ، وكان كثير منهم يجاور بها أو بالمدينة ، ويتحول واعظاً فى الحرم المكى أو الحرم المدنى . وكم كان الأدب العربى يثْرَى ويَغْنى لو أن الوعظ فى المدينتين سُجِّل فى الكتب وعُنى به من يحفظ عيونه. ولعله من الطبيعى أن نجد ابن ظفر الذى

مَر بنا ذكره بين شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية يتحول بكتابه « سلوان المطاع فى عُدوان الأتباع » واعظا . وعادة يذكر المعنى ثم يتلوه بموعظة مسجوعة ، تعقبها أحياناً أبيات حكمية .

والمعنى الذى يلم به « سُلْوانة » أو سَلْوة ومن هنا جاء اسم الكتاب . وكثيرا ما تجرى سلواناته فى شكل حكم ، كقوله فى سلوانة التأسى : « التأسّى جَنَّةُ البلاء ، وسنَّة الأُلَّاء . التأسّى دَرَج الاصطبار ، كما أن الجزع دَرَك التَّبار (الهلاك) . ومن قوله فى سلوانة الرِّضا : من رَضِى ، حَظِىَ . من تَرَكَ الاقتراح ، أفلح واستراح . كن بالرِّضا عاملا قبل أن تكون له معمولا ، وسِرْ إليه عادلا وإلا صرتَ نحوه معدولا » . والكتاب يفيض بالحكم الواعظة من مثل قوله : « ما أحرى الملول ، بأن يُحْرَم المأمول . من لزم الرُّقاد ، حُرِم المراد . التنعم فى الدنيا يضاعف حسرة زيالها (مفارقتها) ويؤكِّد غُصَّة اغتيالها . الهوى طاغية فمن ملكه ، أهلكه . الهوى كالنار إذا استحكم اتّقادها عَسُرَ إخمادها . الغريب ميت الأحياء قد أعاده البَيْن ، أثراً بعد عين » .

ونتحول من الحجاز إلى اليمن ، وتلقانا فيها المواعظ فى كل مكان وزمان ونجدها فى الرسائل وفى الوصايا على شاكلة ما نقرأ فى وصية الملكة الحرة الصليحية أَرْوَى بنت أحمد ، وهى لا شك من عمل بعض الوعاظ ، وقد جاء فى فواتحها [1] :

« لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات ، وخالق المخلوقات ، جَلَّ وعلا أن تناله صفة ، أو تدركه معرفة ، الخلائق فى قبضته ، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته ، لا معقب لحكمه ، ولا رادَّ لأمره ، إنه العدل الذى لا يجور ، والحكم الذى لا يَحيف ، والصادق الذى لا يُخْلف ، والعفوُّ الذى لا يؤاخذ ، خالق السموات والأرضين ، وإله الأولين والآخرين ، ذو الأسماء الحسنى ، والكلمات التامَّة صدقا وعدلا . له ملائكة انتخبهم من بريته ، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته (يسبحون الليل والنهار لا يَفْترون) و(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) . وإن الجنة حق ، خلقها الله للمطيعين من بريته ، الخائفين من سطوته ، المؤمنين به ، المصدقين لوعده ، الموفين بعهده ، المتبعين لرسله ، العاملين بمقتضى آياته وكتبه . وإن النار حق أعدها الله لمن جحد أنبياءه ، وخالف أولياءه . . وتمادى فى غَيِّه وأسرف فى أمره ، وأصرَّ على كفره » .

وهذه الموعظة فى مطلع الوصية كان وراءها مواعظ كثيرة ، لا فى بيئة الدولة الصليحية

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٣٢٣ .

وحدها ، بل فى بيئات كل الدول والإمارات التى كانت تعاصرها ، وأيضا فى الدول التى جاءت بعد ذلك ، ونقصد إمارة الزيديين ودولتى الرسوليين والطاهريين ، حتى إذا أصبح الصولجان فى اليمن بيد الزيديين ظل الوعظ مزدهراً . وكانت ترفده دائماً خطابة الجمعة فى المساجد والجوامع أسبوعيا ، كما كان يرفده المتصوفة ، ومن أشهرهم فى عهد الرسوليين أبوالغيث[1] بن جميل الملقب بشمس الشموس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة ، وسُئل عن الصوفى من هو ؟ فقال : « هو مَنْ صَفَاسِيُّه من الكدر ، وامتلأ قلبه من العِبَر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمَدَر[2] » . ومن دعائه : « اللهم إنى أسألك يا روح روح الروح ، ويالبَّ لُبَّ اللبِّ ، ويا قلّب قلب القلب ، هَبْ لى قلباً أعيش به معك ، فقد حَلقت كلَّ ما هو دونك لأجلك ، فاجعلنى ممن شئت من هذه الخملة » . وكان يعاصره أحمد بن عنوان الذى مرَّ ذكره وله فى الوعظ كتاب نَحَى فيه منحى ابن الجوزى فلذلك يقال له جَوْزىّ اليمن وله فى التصوف فصول كثيرة[3] ، وله أتباع من الدراويش المعروفين فى اليمن بالمجاذيب ، كانوا ينشرون هناك كلامه ومواعظه . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع حديث عن عبد الله بن أسعد اليافعى نزيل مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفى ومواعظ كثيرة . وصنف فى الصوفية وتراجمهم – كما مر بنا – كتابا سماه « روض الرياحين وحكايات الصالحين » .

وكان الوعظ مزدهراً فى حضرموت ، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم ، غير من كانوا يعظون الناس وراءهم فى المساجد وفى خطابة الجمع ، ومن أشهر متصوفيها أبو بكر العيدروس ، ومرَّ بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية فى حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وله نثر صوفى ووعظ كثير ، ومن قوله فى الفرق بين الشريعة والحقيقة[4] :

« الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه ابتعاث القصد للقاصدين وهو المقصود . خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبته ، حتى أقام عليه حجته ، وبإثباته له قام عليه أمره ونهيه وجازاه ، على مقتضى سعيه فناداه : (وأنْ ليسَ للإنسان إلا ما سعى) وتارة أقام نفسه وأخفاه ، فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فحصحصت الحيرة ، وعَميت الأبصار والبصيرة . فوفَّق من شاء من عباده للوقوف عند مكنون علمه ، فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه ، فالعلم المتجلى على الجسم علم ظاهر ، وهو علم

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ١٠٧ .
(٢) المدر : القطعة من الطين .
(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٣٠ .
(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١١٨ .

الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن ، وهو علم الحقيقة . فأقام ظاهر الإسلام على أركان ، القائم بها جوارح الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان ، القائم بها صميم الجنان ، ولكن لما خفى عن الأسماع الحسية ما بالقلب جُعل له ترجمان وهو اللسان ، فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة » .

وأبو بكر العيدروس يشير فى أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شىء قدر مقدور ولا مفر منه ، ولاحول ولا قوة للإنسان إزاءه ، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحريته وأن كل شىء إنما هو بمشيئته . ويقول إنهما جميعاً حائران ، ويضع فوقهما أهل الحقيقة من الصوفية القائمين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمى ذلك عمل الجوارح ، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذى لا ينضب معينه إذ يستمد من المحبة الإلهية ورحيقها الصافى . وتصوفه بذلك تصوف سنى كتصوف الغزالى وأضرابه ، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن .

وطبيعى أن يكثر الوعظ فى خطابة الخوارج الإباضية بعُمان ، وقد وقف الجاحظ فى كتاب البيان والتبين مراراً عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم ، ونوَّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبى حمزة قائد عبد الله بن يحيى الكندى ، وروى بعض خطبه ، وهى تمتاز بألفاظها الطلية ومعانيها القوية . ولا شك فى أنه ظلت شعاعات من خطابته وخطابة عبد الله بن يحيى وعبد الله بن إباض تدور فى ألسنة خطباء الإباضيين بعدهم ، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة فى عصر إمامهم ناصر بن مرشد (١٠٢٤ – ١٠٥٠ هـ) وهى تمضى على هذا النمط [١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى هدم بالموت مشيَّد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، وجعلهم أغراضاً لسهام الأقدار ، ووكَّل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ، وتجرى منهم مجرى الدماء فى الأبشار ، لا يعتصم منهم معتصم بالحِذار ، ولا يختص بها الفقراء دون ذوى اليسار ، بل هى آيات عَدْلٍ عدل الله بها فى البادين والحُضَّار ، أحمده على نعمه المُسْبَلة الغِزار ، وأعوذ به من العتوِّ والاستكبار ، وأستغفره للذنوب والأوزار ، من الكبائر والإصرار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، مبوِّئة مَنْ شَهد بها دار القَرار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المختار ، أرسله بأيمن شِعار ، وأبين فخار ، وأنور منار ، وأطهر إعلان وإسرار ، وأظهر

(١) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ٢ / ٣٦ .

برهان وإنذار ، من صميم العرب فى النضار[١] ،وأكرمها فى الفخار ، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار ، منصوراً بالملائكة الأبرار ، ﷺ ، وعلى آله الأطهار ، آناء الليل وأطراف النهار : أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظتها واعية ، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبها مراعية ، وإن مطامع الآمال كاذبة فهل همة إلى التنزه عنها داعية ، وإن طوالع الآجال واجبة فهل قَدمَ إلى التزود من الدنيا ساعية » .

وتستمر الخطبة فى الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع بترت أعمارهم الدهور الغوابر ، وابتلعتهم الحفر والمقابر . ومثل السلف الخلف ، فهم دائماً هدف للتلف . عظة ينبغى أن يتعظ بها العاقل ، فينفق ساعاته فى التقوى والعمل الصالح . وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول ﷺ وعلى آله قائلة : « اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ما ذرَّ شارق[٢] ،وأومض بارق ، وفاه ناطق ، اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد بعدد أنفاس الخلائق ، وبعدد ما فى السموات السبع الطرائق ، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق» . ثم تستنزل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول فى الغار ورفيقه فى الأسفار ، معدن الجود والفخار ، وسيد المهاجرين والأنصار . أول ساع إلى شرف التصديق ، أبى بكر الصديق ، وأيضا على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين . والخطبة مبنية على السجع ، وليس ذلك فحسب ، فإن منشئها تكلف فى الأسجاع الأولى أن يلتزم فيها الراء دلالة على مقدرته البلاغية ، حتى إذا انتهى من التحميد والشهادة والتمجيد لله ولرسوله وأخذ فى الوعظ بنى قوافى أسجاعه على الألف والعين والتاء ، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية ، ورأى أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية فى العبارات أو السجعات ، فكلمة خاطبة فى السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها فى السجعات التالية كلمات صائبة وكاذبة وواجبة ، فكأن السجعات المتوالية لا تتوازن خارجيًّا فى القوافى النهائية فحسب ، بل تتوازن أيضاً داخلياً ، إذ تتقابل فيها قواف تتوسط العبارات ، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها فى العبارة أو العبارات التالية .

وإذا كانت المصادر لم تسعفنا بمواعظ أو خطب دينية فى البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبِّجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين فى ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية فى الجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائماً قائماً ، كما كانت الخطابة فى المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت فى جملتها مواعظ خالصة .

---

(١) النضار : الذهب والخالص من كل شىء . (٢) الشارق : الشمس .

٥

محاورات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا فى الحقب المتأخرة من هذا العصر باليمن محاورات ورسائل فكاهية متنوعة ، من ذلك محاورة لعلى بن صالح بن أبى الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية [١] ، وكان المسجد قد بناه العثمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح فى حال رثة فلا فراش ولا سراج ، فشكا حاله لمسجد جناح . فأشار عليه من باب النصيحة ، لما بينهما من المودة الصحيحة ، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك ، إذ النساء مصابيح البيوت ، وفوّض له مسجد المذهب اختيار المدرسة التى يراها كُفْؤاً له . وأشار عليه بإحدى مدرستين : البكيرية فريدة العصر ، أو المرادية خريدة القصر . وذهب معه إلى البكيرية ، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدلّة ، وقالت له : اخرج يا جناح أنت والمذهب ، قبل أن تُصْفَع وتُضْرب . وخرجا ، وجناح يتمثل بقول ذى الرمة :

على وجه مَىٍّ مسْحةٌ من ملاحةٍ وتحت الثياب الخِزْيُ لو كان باديا

ونهضا إلى المدرسة المرادية ، وأفهمها جناح أن المذهب جاء معه لخطبتها ، وأنه نعم الرجل الصالح ، العاقل الراجح ، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستتر بهما وتتجمل ، وقنديلاً تنتفع به ليلة تتأهل . ويمضى على بن صالح قائلا :

« فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر ، فلست على تحصيلهما بقادر ، فالمفارش غالية ، وليس عندى غير بُسُطٍ بالية . فقال له جناح : أشهد أنك رجل وقاح . أما علمت أن المفارش كسوة أمثالها ، وأنه لا يخطر البساط ببالها . وسأشير عليك بما يأسو جراحك ، ويَريش جناحك ، فقال : سَمْعاً لأمرك ، وطوعاً لحكمك . فأْمُرْنى بما تراه ، فإنى لا أتعداّه . فقال : قد علمت أن البكيرية طردتك ، وتهددتك بالضرب وتوعّدتك ، فإذا كان جُنْح الظلام ، وقد هجع النوّام ، انسللتَ انسلال الخائف الذليل ، وأخذت منها مفرشتين وقنديل [٢] فقال : قد أشرت بما فى النفس ، فإنى مُهَمْهِمٌ به من أمس . فلما نشر الظلام ثيابه ، ومدَّ على الأنام جلبابه ، خرج من محلّه وانسلَّ ، وسقط عليها سقوط الطَّلِّ ، فأخذ المفرشتين والقنديل ، وعاد إلى منزله فرحاً بالتحصيل ، ولما أسفر ضوء

(١) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة (٢) الكلمة منصوبة وترك نصبها للسجع . ٢ / ٢٢٤ .

الصباح أشار إلى مسجد جناح ، بأن المطلوب قد حصل ، فانهضْ بنا لتمام العمل . فحملا إلى المرادية ما اشترطته . . »

وتمضى المحاورة ، فتذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توسل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهب له مفرشةً وقنديلاً . يقول على بن صالح :

« فقال له جناح : عاودْ ذلك المحل ، فلعلك تظفر بالأمل . وقد كانت البكيرية جمعت مَنْ حولها من المساجد القريبة ، وطلبت منها الرأى فى دفع هذه المصيبة ، فأجمع رأى المساجد والمدارس ، على أن يستأجروا لها حارس[1] فقالت : علىّ تحصيل الأجرة ، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة ، فاختاروا لها مسجد عقيل ، وقالوا لها : هذا نعم الحارس والنزيل . فلما جَنَّ الظلام وهجع النوّام ، أقبل مسجد المذهب ، وهو خائف يترقّب . فخرج عقيل ومَنْ حوله من المساجد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فهرب من بينهم وفرّ ، فما قعد فى مجلسه ولا استقرّ ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عُقيلاً ومن معه يغيرون عليه ، فأقبلوا يُهْرَعون إليه ، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزّحام ، فقال : اعلموا ياجيرانى ، أنى راقد بمكانى ، فأتت المساجد فى جمع الدياجى ، تريد[2] تسرق بساطى وسراجى ، فأعينونى على الحق ، وأدركونى ولما أمزّق ، فرجع كل مسجد إلى مكانه . واجتمعت المساجد عند البكيرية فى الليلة الثانية ، ليتفاوضوا فى دفع هذه الداهية ، فأجمعوا على أن يحفروا للمذهب حفرة فى أرض ، بقدر طوله والعرض ، وأن يربطوا الشّباك إلى جانب المئذنة والشُّباك . فسكت عنهم أيام[3] ، ثم أقبل على حين غفلة من الأنام . . فوقع فى تلك الشّباك ، وكاد أن يشرف على الهلاك » .

ويمضى على بن صالح فى المحاورة ذاكرا أن المساجد تجمعت من حوله ، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة ، منتظرا انقضاء المدة ، وأخذت المساجد تضربه وتركله ، وافدة عليه رَعيلا فى إثر رعيل ، وهو بينهم كالأسير ، قد غلبه البكاء والزفير . وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه ، ويدعو له المدرسة المرادية فى الحال . وأقبلت تتبختر فى ثيابها تائهة على أترابها . ويهجم عليها فى غير حياء . فتغضب المساجد ، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه . ويعزم على الرحيل ، ويأسى مسجد الإمام له . لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبزر وطلحة والأبهر أن تتوسط له

---

(١) لم ينصب كلمة حارس للسجع .

(٢) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة .

(٣) ترك النصب للسجع .

لدى المرادية ، فنهضوا إليها . وعرضوا الكلام عليها ، فرفعت النقاب ، وقالت : ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب ، وتقول : « على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندى ، وكاد الهوى أن يخرجنى عن جلدى . . وإنى كنت لا أصلح لمثله ، ولم أكن قد تزوجت من قبله ، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشيء خير من جهله ، واشهدوا بأنى قد وكلت مسجد الإمام ، يعقد لى بالمذهب ، قبل أن يتبع هواه أو يترهَّب . . وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال : بالرفاء والبنين» .

والمحاورة طريفة فى فكاهتها خفيفة فى ألفاظها وأسجاعها ، وهى تمتد إلى نحو اثنتى عشرة صحيفة ، ولها قيمة تاريخية ، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء فى عصر الكاتب من عدم العناية بفرشها ومصابيحها وتجصيصها أو طلائها بالجِصّ وترميم جدرانها وما تآكل من حيطانها ، ولعلى بن محمد العنسى المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة ، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدى القاسم بن الحسين (١١٢٨ – ١١٣٩ هـ) الملقب بالمتوكل أمر به الفقيه الزهوانى أن يعطيه عشرين قدحاً من الشعير ، وقد سماها : الروض الأقْحوانى فى الشعير الزَّهْوانى . وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يمطله ويؤجله فى البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكها[1] :

« مولاى حامى حمى الدين ، وحافظ بَيْضة المسلمين ، خلَّد الله إقباله ، وضاعف جلاله ، حوَّلْتم للمملوك بعشرين قدحاً على الفقيه الزَّهوانى ، الذى لا تُقْبَضُ الحوالة منه إلا بالأمانى ، فسلَّم للمملوك منها أربعة أقداح شعير كان قدسَها عنها خازن الإمام صلاح الدين فى ذلك العصر ، فتركها فى زاوية من زوايا القصر ، ثم مرَّت عليها الأعوام والدهور . . وغمرها التراب إلى كعب الشَّراك[2] . لما استولت على اليمن علوج الأتراك . ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التى لبس الدهر بها شبابه ، وزان جَبينه بأشرف عِصابه . وقد صار ذلك الشعير دفيناً تحت ترابه . وقد ذهب لُبُّه لطول المدة فلم يبق غير إهابه . ثم تعاقبت على المخزن أيدى الخُزَّان ولكنهم لم يبلغوا فى التحرى والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح ، ذو الطبع المَرضىّ والخلق الشحيح ، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا ، ولا أهمل المثل السائر : كم فى الزوايا من الخبايا ، فعثر فى بعض لفتاته على تلك الزاوية التى اشتد ظلامها ، وخفيت أعلامها ، فرأى شيئاً مجموعاً ، وتَلاًّ مرفوعاً . . فلاحت له منه شعيرة بغير شعوره ، أسرف لأجلها فى حُبوره ، وتصحيف سروره [3] ، فأمر بإثارة ذلك الكنز

---

(١) نشر العرف ٢ / ٢٩٥ .

(٢) الشراك : الحذاء .

(٣) تصحيف سروره : يقصد شروره .

المدفون ، والدفين المخزون . ثم عيَّر[١] ، فحصل منه أربعة أقداح ، فجاءت وفق الاقتراح ، واتفق لسوء الحظ حضور الرسول الغَرير[٢] ، حال بُعث من مرقده ذلك الشعير ، فكيل له فى الغرائر[٣] على غِرَّة ، وقيل له : خُذها ، واحذر العَوْد بعد هذه المرَّة » .

والفكاهة واضحة فى الرسالة ، وهى تلسع ولا تجرح ولا تدمى ، فكاهة تحمل حيناً دعابة وحيناً سخرية خفيفة ، دون أن تؤذى ، وقد أنهاها بقطعة شعرية بديعة . وكانوا يُلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قضية طريفة كأن نجد يحيى بن إبراهيم الجحَّاف يسوق سؤالا[٤] عن صديق عاهده على التعاون ، وخاصة حين تبتسم له هو الدنيا ، وتعبس فى وجه صديقه ، فإنه حينئذ يمد له يد العون ولا يتركه لمحن الدهر تعصف به ، غير أن هذا الصديق لم يف بعهده . وإنه ليسأل علماء العدل وقضاة الإحسان وحكام الإنصاف ومشايخ المروءة ما يقولون فى صديقين تغذَّيا بلبان المحبة واستظلا بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التى هى أوثق من أخوة النسب ، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه ، فتناساه وأهمله ، فما حكمه ؟ يقول : « فهبت لأحدهما ريح الإقبال ، ولمعت له لمعة سعد ، وأمطرته سحابة خير . . وبقى الثانى فى ظل العفو وروض العافية . . يسبح من حسن الظن فى غير ماء ، ويطير مع طول الأمل بغير جناح . . إن التفت يمنة وجد محنة . أو نظر يَسرة رأى حسرة ، أو حاول به اللحاق احتاج إلى البُراق . وقد كان يقسم بالله الذى وسعت العباد رحمته ، وشملتهم نعمته أنه إذا أُثنيت له الوسادة ، ولاحظتْه عين السعادة ، وخرج من زاوية الخمول ، وطلع نجمه بعد الأفول . . لَيُبْلغَنَّه من الخيرات ما لا قلبٌ فكَّر فيه ، ولا لسان نطق به ، ولا جارحة تكلَّفته ولا عين رأته ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر قط . فافتونا مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى : ما الذى يجب فى شريعة المودة ، ويُسَنُّ فى دين الفتوة ، ويُنْدَب فى ملة الوفاء ، ويباح فى فقه العرف . . وهل من توبة تعلمونها لهذا الصاحب » . .

والقضية طريفة ، وهى قضية اجتماعية ، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون ، وخاصة حين يرزق السعادة ، فإنه لن يترك صديقه يعانى بؤس الحياة ومرارتها ،

---

(١) عيَّر : كال من الكيل . فيه الشعير ونحوه .

(٢) الغرير : الغر الذى لا تجربة له .

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهى وعاء من الخيش يحمل

(٤) نثر العرف ٢ / ٨١٣ .

بل سيأخذ بيده . ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن . حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه ، وكأن لم يكن بينهما عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة .

ونلقانا - من حين إلى حين - مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التى تركها الحريرى وإنما بالصورة التى تطورت إليها فيما بعد من المناظرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف والشتاء . قصداً لبيان القدرة الأدبية . وفى الجزء الرابع من نفحة الريحانة مقامة طريفة للسيد محمد بن حيدر على لسان الفقر والغنى جعل فيها الفقر يتفوق على الغنى فى العلم وتحصيله .

obeikandl.com